الجزء السابع والثامن　　　　　　　　　　　　　　　　المجلد الحادي والعشرون

مجلة

المجمع العلمي العربي

تموز وآب سنة ١٩٤٦　　　　　　　　　　　　　　　　شعبان ورمضان سنة ١٣٦٥

العلامة المراغي شيخ الأزهر (١)

لم تنبغ أمة من الرجال في العلم والآداب بقدر ما نبغ من العرب ومن دخل في جملتهم من الأجناس والعناصر · حقيقة اعترف بها من تجردوا من الغرض في درس تاريخنا من الافرنج · بيد ان من كان لهم طابع خاص وأثروا تأثيراً لم يؤثره غيرهم كانوا قلائل في كل جيل ولا سيما في القرون الأربعة الأخيرة · فلو فرضنا ان من استحقوا ان تدون سيرتهم في هذه الملة لا يقلون عن مئة الف لا يتجاوز النوابغ الممتازون منهم المئات ظهروا خلال عمر هذه الأمة الطويل وخدموا بأبحاثهم وتآليفهم ودروسهم ومواعظهم ·

وقد وضع العلامة ريبرا من علماء المشرقيات من الاسبان جزازات في تراجم ثلاثين الف عالم وأديب أخرجتهم الأندلس من رجال العرب في ثمانية قرون · وليسوا كلهم بالطبع من عيار ابن رشد وابن باجة وابن حزم وابن زهر وابن الخطيب وابن خلدون كما ان من ظهروا في الشرق ليسوا كلهم من طبقة الرازي وابن سينا والفارابي والبيروني وأبي حنيفة والجاحظ والنظّام والخليل وابن المقفع وابن تيمية ·

(١) ألقيت أولاً في ردهة المجمع العلمي العربي ·

ظهر في الاسلام ألوف من المحدثين والطبقة المختارة منهم عشرون أو ثلاثون وظهر عشرات الألوف من الفقهاء واهل الطابع الخاص منهم الممتازون بإبداعهم ليسوا كثرة ، وخرج مئات من الحكماء ، والمشهورون منهم لا يعدون العشرات . ان الدساتير يحفظها اكثر من يعانون أعمال العقل والعبرة بما يتم على أيديهم وبما يحملون الى امتهم من جديد يجدي عليهم .

كان العلم في العصور الماضية يصدر عن العواصم الكبرى يهرع اليها ارباب الكفايات لما يجدونه فيها من استعداد لسماع اقوالهم والانتفاع بمواهبهم . وكانت المدن الذاهبة بهذا الفضل بادئ بدء البصرة والكوفة والمدينة ودمشق وبغداد والفسطاط والري وشيراز واصفهان ونيسابور ثم النجف والموصل وصنعاء وصعدة وفاس والقيروان وتونس (افريقية) والقاهرة . ولما تحيف الخراب معظم هذه العواصم وانحطت في مدنيتها بقيت القاهرة وتونس وفاس والنجف تخرج علماء للأمة فعدت لذلك مراكز العلم . وكان الجامع الأزهر اشهرها واعظمها لتوسط مصر بين مدن الاسلام في إفريقية وآسيا ولأن اهل الخير من سكانها وقفوا على هذا الجامع من الاحباس ما يضمن الانتفاع به على الدهر ، ولأن مصر كانت في الاسلام دولة برأسها أو شبه دولة ممتعة بحكم ذاتي « والعلم مذ كان محتاج الى العلَم » .

وظلّ الأزهر يخرج رجال الدين منذ اقام صلاح الدين يوسف بن أيوب دولة السنة وقضى في مصر على دولة الشيعة الفاطمية . وكان اصحاب الفضل الواسع المتخرجون في تلك الدار أقلّ من القليل والمتوسطون كثرة على ما هم في كل زمان ومكان . والمتوسط في العادة ينسى والمبرز هو الذي يفاخر به تاريخ الامة ، ولا تبرح الألسن تردد ذكراه ، والصحف تنقل آراءه وأخبـاره ، والناس يستفيدون من كلامه ما انعقدت للعربية سوق وأقيمت شعائر الاسلام في ارض .

وممن نبغ في مصر من المتأخرين شيخ الأزهر العلامة الشيخ محمد مصطفى المراغي . اشتهر لا لأنه تولى اعظم منصب في الاسلام ، فقد يتولى المتوسطون

بعلمهم أسمى الرتب وهم لا يعدُّون حفظ ما جرت العادة بحفظه ولا تمثلوا ما قرأوه . اشتهر لأنه كان حرياً بالشهرة جمع الى الفقه والأُصول ما تعوز العالم معرفته من أصناف العلم فما أتقن علوم الدين وقال : قطني ، بل تعلقت همته بمطالب أُخرى فشارك مشاركة لا بأس بها في المعارف التي كان رجال الأزهر ينفرون منها . وهذا من النادر في العلماء المعاصرين ، ونعني بالعلماء هنا علماء الدين . وكان العلم اذا أُطلق يراد به علم الكتاب والسنة فقط . والقاعدة عند من انصرفوا الى هذا الضرب من العلم ان صاحبه لا يشغل قلبه بغيره من اصناف المعرفة التي كانت في القديم العامل الأول في تميز العرب على من عاصروهم من الأمم ، وهي في العهد الحديث من أعظم الأسباب في قيام الحضارة الغربية .

ومن أهم ما ساعد المراغي على تفوقه على أقرانه ان امتاز بذاكرة قوية يذكر ما مرَّ به من خمسين سنة لا يخرم منه معنى وقد جمع الى ذكائه الفطري استقلال الفكر وحب الاطلاع فما سد أذنيه وعينيه عن سماع الجديد والنظر فيه ، وكان على مثل اليقين ان مجد الاسلام لن يكتب له الظهور ان لم يقرن بالعلم الجديد . استظهر القرآن وتدبره تدبراً قل ان كان في الفقهاء المتأخرين من داناه فيه ، وحفظ وهو في القضاء بضعة دواوين لشعراء معروفين من اهل الجاهلية والاسلام .

وحظه الحظ فتخلص من القيود التي وضعها اهل كل مذهب وقضوا ان تؤخذ اقوال صاحبه قضايا مقررة يحظر على العقل ان يجول فيها ، فهو مجتهد استوفى كل شروط الاجتهاد ومجتهد ممتاز بمشاورة العقل . نعم عزم الشيخ منذ تمت أدوات ثقافته ان يستقي من ينابيع الشريعة الصافية ولم يغفل ما تعب أهل المذاهب الجماعية به من الآراء والأحكام ، وما تشدد فيما رخص به الشرع او أقرته المذاهب الأخرى ، ودعا للعمل بجوهر الدين من دون ما تزمت ولا تضييق ، وحرص على ان يبعده عما لا يتفق مع منازع التجدد .

فصديقنا المراغي خلق عالماً امتاز بمرونته . وما كان فيه جمود من أخملتهم التقية وما اتسعت صدورهم الا لما رووه عن مشايخهم او وقفوا عند حد ما قرأوه في

الكتب وما عبأوا بسواه ، نظر وهو في سن الطلب في علوم لم تدخل برنامج الأزهر وشعر بفساد طريقة المشايخ في تدريسهم ، وشارك في الشكوى من الشروح والحواشي والهوامش ، ولطالما كانت تربك ذهن الطالب وتقصيه عن معرفة اللغة وعن روح الشريعة فيخرج كالببغاء يحفظ ما يلقنه دون ان يفهم معناه .
وكان بقدر ما يعنى بالأخذ عن شيوخه يعتمد على درسه الخاص وبقدر ما كان يدأب على تحصيل دروس الأزهر يسمو به الشوق الى الاطلاع على ما في علوم الغربيين من متاع للروح والعقل ، وقد قيل لي انه تعلم اللغة الانكليزية أيام كان في السودان قاضياً واصبح يفهم الكتب العلمية فيها وانه قرأ ترجمة مير علي للقرآن باللغة الانكليزية وكان يصحح ما وقع من غلط في الترجمة الانكليزية . نعم لم يقيد الشيخ نفسه باعتبارات الأزهريين كثيراً شأن بعض النوابغ يشذون أحياناً عن مصطلح قومهم ويكون الخير في هذا الشذوذ .

استطال الشيخ اعوام الدّراسة على ما يظهر وهمته تحفزه الى الاسراع بالخروج الى ميدان العمل ، فتقدم لامتحان العالمية وجاز السنتين الأخيرتين في سنة واحدة كما قال لي عن نفسه معتقداً انه ما دام قد تعلم ما يطلب منه معرفته فالواجب ان يُقدِم ولا يضيع وقته في الانتظار . وبهذا أثبت ان الطالب قد يتعلم في بيته اكثر مما يتعلم من حضور الدروس في أوقات مخصوصة على معلمين بعينهم . اما هو فقد جمع بين الفضيلتين ما زهد في التلقي ولا اقتصر عليه ، وروى العارفون انه حضر على المشايخ قراءة الكتب المطولة المعروفة عند الأزهريين إلا انه ما أتمّ قراءة كتاب منها ذلك انه كان يرى ان من العبث صرف الوقت في حل معميات هذه الأسفار .

دخل الأستاذ في الحياة العملية في سن مبكرة فتولى القضاء قبل أن ينتصف العقد الثالث من عمره وابان عن مقدرة على معاناته وظهر انه عارف بسياسة العلم وسياسة الخلق ، فكأن والده وهو رجل شرع مثله أورثه خير صفات من يعدلون بين الناس ، وكانت داره في الصعيد الأعلى مفتحة الأبواب لحل مشاكل قومه

وفض خصوماتهم . وقد اخذ القاضي الشاب من بيته من الأخلاق عدل ما تعلمه في الأزهر من علم ، فسعد ابوه به وباخوته وهم بضعة علماء وقضاة على رأسهم ابنه الأكبر شيخ الأزهر الذي تولى هذه الرياسة العظيمة في حياة أبيه . اما بنوه هو فقد ربوا تربية مدنية ليس فيهم من لاث العامة على رأسه .

أصبح المراغي شيخاً للأزهر في الثامنة والأربعين من عمره ، وندر من تولى هذه المشيخة وهو في هذه السن فأتى بنشاط الشباب وحنكة الشيوخ فاهتم الاهتمام كله لاصلاح الأزهر الذي كان واضع أساس الاصلاح فيه شيخه وشيخنا الأستاذ الامام محمد عبده . ولما شعر بأن لائحته في اصلاح الأزهر لن تقبل استقال ولزم بيته محتفظاً باستقلال فكره وعزة نفسه ، وخلفه في الرياسة الشيخ الظواهري وكان أشبه بشيخ زاوية منه بشيخ علماء وانحصر عمله في الاصلاح بطرد سبعين عالماً من خيار علماء الأزهر . وعاد الشيخ المراغي الى الأزهر ثانية بعد ما تركه الشيخ الظواهري بإهانة لم يهن مثلها شيخ قبله ، يشمر عن ساعد الجد في اصلاحه وأتمّ وضع اساس كليات التخصص ككلية علوم اللغة العربية وكلية أصول الدين وكلية العلوم الشرعية . وكان يعتقد ان الأزهر يحتضر منذ طلبت وزارة الأوقاف وهو من مفتشيها خطباً منبرية فجاءها خمسمائة خطبة لم تصلح واحدة منها لأن تلقى على المصلين ، يعتقد ذلك وهو يرى ان دار العلوم تنازع الأزهر افضليته في تعليم العربية ومدرسة القضاء الشرعي الملغاة تنازعه بتدريس الشريعة . وبإصلاح المناهج قضى الأزهر الحديث على فوضى التدريس فيه ، وبالرجوع عن البرامج العتيقة صبغ الأزهر بما يلائم الزمن ، ويقرّب الأزهري من الحياة العملية ، وصارت دروسه القديمة بمثابة دروس ثانوية تهيئ الطالب للتخصص وهذا بمثابة الدراسات العالية او التعلم العالي .

تم له كل هذا بعد ان صرح في مذكرته الاصلاحية : واني اقرر مع الأسف ان كل الجهود التي بذلت لاصلاح المعاهد منذ عشرين سنة لم تعد بفائدة في نهضة التعليم وأقرر ان نتائج الأزهر والمعاهد تؤلم كل غيور على أمته وعلى دينه

وقد صار من المحتم لحماية الدين — لا لحماية الأزهر — ان يغير التعليم في المعاهد وان تكون الخطوة الى ذلك جريئة ويقصد بهـا وجه الله تعالى فلا يبالى بما تحدثه من ضجة وصراخ وقد قرنت كل الاصلاحات في العالم بمثل تلك الضجة ٠

والى هذا شجع الشيخ أيضاً البعثات الأزهرية ٠ ومتى كان الازهر يقول بأكثر العلوم الحديثة حتى يذهب نوابغ طلابه يستزيدون من العلم في جامعات الغرب [1] ؟ ومتى كان طلاب الأزهر قبل المراغي يدرسون اللغة اليابانية وغيرها ليكون منهم دعاة يدعون الى الاسلام على نحو ما يدعو المبشرون الى النصرانية ؟ وفي أي عهد قرئت الفلسفة في هذا الجامع وشرحت قضاياها بحرية كما كان في زمن المراغي ؟ الى غير ذلك من الأمور التي كان يريد بها اطلاق عقول الأزهريين من عقالها وادخالهم في طور جديد ينفع ٠

حاول الشيخ النهوض بالأزهر بتثقيف خريجيه ثقافة جديدة وكان يحز في قلبه تخلف اهله في علمهم وعملهم وهو القائل في وصفهم : «انهم استكانوا في القرون الأخيرة الى الراحة وظنوا ان لا مطمع لهم في الاجتهاد فأقفلوا أبوابه ورضوا بالتقليد وعكفوا على كتب لا يوجد فيها روح العلم وابتعدوا عن الناس فجهلوا الحياة وجهلهم الناس ، وجهلوا طرق التفكير الحديثة وطرق البحث الحديث وجهلوا ما جدّ في الحياة من علم وما جد فيها من مذاهب وآراء فأعرض الناس عنهم ونقموا هم على الناس ، فلم يؤدوا الواجب الديني الذي خصصوا أنفسهم له وأصبح الاسلام بلا حملة ولا دعاة بالمعنى الذي يتطلبه الدين ٠

في احدى جلساتنا في دار الشيخ المراغي في حلوان ايام كونه معتزلاً الأزهر — وكثيراً ما كانت تدوم الجلسة ثماني ساعات — تفضل وقرأ عليّ بعض تقاريره الدينية ومنها تقريره في الأحوال الشخصية الذي صدر القانون المصري عليه ،

---

(١) سبقت وزارة المعارف في عهد وزيرها العالم معالي محمد حلمي عيسى باشا الى ارسال أول بعثة أزهرية الى الغرب تألفت من أزهريين وغيرهم من طلاب الجامعة ودار العلوم كتب فيها التفوق لطلاب الأزهر أولاً وآخراً ٠

وهو التقرير الذي لم يتقيد فيه بالمذاهب الأربعة واخذ من اكثر المذاهب المعتمدة ، وكتبه ببيان يقلّ نظيره في الكتابات الرسمية ، فرجوته ان يطبع ما كتب فما رأيت منه ميلاً الى النشر ، وكان عمله في هذا الباب لا يقل نفعاً عن فتواه في الحد من الطلاق وقبله كان باب الطلاق مفتوحاً على مصراعيه . وقد حدثت في العهد الأخير حوادث في الطبقات العالية طلب اليه ابداء الرأي في الطلاق فأبى مع علمه ان امتناعه قد يغضب المستشير .

ومما دل على علو كعبه في حرية البحث فتواه في جواز ترجمة القرآن وله في هذه المسألة الشائكة بحث ممتع نشر في مجلة الأزهر . وفي هذه المجلة طائفة من تفسيره بعض سور الكتاب العزيز وبعض خطبه وآرائه وفيها فتاواه في المعضلات وهي تدور على تقريب الناس من الشرع والتوفيق بين الدين والمدنية ويبدو فيها نور العقل والتجدد .

وقد حملت اقاريره وتفاسيره من اساليب البلاغة ما يستكثر من شيخ ازهري . وفي الرسائل القليلة التي دارت بيننا نموذج من فصاحته وبلاغته . وكان يكتب بدون تكلف بألفاظ عذبة رقيقة لا سجع فيها ولا ازدواج . وعبارته رشيقة موجزة تشبه عبارات المؤلفين في القرن الرابع والخامس وتغلب عليه الفاظ القرآن وتحس ان كاتبها مشبع الى الغاية بألفاظه ومعانيه . أما طلاقة لسانه فكانت كبلاغة قلمه وربما ظن السامع وهو يتلو درسه او عظته او خطبته انه يقرأ من كتاب او من حفظه لأنه يشاهده وقد نسق كل فكر الى جانب اخيه ووضع ما يروى وما يريد ان يعلق عليه في مواضعه .

كان الشيخ حنفي المذهب ويأخذ من المذاهب الأخرى ما يناسب العصر والمصلحة ، وكان في اطلاعه على المذاهب الأخرى آية وكثيراً ما قال للجنة الأحوال الشخصية عند البحث في الهبة والوصية والوقف : ضعوا من المواد ما يبدو لكم انه يوافق الزمان والمكان وانا لا يعوزني بعد ذلك ان آتيكم بنص من المذاهب الاسلامية يطابق ما وضعتم .

ومن رأيه توحيد المذاهب وقال في احدى مذكراته « يجب العمل على إزالة الفروق المذهبية او تضييق شقة الخلاف بينها فان الأمة في محنة من هذا التفرق ومن العصبية لهذه الفرق » . « ومعروف لدى العلماء ان الرجوع الى اسباب الخلاف ودراستها دراسة بعيدة عن التعصب المذهبي يهدي الى الحق في اكثر الأوقات وان بعض هذه المذاهب والآراء قد احدثتها السياسة في القرون الماضية لمناصرتها ونشطت اهلها وخلفت فيهم تعصباً يساير التعصب السياسي ، ثم انقرضت تلك المذاهب السياسية وبقيت تلك الآراء الدينية لا ترتكز الا على ما يصوغه الخيال وما افتراه اهلها . وهذه المذاهب فرقت الأمة التي وحدها القرآن الكريم وجعلتها شيعاً في الأصول والفروع ، ونتج عن ذلك التفرق حقد وبغضاء يلبسان ثوب الدين ، ونتج عنه سخف مثل ما يقال في فروع الفقه ان ولد الشافعي كفء لبنت الحنفي ومثل ما يرى في المساجد من تعدد صلاة الجماعة وما يسمع اليوم من الخلاف العنيف في التوسل والوسيلة وعذبات العمائم وطول اللحى حتى أن بعض الطوائف لا يستحي اليوم من ترك مساجد جمهرة المسلمين ويسعى لانشاء مساجد خاصة » .

وقال : يجب ان يدرس الفقه الاسلامي دراسة حرة خالية من التعصب لمذهب وان تدرس قواعده مرتبطة بأصولها من الأدلة وان تكون الغاية من تلك الدراسة عدم المساس بالأحكام المنصوص عليها في الكتاب والسنة والأحكام المجمع عليها والنظر في الأحكام الاجتهادية يجعلها ملائمة للعصور والأمكنة والعرف وأمزجة الأمم المختلفة كما كان يفعل السلف من الفقهاء .

وقال بشأن دراسة التفسير والحديث : يجب ان يدرس القرآن دراسة جيدة وان تدرس السنة دراسة جيدة وان يفهما على وفق ما تتطلبه اللغة العربية وعلى وفق قواعد العلم الصحيحة وان يبتعد في تفسيرهما عن كل ما ظهر للعلم بطلانه وعن كل ما لا يتفق مع قواعد اللغة العربية .

وصرح ان الكتب الأزهرية معقدة لها طريقة خاصة في التأليف لا يفهمها

كل من يعرف اللغة العربية وانما يفهمها من مارسها ومرن على فهمها وعرف اصطلاح مؤلفيها . وقال : كان اكثر العلماء يطرقون الاحتمالات المتعددة في عبارات الكتب وكان هذا هو كل شيء اشتهروا به في العلم وما كان يوجد فيهم من يستطيع ان يحاضر في موضوع علمي ولا ان يلخص مسألة من المسائل بعبارة يمكن ان تفهم ، وما كانوا يعنون بالموضوعات العلمية من جهة الأدلة ومقارنة المذاهب ونقدها، بل كانوا يعنون بالألفاظ فلم تكن الدراسة شهية مثمرة .

نعم هو يرى ان الشريعة جاءت لخير البشر وما دسَّه فيها بعض المتأخرين بجهلهم أو تساهلهم يجب ان ينقى منها كما ينقى الزؤان من صوبة الحنطة ، ويعتقد اعتقاداً جازماً ان الله يحب ان تؤتى رخصه كما تؤتى عزائمه . واليكم ما قاله من مقالة أخيرة (جريدة الاهرام غرة رمضان ١٣٦٣) تحت عنوان « مرحلة من الحياة تقضت » وفيها كلام جليل لا يقول مثله الا رجل اتسع أفقه وعقله واستبطن اسرار مجتمعه وكان من عيار الشيخ المراغي في العلم قال :

هناك أمور ينبغي ان يترفق الفقهاء فيها بالناس وان يراعوا قواعد اليسر التي هي أخص صفات الاسلام ، يراعونها في العمال والمرضى ومن يخدم المرضى ومن يشابههم فيقربون الناس من الاسلام ولا يوقعونهم في الحرج . وعندي ان من يفطر بعذر ويصرح بذلك أطهر ممن يفطر من غير عذر او بعذر ويظهر أمام الناس بالتقوى يرائي الناس ولا يخشى الله . والترخص في المرض أو الترخص للمشقة في العمل يقدره أصحابها ويفتون أنفسهم فيها ، والرقيب هو الله ، والعلماء يبينون الحكم وهو اباحة الفطر للمريض ومن لا يقدر على الصوم أما تقدير القدرة فهو خاص بالعبد ولا شأن للعالم فيه . ثم استشهد بحديث من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في ان يدع طعامه وشرابه .

ما كان الشيخ ممن يرضيهم الأمر الواقع بل كان ممن يجهدون بتغيير الحاضر بما ينفع المستقبل ويدعو الى الاعتبار بالماضي . استمعوا الى هذه الصفحة البديعة ، يصف فيها العصر الذي نشأ فيه شيخه الامام محمد عبده قال وأبدع :

« نشأ الشيخ في عصر من العصور القاتمة ، كل شيء فيه ممض مؤلم للنفوس الحرة والفطر الصادقة: الأمم الاسلامية تنحدر علمياً وسياسياً واجتماعياً الى احط الدركات ، وليس لطالب الحرية العقلية بينها متنفس ، والدين يفهمه الناس على غير وجهه ، واللغة العربية اختلطت بغيرها من لغات العجم ، والزلفى الى الله لها طرق لم يشرعها الله ، والزلفى الى الحكام لها طرق لا يرضاها ذو مروءة . ذهبت ريح المسلمين وتفلت من أيديهم زمام الحياة العامة ، وتداعت عليهم الأمم كما تتداعى الأكلة على القصاع ، وليسوا قلة بين الأمم ، ولكنهم كغثاء السيل .

« ذهب يتعلم فتعلم كما يتعلم غيره قواعد جافة ليس لها حياة تصلها بمنابعها من الكتاب الكريم والسنة المطهرة . ولا بأخذها من لغة العرب وأساليبهم وأدبهم ، وتعلم القواعد في مختصرات رضيها ذلك العصر المظلم ، لا تفهم إلا بشروح وحواش وصناعة خاصة ، فلا اللغة العربية بمسعدته على اجادة النظم والنثر والكتابة والخطابة وحاجة الحكومات والدول في التشريع والتنظيم ، ولا دراسة الكلام والمنطق بموصلة الى الاستدلال الصحيح الذي يطمئن اليه العقل ويقنع الخصم ، المتحدث في الاجتهاد وتخير الأحكام لنطابق الأحكام حاجة العصر ولتلائم أصول الأمم وأحوال الأزمنة مبتدع مخالف لما أجمع عليه المحققون ، والداعي الى سيرة السلف الصالح داع الى مخالفة سيرة العلماء المبرزين ، والداعي الى كتب الأولين مقصر عن فهم كتب المحققين المتأخرين ، والمنادي بأن كتب الفقه وكتب التفسير وكتب الحديث ملئت بمعلومات خاطئة . وبأوهام وقصص لفقها من قِبَلُ علماء الاسرائيليات مخالف لما درج عليه صالحو هذه الأمة وجهابذتها » قال : عاش الشيخ في هذه البيئة العلمية ضيق الصدر مرير العيش ، فمن من أصحاب الفطر الصادقة والنظر السليم ، يؤمن بالقرآن ويعتقد ان فيه هدياً وفيه شفاء ، وان شريعة محمد ﷺ عامة للأمم كلها وللعصور كلها ، يؤمن بأن هذه الدراسة الدينية والعربية تخرج للناس اماماً يهتدون بهديه ، ويشفي أمراض المجتمع في علمه وخلقه ونظامه ويضع له القوانين الصالحة والنظم اللائقة ؟

الى ان قال « عاملان من أقوى العوامل وقفا في طريق الشيخ (الشيخ محمد عبده) عامل الحسد وعامل البيئة ومن المحال ان يوجد رجل كالشيخ في صفاته وعلمه لا يحسد ، ولو انه لم يحسد ولو انه لم يرم بالكفر والضلال ، ولو انه لم يشتد حساده ولم يقاوم أشد المقاومة بسبب الحسد لما كان شيئاً يتحدث عنه ولما كان رجلاً من رجال التاريخ » قال وسبب ثالث له خطره « وهو أن جهة من جهة ذات نفوذ اظهرت عدم الرضا عن الشيخ وساعدت خصومه وان جهة ذات نفوذ آخر ساعدته وشدت أزره فظن القوم انه رجل يريد افساد الدين وافساد العلم » . ومن أشد مظاهر الحسد إذ ذاك ان عالماً من كبار العلماء كتب سلسلة مقالات في جريدة المؤيد يحرم فيها تعليم الحساب والجبر والهندسة والتاريخ في الأزهر ، لأن الشيخ كان أول المبشرين بتعليم هذه العلوم في الأزهر ، وكاد العناد يكون كفراً .

قال : ترك بذور اصلاح التعليم الديني وتعليم علوم العربية وبذور اصلاح القضاء الشرعي وبذور اصلاح المجتمع الاسلامي والأمم الاسلامية وليس في رجال تفسير كتاب الله من يضارع الشيخ أو يقاربه في تطبيق آي القرآن على سنن الاجتماع ، وفي تصوير هدي القرآن وفي فهم أغراض الدين عامة .

وختم الكلام عنه بقوله ودعته ليلة سفري الى السودان لتولي قضاء مديرية دنقلة في نوفمبر سنة ١٩٠٤ فما قال لي أنصحك ان تكون للناس مرشداً أكثر من ان تكون قاضياً واذا استطعت ان تحسم النزاع بين الناس بصلح فلا تعدل عنه الى الحكم فان الأحكام سلاح يقطع العلاقات بين الأسر ، والصلح دواء تلتئم به النفوس وتداوى به الجراح . وداعبني مرة أثر خروجي من امتحان شهادة العالمية قائلاً : هل تعرف تعريف العلم ؟ فقلت له : نعم ، وكنت أحفظ إذ ذاك أكثر تعاريف العلم ، فسردت بعضها ، فقال : اسمع مني تعريفاً مفيداً ، العلم هو ما ينفعك وينفع الناس . ثم سأل : هل انتفع الناس بعلمك ؟ قلت له : لا ، قال : إذاً انت لست بعالم فانفع الناس بعلمك لتكون عالماً .

هذا ما قاله الشيخ في شيخه وما قال الا الحق والغالب انه تقبّل نصيحته بقبول حسن وأزمع ان يكون من ذاك اليوم عالماً كما يريد امامه ينفع الناس بعلمه فجرى على هذه الخطة في القضاء ثم في مشيخة الأزهر وما انفك يدرس ويعظ ويكتب ويفسر القرآن ويدعو الى الأخذ بالكتاب والسنة ويسهل على قاصديه وسامعيه فهم الشريعة السمحة ويطبق أحكامها على العصر أو يطبق احكام العصر عليها واعترف مرة اننا لم نوجد جديداً نافعاً في علم من العلوم حتى الآن ، وما أصدق ما قاله عنه صديقي الأستاذ الشيخ محمود شلتوت من جماعة كبار العلماء ان الشيخ المراغي ما خرج بروحه وعلمه وعقله وتفكيره عن ان يكون تلميذ الأستاذ الامام محمد عبده . وقال مرة : « ولدى الأمة الاسلامية قضايا كثيرة معقدة ، قضية الرجوع بالدين الى كتاب الله وسنة رسوله وأعمال الراشدين . وقضية التعليم الديني على وجه صحيح يوافق ما أثمرته التجارب في الحياة وما أخرجته العقول من ثمرات ناضجة ، وقضية حماية الدين من العدوان والدعوة اليه كما امر الله بالحكمة ، وقضية نظام الأمم الاسلامية وارتباطها بعضها ببعض ارتباط تعاون وتناصر ، وقضية الفقراء والضعفاء واليتامى والمساكين وتدبير أمرهم بحيث تخفف عنهم آلام الحياة وينتفع المجتمع بهم .

« وهناك قضية هي أهم القضايا وهي مقومات الأمم الاسلامية التي يجب ان يحافظ عليها ويبنى المجد على أساسها وهي قضية دقيقة يثور من أجلها عن قصد أو غير قصد خلاف بين المتعلمين وغير المتعلمين والمتمدنين وغير المتمدنين ، ويترتب عليها نظام الاجتماع وقوانينه ونظام التقاليد والعادات .

ولدى الأمم الاسلامية ماض يجرر اثواب الفخر والشرف في كل ميادين الحياة : في ميدان العلم وفي ميدان الفنون وفي ميدان السلطان والعز ، وميدان التشريع والقانون ، لكن بعض الناس يحاولون طمس اعلام هذا الماضي والتخلص منه والزراية عليه والحط من شأنه ويحاولون بناء مجد جديد على أرض بيضاء بحيث لا يكون بين الحاضر والماضى صلة .

«وليس أدعى الى الدهشة ولا أبعث على اللوم من هذه المحاولات التي فيها عقوق الأبناء للآباء ونكران الجميل وانكار التاريخ وفيها لؤم الطباع وسفه الجاهل وطيش المغرور.

«وهل يستطيع عاقل ان ينكر ان لنا أسساً صحيحة قوية من دين وعلم وتقاليد ومقومات من حقها ان نحافظ عليها وان نعتبرها تراثاً عزيزاً لا يليق ان نبدده كما يفعل الوارث السفيه.

«يحاول بعض الناس هذا مع ان الأمم التي ليس لها ماض تحاول ان تخلق لها نسباً بماض مجيد. وبعض الأفراد الذين لهم ذكر نابه بأعمالهم وليس لهم نسب معروف بالمجد يحاولون ان يخلقوا لهم أنساباً معروفة بالمجد والشرف ليحدثوا في نفوس الأبناء شعوراً بعظمة من حقها ان يحافظ عليها اهـ

وصف ما حمله القرآن من التعاليم وردّ دعوى بعضهم ان فيه علوم الأولين والآخرين بقوله: «انه كلما حدثت في العالم فكرة طريفة اجتهدوا في تلمسها في القرآن وفرحوا ان استطاعوا الاهتداء الى اشارة بعيدة اليها، يفعلون هذا في جميع النظريات المرتبطة بالكون واسراره وقواعد الاجتماع والسياسة ولكن من حقهم ان يفهموا ان المعارف البشرية غير مستقرة وانها تتغير ويتجدد بدلها معارف أخرى تختلف عنها أو تناقضها وانه ليس من الحكمة ان نربط هذه المعارف غير القارة بكتاب الله الثابت الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ومن الخير ان ندع كتاب الله يقرر لنا أحكام التشريع ويهدم الوثنية ويجتثها من أصولها، ويرفع العقل البشري الى المستوى اللائق به، ويأخذ بيد الانسان الى المقام الأسمى اللائق بخلافته في الأرض، ويبين لنا العبرة والعظة بأحوال الماضين، ويغرس في نفوسنا تلك الأخلاق الفاضلة من الصبر والقناعة والرضا والشجاعة ويفتح أمامنا أبواب العلم والهداية بما أشار اليه من وجوب النظر فيما صنعه الله. خير لنا ان نفعل ذلك وندع العلماء يقررون معارفهم ويستدلون عليها، ويحملون نتيجة خطئهم اذا تغيرت معارفهم وأثبت العلم نقيضها. قال نعم ان في الكتاب الكريم آيات لا تفهم حق الفهم الا بمعارف فلكية وطبيعية،

ولكن تلك لم تُسَق لتقرر تلك المعارف وإنما نزلت للهداية والعبرة . فليس القرآن الكريم كتاب حساب وفلك وطبيعة وانما هو كتاب هداية وتنظيم لعلاقة الانسان بربه وعلاقة أفراد الناس بعضهم ببعض» .

أجمع انصار السيد المراغي وخصومه على انه كان من خير من تولى رياسة الأزهر لصفات كثيرة اجتمعت له وقلّ أن تجتمع لغيره ذلك لأنه كان يعرف ما هنا وما هنالك ، ويعد من العلماء العارفين بأزمانهم معرفة ثاقبة . طلب اليه ان يترك رئاسة الأزهر ويعطى ما شاء من الأفدنة والمال فأبى . وطلب اليه ان ينضم الى جهة معينة في الرأي (حزب معروف) ويكون له ولأولاده وذوي قرباه ما شاء من الكرامة فأبى وقال ان أولادي واخوتي في نظري أقل من أن أبيع لهم كرامتي .

كان يستميل بحديثه قلوب سامعيه وتفعل في نفوسهم نبراته اللطيفة وان كانوا ممن لا يوافقونه على آرائه كلها . تأدب بأدب الدنيا وأدب الدين اذا عاشرته تحقق انه بلغ الغاية في التهذيب الحديث مضافاً الى ما تحلت به نفسه من فضائل الاسلام ولا تلبث ان تقول ان الشيخ يصلح لإمامة الدين كما يصلح لإمامة الدنيا اي ان يكون شيخ الاسلام يدعو الى عقيدة وايمان وان يكون رئيس وزارة يعاني من احداث الزمان ما يعاني . ولا نكون الى الغلو اذا ادعينا انه قل في امثاله من استجمعوا صفات العظمة الحقيقية . وله في باب الاريحية أشياء عرفت عنه بالعرض تدل على صفاء روحه وفضل نجدته . كان يتصدق في السر وهو ليس بغني ويأخذ العهد على من يعطيه ان يكتم ما وصل اليه منه . وحدث ان احد أصدقائه من أهل العلم هدّد بالافلاس ان لم يؤد ما استحق عليه من مال للحكومة ففتح الشيخ دواوين الازهر ليلاً ليبتاع منه مقداراً من الكتب ويدفع له ثمنها في الحال لينقذ شرفه واعتباره .

ولقد انتخبه المجمع العلمي العربي عضواً مراسلاً فيه فاعتذر بكثرة أشغاله قائلاً انه استقال من المجمع اللغوي في مصر للسبب ذاته ، ودعوته لينزل عليّ ضيفاً في دمشق ويصطاف في ربوعنا فتعذر عليه البر بوعده لأن حالته لم تمكنه من مغادرة القطر خصوصاً بعد عودته ثانية الى مشيخة الأزهر .

أخذت الأعمال الادارية والسياسية والقضائية من وقت الشيخ الأكبر فكان شأنه شأن أستاذه الشيخ محمد عبده لم يخلف مؤلفات كبيرة يودعها لباب علمه وزبدة تحقيقه ، وما خطته يمينه دعت الى تسطيره الدواعي وقام به لأمور اقتضتها حالة عمله . وعندي ان تقاريره ومذكراته ومقالاته كافية في الحكم عليه وافية في تخليد اسمه اذا تيسر لها من يجمعها ويطبعها[1] ورب صفحة تعادل بفائدتها رسالة مطولة ، وكم من رسالة هي أيضاً انفع لقارئها من تلاوة المجلد الكبير . وقد رأينا كثيراً من مدرسينا ممن تمت لهم آلات الفضل وشغلتهم دروسهم عن التصدي للتأليف كان نصيبهم منه نصيب المراغي ، ولو وجدوا متسعاً من أوقاتهم وصرفوا فيه ساعة كل يوم لانفتحت أمامهم طرق في العلم يهديهم اليها الدؤوب وطول النظر .

على ان الشيخ لم تحل مناصبه الخطيرة دون عمل ما ينفع الاسلام والمسلمين وما كان يستهويه غير النهوض بالمصريين يتلطف ، وهو الدراكة النطاسي ، في وصف الدواء الناجع لاسقامهم وما كان يغفل من معاونة كل مسلم يهبط مصر من القاصية ليرشف من معين العلم في الأزهر مع انه لم يزر بلادهم ولم يختلط كثيراً بأهلها لما اقتضته حالة عمله وقيود مناصبه .

أهم ظاهرة بارزة في أخلاق الأستاذ المراغي تجرده من المطامع التي قد يتلوث بها بعض أهل صناعته فما أتى ما يشين سمعة العالم . وعلى طول تقلبه في درجات القضاء وآخرها رياسة المحكمة الشرعية العليا ما احصيت عليه زلة تنال من مروءته وشرفه وكانت أحكامه مثال العدل يتحدث المتحدثون بها لا يصانع في الحق ولا يداجي . وفي قضية الارث الكبير الذي كان يقدر بملايين من الجنيهات وما أبداه الشيخ من المتانة في احقاق الحق مثال من تقواه ، حتى لقد قذف بماء الفضة في عنقه يوم صدور الحكم وهو في طريقه الى المحكمة في القاهرة

(١) أخبرني شقيق صاحب الترجمة الأستاذ الشيخ أحمد مصطفى المراغي وقد قرأت عليه ما كتبت واستفدت منه أموراً في حياة الأستاذ الأكبر انه خلف مذكرات يومية يشرح فيها مواقفه مع رجال السياسة من المصريين والأجانب وان أسرته لا تريد نشرها قبل ان يمضي زمن على وفاة صاحبها لأن فيها مساساً ببعض المعاصرين .

ليتعذر عليه الحضور فأصر على الذهاب واصدر حكمه . ولو كان حب الدنيا مستحكماً فيه أكثر من حب الدين لجوز لنفسه تناول ما يغنيه من المال يدفعه المدعي راضياً . ولكن شيخنا كان يحسب حساب يوم الحساب .

ولما استقال من قضاء الخرطوم وعاد الى القاهرة أخذ يتبلغ بوظيفته مفتش مساجد في الأوقاف وصلى الخديو الجمعة في مسجد من مساجدها فلاحظ على المفتش ان الامام أعمى فأجاب ان الامام وهو العلامة الدجوي من جماعة كبار العلماء استوفى شروط الامامة والعمى لا يمنعه من القيام بما يطلب منه ، فغضب عزيز مصر ، ولما عرضت عليه حكومة السودان منصب قاضي القضاة اشترط ان يكون تعيينه بمرسوم خديو فقيل له ان مشاهرتك ستزيد بضعة أضعاف راتبك الحالي وأنت تشترط مثل هذا الشرط ، فكان له ما أراد . أما الخديو فرجع عن رأيه في المراغي وأدرك أنه قوال بالحق يهتم لدينه ولا يعبأ بالظواهر كثيراً . ولما ثارت مصر وانتقلت أخبار الثورة الى السودان كان قاضي قضاتها السيد المراغي في مقدمة المتظاهرين فلم يسع حكومة ذاك القطر الا أن تمنحه اجازة طويلة فأضاع منصبه ليخدم وطنيته . وجرى في مجلسه ذكر هلاك من لم يسلموا من الافرنج فأورد أسماء عظماء خدموا الانسانية منهم وقال انهم ناجون لأن الدعوة الى الاسلام لم تصلهم ونحن قصرنا في هدايتهم فلو كنا عرضنا عليهم الدين وما استجابوا له ربما ساغ لنا ان نقول انهم هالكون . وقال لي إنه حرض احدى الغنيات — لما خاف عليها الفتنة عند طلاق زوجها لها — على تعلم اللغة الفرنسية فشغل وقتها بما أسلاها في محنتها وكان من نصيحته ان تعلمت اللغة وتأدبت بأدبها من حيث لا تشعر . ولما مرَّ ملك انكلترا بسواكن وكان قاضي قضاة السودان استقبله مع الحاكم العام وصافحه كما يتصافح المتماثلون فقال بعض الانكليز كان يصح له ان ينحني للملك كما انحنى المستقبلون قال : ليس في ديننا سجود لغير الله . واجتمع يوماً الى السير لامبسون سفير بريطانيا العظمى في مصر فقال له هذا ان السمكة تفسد من رأسها مشيراً الى بعض المقامات العليا فقال

الشيخ ان السمكة تفسد من بطنها قال السفير : هذا غير صحيح وأنا صياد أعرف السمك معرفة جيدة قال: الغالب انك تحسن الصيد في نهر التيمس ، والصيد في النيل غير الصيد في التيمس . ولما قيل له وهو في مشيخة الأزهر انه كان الأولى به ان يبتعد عن السياسة ويبعد الأزهر عنها وان يشغل به أوقاته قال ان الاسلام دين سياسة ولا يسعه ان يتخلى عنها . وفي أيامه انقسم الأزهر قسمين بتأثيرات الحزبية فاضطر شيخه الى ان يقف الى جانب الفريق الذي اعتقده على الحق فسبب له ذلك اضطرابات نفسية ما حمدت مغبتها على صحته . ولو سئل عن سلوكه هذا ما عدم حجة يبرئ بها نفسه من الوناء المشهود في انهاض الأزهر على عهده الأخير . والداخل يعرف ما لا يعرفه من وقف وقفة المتفرج في الخارج .

لو انتفع الناس ببعض ما تفيض فيه قرائح المصلحين ما بقي في الناس جهول ولا ضال ، وواجب دعاة الاصلاح الا يتوانوا فيما تمحضوا له مهما قل المستفيدون منهم .

المراغي كان على أوفر نصيب من العلم والعمل فهو شخصية نادرة بين أهل جيله رحمه الله رحمة واسعة .

محمد كرد علي



ابن أبي عذيبة وتاريخه

(تاريخ دول الأعيان شرح قصيدة نظم الجمان)

١ — كلمة :

الآراء كثيرة، ويتوجه اليها النقد، ولكنها لا تستدعي النبذ دائماً، ولا يعول على كلّ قول، ولا يسلّم بكل نقد. واذا كان مع الخواطئ سهم صائب، وان كل أحد يؤخذ من قوله ويرد فلا ريب ان ثروتنا التاريخية تتعين آثارها المشهودة بالتمحيص والنقد، فترتفع قيمتها، أو تنحطّ، ولكنها لا تعدم فائدتها بوجه لما يجري عليها من غمز. والزمان كفيل بالتقدير.

وتاريخ ابن أبي عذيبة من تلك الثروة، اشتهر في حياة مؤلفه، وتناوله المؤرخون قديماً وحديثاً بالنقد، فدخله التحقيق والتنديد. وقد نقل الأستاذ الفاضل عبد الله مخلص قسماً من ذلك ولكن ليس من الصواب أن يترك من جراء ما توجه من الغمز، ويصحّ ان يكون صواباً أو غير صواب. واذا كان مخطئاً في أمر فلا نهمل مطالبه كلها.

جاء في (أنس الجليل بتاريخ القدس والخليل[1]) ما نصه :

«الشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الشافعي المشهور بابن زوجة أبي عذيبة، مولده بالقدس الشريف. قرأ القرآن، واشتغل بالعلم. وكان من الفقهاء بالمدرسة الصلاحية، واعتنى بعلم التاريخ، وكتب تاريخين أحدهما مطول (وهو هذا[2]) والآخر مختصر. توفي يوم الجمعة ١٥ ربيع الآخر سنة ٨٥٦ هـ (١٤٥٢ م) ودفن بباب الرحمة.» اهـ

---

(١) العليمي القاضي مجير الدين أبي اليمن عبد الرحمن المتوفى سنة ٩٢٧ هـ — ١٥٢١ م ونقل هذا النص من غلاف تاريخ ابن أبي عذيبة. وفي كشف الظنون أنه أتمه سنة ٩٠١ هـ.

(٢) هذه الزيادة من ناسخ كتاب ابن أبي عذيبة.

وزاد الأستاذ عبد الله مخلص أنه أورد في تاريخه المطوّل والآخر المختصر أشياء فاحشة من ثلب أعراض الناس، فأعدمه بعض المطلعين عليه ضناً بكرامة من تناولهم المؤلف بالطعن والتشنيع، وأن التاريخ المطول لم يظهر بعد وفاته كما ان المختصر لم يبق منه إلاّ بعض كراريس نقل ذلك من التاريخ المذكور.

وأقول ان تواريخ المؤلف لم يعدم منها شيء، وفي بحثي هذا أبين عنها، وأدوّن المعروف من مؤلفاته. وكنت كتبت مباحث في تاريخ بن أبي عذيبة عند الكلام على حوادث العراق المنقولة منه [1]. وهنا أقدم للقراء الأفاضل ما عثرت عليه مؤخراً مع تلخيص لما سبق نشره. وان إثارة بحثه مجدداً يرجع الفضل فيها للدكتور اسعد طلس، وللأستاذ عبد الله مخلص مما شجع على اعادة القول. فقد أتاحا الفرصة.

وكان قد كتب أفاضل في موضوع تاريخ ابن أبي عذيبة، فأوضحوا بعض الايضاح وأبدوا تحقيقات نافعة [2]، فالفكرة متوجهة الى كشف النواحي المجهولة، والقطع في بعض المطالب المشتبه فيها، وقصدنا متوجه الى التعريف بالمؤلف وأثره.

٢ — حياة المؤلف :

لا شك ان آثاره مرآة نفسه، وتعدّ صفحة كاشفة عن حياته، ولا نعجل بالحكم، فعمل المرء معروض للنقص والإكمال الا اننا نقول يحق لبيت المقدس أن تفخر بهذا المؤرخ، فانه يعدّ من أكابر مؤرخينا، وأفاضل ادبائنا وعلمائنا كتب في التاريخ السياسي، والعلمي والأدبي، فكان جديراً بالتقدير والاطراء. ولا يخلو امرؤ من هفوة، أو نقص. والحك يجلو، والتمحيص يميط عن وجه الحقيقة. والناس تتباين ميولهم وتختلف أنظارهم ولكلّ رأيه. ومن ثم يكون التعديل والتجريح، ولكن على كل حال نريد ان نصغي وان نكون أوسع صدراً، فنلتمس الصواب.

رأينا تواريخ عديدة كتبت قبله، فأحدثت تيارات متعاكسة، وأوجد

(١) تاريخ العراق بين احتلالين ج ١ ص ٢٥٠ و ٢٥١ و ٢٧١ و ج ٢ ص ٢٥٧ و ٢٧٥ وملحقه ص ٢٣ و ج ٣ ص ١٤٣ .

(٢) مجلة الهلال ج ٢٨ ص ٦١٧ وص ٧١٠ و ٩٢٦ و ج ٣٠ ص ٨٦٢ .

بعضها رغبة عامة ، وأخرى نفرة لما احتوت من دعاية أو تزلف . فظهر عليها الهوى والميل المنحرف ... وأخرى اصابتها السهام ولم تسكن الثائرة إلا وظهرت عظمتها . وهكذا كان قد لحق بعض المؤلفين ما لحق .

والمترجم الشيخ العلامة الأثري المؤرخ أبو عبد الله شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر المقدسي . ولد سنة ٨١٩ هـ ١٤١٦ م ببيت المقدس ، وتوفي ليلة الجمعة ١٤ شهر ربيع الآخر سنة ٨٥٦ هـ — ١٤٥٢ م ، وعرف بابن أبي عذيبة بأستاذه محمد بن أحمد بن حاجي . فكان أحد شيوخه ، ذكر ابن ابي عذيبة أنه به عرف ، وأنه قرأ عليه العربية والتفسير والقراآت . وكان يعرف بابن عذيبة [١] ، كما أخذ عن المؤرخ المعروف (ابن قاضي شهبة) ، فاستمد منه ، وانتفع بتاريخه وتراجمه ، وأذن له في الكتابة في التاريخ والجرح والتعديل والتصنيف وأشار عليه به ، وقال له أنت حافظ هذه البلاد بل وغيرها ، وقد أجزت ذلك لك .

ومن شيوخه الشيخ عماد الدين القدسي . ذكره في خلال مباحث كتابه (دول الأعيان) قال : وكان من التاريخ بمكان [٢] .

ومن شيوخه في مصر (المحب ابن نصر الله البغدادي) وغيره .

ونرى السخاوي في الضوء اللامع — بعد أن أورد ما ذكر — صار يتحامل عليه قال: « ولع بالتاريخ ، وجمع من ذلك جملة ، لكنه تتبع مساوي الناس فتفرق لذلك بعده ، ولم يظفر مما كتبه بطائل مع ما فيه من فوائد وان كان ليس بالمتقن ، وجمع لنفسه (معجماً) وقفت على جلد بخطه وفيه أوهام كثيرة جداً ومجازفات تفوق الحد بل من أجل ما سلكه كان القدح فيه من كثيرين [٣] » اهـ .

فهنا يبين أن له ولعاً بالتاريخ ، وانه جمع جملة ، وبين انه ليس بالمتقن ، ولم يعين السبب ، ولا من ذكر مساويهم ... في حين ان السخاوي لم يسلم من مثل هذه الأقوال ، ولا كان بنجوة من ذلك بل كان مؤرخون قد طعن بهم جماعة مثل ابن خلدون وآخرين ، ونعلم ان السخاوي نقل الكثير من ابن أبي عذيبة

(١) الضوء اللامع ج٦ص ٣٠١ وهناك ترجمته (٢) تاريخ (دول الأعيان) ج ١ص ٣٣٨
(٣) الضوء اللامع ج ٢ ص ١٦٠ .

في مواطن عديدة من تاريخه ... ولعله أدى الى ما كتب العليمي ، فتأثر به .

والملحوظ ان التاريخ الكبير غير هذا ، فقد جاء في الجلد الأول صفحة ٣٥١ من دول الأعيان عند الكلام على ترجمة النخعي أنه بسط ترجمته في التاريخ الكبير . ولعل ناقل النص عن تاريخ الأنس الجليل ظن ان هذا التاريخ هو التاريخ الكبير . ولا شك انه التاريخ الصغير للصراحة الموجودة في تاريخ دول الأعيان نفسه .

٣ - تاريخ دول الأعيان :

وهذا (تاريخ دول الأعيان شرح قصيدة نظم الجمان في ذكر من سلف من اهل الزمان) في خمسة مجلدات .

أوله : « الحمد لله القديم قبل حدوث الزمان والمكان ، الدائم الأبدي وكلُّ من عليها فان » اهـ .

جاء في مقدمته : « لما وقفت على القصيدة المسماة (بنظم الجمان في ذكر من سلف من الزمان) فوجدتها بديعة في بابها ، قريبة من طلابها ، مذكرة بالقرون الماضية ، والأمم الخالية ... أحببت ان اضع عليها شرحاً لطيفاً يوضح ما فيها من الفوائد الغريبة ، والأخبار العجيبة ، والتواريخ الموقظة من رقدة الغفلات ، المعلمة بما ليس له فوات ، المعرفة بمن كانت الدنيا في يديه ، فلم تفده شيئاً ولا أبقت عليه ... وهي لمن تأملها بحسن النظر ، مقام كل تاريخ وخبر .

قال الناظم :

نصيحة من عالم خبير ... لكل شيخ عارف كبير
وكلّ كهل فاضل نحرير ... وكل حلف للصبي غرير
وامرأة عاقلة لبيبه ... صبية أو كهلة أريبه
وللغني والفقير البائس ... وللنديم والرئيس الجالس
ومن سطا وصال في الممالك ... ولم يظن أنه بهالك
وخائف من كل أمر وجل ... عن الأنام كلهم بمعزل
وجامع الأثاث والأموال ... وباذلي ما حاز بالسؤال

وفاجر منهمك في الفسق وعارف مجتهد في الحق
وزاهد قد ترك اللذات وعابد مواظب الصلاة
وجاهل لم يدر ما يقول وعالم في علمه تكميل
ليسمعوا وصيتي ويعلموا فان في الوجود من لا يفهم » اه‍ .

وهكذا يمضي بالنصيحة فيذكر الطوفان إلى آخر ذكر الأنبياء ... فيوضح عن كل نبي تاريخه ، وفي خلال ذلك يتعرض للأقوام وبعض الأمم القديمة ، والشعوب العربية ، ثم يذكر الرسول ﷺ ، والخلفاء الراشدين ، ودولة بني أمية ، والدولة العباسية الى آخر أيام تيمور ...

وفي مباحثه يتناول الحالات العلمية والأدبية ، فيذكر لكل خليفة من توفي في أيامه من العلماء والأدباء بعد ان يذكر وقائعه السياسية وغيرها ... فهو تاريخ سياسي علمي أدبي ومن ثم تتجلى أهميته . ومما يؤسف له ان الكتاب قد مسخه ناقله ، فكثر فيه اللحن والغلط ، فلم يبال بضبطه إلاّ أن الغالب من ذلك لا يخفى ، ولا يحتمل ان يكون من عمل المؤلف . لأنه أديب فاضل ، وعالم مدرّس ، وآثاره تنبئ عن قدرة .

ويعوّل في تاريخه على مؤلفين عديدين ، ينقل نصوصهم ويصرح بأسمائهم ، فلم يبد من تلقاء نفسه أمراً الا ما تقتضيه مطالعاته ، وما تسوق اليه آراؤه ، أو يستدعيه البحث ، شأن المؤرخ الفاضل الذي يريد أن يؤيد قوله بنص منقول . وقد أشبع هذا التاريخ من المباحث العلمية والأدبية ما هو نافع جداً ، ولاذ أيضاً .

ومن نسخه الموجودة النسخة التي وصفها الأستاذ الشيخ كاظم الدجيلي الأديب المعروف وهي النسخة التي بين أيدينا . ولا يخلو الكتاب من غلط ناسخ إلا انه سهل التصحيح . ويعدّ من أجلّ الآثار فهو صالح للطبع والنشر على ان يخدم بتعاليق توضح بعض مطالبه .

ومن هذا الكتاب نسخة في مجلد واحد خطها واضح ، وليس فيها ذلك الغلط ، بل هي أقرب للصحة ، وأصلها في خزانة كتب المرحوم احمد باشا تيمور ، وجاءت باسم (انسان العيون في مشاهير سادس القرون) وقد نبهت في تاريخ العراق

عليها[1]. رأيت منها نسخة بالتصوير الشمسي لدى الأب أنستاس ماري الكرملي ، فصارت لخزانة المعارف العامة . وذكرت بهذا الاسم (انسان العيون) في مقدمة الجامع المختصر لابن الساعي ، فكانت هذه النسخة من مراجع تصحيح الكتاب ، وهي لابن أبي عذيبة . ونسخة أخرى من هذا التاريخ ليست قديمة كثيراً ، انتهى بها الى أيام الوليد بن عبد الملك ، موجودة في خزانة قرا چلبي باستانبول برقم ٢٣٠٦ وتصلح للمقابلة .

٤ — القصيدة المشروحة (نظم الجمان) :

وهذه القصيدة لم تكن لابن أبي عذيبة قطعاً ، وان الأستاذ عيسى المعلوف قد رجح ان تكون للشيخ عبد الرحمن بن علي بن احمد البسطامي الحنفي المتوفى سنة ٨٤٣ هـ ولكن تبين أنها لمؤلف كتاب (أخبار الأعيان شرح نظم الجمان في ذكر من سلف من ملوك الزمان) فقد جاء البحث عن هذا الكتاب في فهرس دار الكتب المصرية بما نصه :

« وهو شرح على القصيدة المساة (نظم الجمان في ذكر من سلف من ملوك الزمان) كلاهما للشيخ عبد الله الشافعي الكاتب » اهـ .

وأوله : « الحمد لله القديم في الأزل قبل حدوث الزمان والمكان الخ » اهـ .

ذكر في مقدمته : « وبعد فاني كنت نظمت قصيدة وسميتها نظم الجمان بذكر من سلف من الزمان . وضمنتها كتابي المسمى بـ (منهج العارف وبهجة الواصف ... ثم عنّ لي أن أضع لهذه القصيدة شرحاً تظهر به معانيها ، وتتبين أحوال من ذكر فيها ، فوضعت هذا الكتاب يتضمن نبذاً من أخبار ...) اهـ .

ومن هذا النص نقطع بأن المؤلف الشارح هو الناظم ، ومن كتابه هذا ثلاث نسخ في دار الكتب المصرية كل نسخة في مجلد واحد ، الا ان النسخة الثالثة لم يتيسر لنا الاطلاع عليها لأنها كانت في جبل المقطم . ومن ثم علمنا أنها غير مارجحه الأستاذ عيسى المعلوف . والقصيدة في تاريخ ابن أبي عذيبة عين

(١) تاريخ العراق بين احتلالين ج ٣ ص ١٤٣ .

المذكورة في هذا الكتاب . ولعل العثور على كتاب (منهج العارف) ، أو (نظم الجمان) يسهّل لنا المعرفة عن المؤلف فيزيل الإبهام . وورد في ذيل كشف الظنون لاسماعيل باشا البغدادي ذكر هذه النسخة أيضاً ولكنه لم يعين مؤلفها .

هذا ونظم الوقائع قديم في التاريخ ، وعندي قصيدة لعلي بن الجهم في التاريخ لأيامه . ولعلها أقدم القصائد . ثم جاء آخرون منهم صاحب هذه القصيدة ، ومنهم السيوطي وعديدون . لا محلّ لذكرهم الآن .

٥ — التاريخ الكبير :

وهذا رأيته في خزانة كتب قراجلبي باستانبول برقم ٢٥٩ وهو الأول من التاريخ الكبير ، بخط مؤلفه احمد بن محمد القدسي الشافعي الشهير بابي أبي عذيبة ، قال في مقدمته :

« هذا تاريخ مختصر وضعته على السنين ... يتعين على الذكي حفظه وابتدأ بالسنة الأولى من الهجرة ، وانتهى بحوادث سنة ١٣٢ هـ » اهـ .

قال في آخره : « أنهى تمامه جامعه الفقير الى الله تعالى أحمد بن محمد بن عمر القدسي الشافعي الشهير بابن أبي عذيبة ... » اهـ وهنا ابن أبي عذيبة واضح جداً لا لبس فيه ، وفي أول الكتاب وعنوانه جاء الاسم بوجه الصحة . وهو مجلد ضخم . والكتاب نفيس جداً ، يراعي الحوادث منظمة على السنين . وقد أزال بصراحته كل ابهام ، وفي الضوء اللامع قد ذكر بهذا اللفظ أعني (ابن أبي عذيبة) .

ولعل الأيام تكشف عن باقي أجزائه . وهذا لا ينفي كونه التاريخ الكبير وإن جاء أنه تاريخ مختصر على السنين . لأن التاريخ العام مختصر دائماً ، فلا يسعه التفصيل الزائد ...

٦ — قصص الأنبياء :

للمترجم ابن أبي عذيبة . وقد ذكره الأستاذ عبد الله مخلص ، والدكتور أسعد طلس في مجلة المجمع الغرّاء لهذه السنة وللسنة التي قبلها كما جاء ذكره في الهلال بمناسبة ما كتبه الشيخ كاظم الدجيلي . وان المؤلف تعرض لذكره

عند الكلام على (شداد) قال : « وقد ذكرنا ذلك بأبسط من هذا في كتابنا «قصص الأنبياء» وذكرنا ما دخل على الامام الثعلبي من الفساد في هذا الكلام ...» اه

ولما ذكر قصة يوسف عليه السلام قال :

« القصة محفوظة قد أفرد الناس فيها مصنفات ، وقد بسط الكلام عليها في (قصص الأنبياء) من تأليفي ... » اه .

٧ — سيرة الرسول :

وهذه تكرر ذكرها في تاريخه (دول الأعيان) ، وصرح بأنها من تأليفه . قال عند الكلام على مولده صلى الله عليه وسلم :

« وقد جمعت له صلى الله عليه وسلم سيرة في جزء مفيد لم أترك فيها إلا ما شذ ، نافعة ان شاء الله تعالى . ذكرت فيها مبدأ أمره وسيرته وغزواته وبعوثه وسراياه ، ومتوفاه ... » اه

وليس لدينا ما نضيفه لعدم الحصول عليها ، وامكان وصفها .

٨ — الملل والنحل :

وفي تاريخ دول الأعيان تكلم في (كيومرث) ، وبين انه ادعى النبوة وان الفرس الثنوية اثبتوا أصلين يزدان واهرمن . ويزدان عندهم هو الله تعالى ، وأهرمن هو ابليس . وقالوا يزدان أولي قديم ، وأهرمن محدث مخلوق ، فكان يزدان وهو النور فكر في نفسه انه لو كان له منازع ، فحدث من هذه الفكرة الظلمة ، وخلق من الظلمة اهرمن ، وكان مطبوعاً على الشر ، فخرج على النور وخالفه طبيعة وقولاً ، وجرت بينهما محاربة ... (الى ان قال) :

قال أبو عبد الله (أي المؤلف) :

« هكذا ذكرت مذهبهم في الملل والنحل من تأليفي على ما نقلت من مذاهب الناس ... » اه .

٩ — معجم بن أبي عذيبة :

قال السخاوي وجمع لنفسه معجماً وقفت على جلد بخطه ، وفيه أوهام كثيرة جداً ومجازفات تفوق الحد ، بل من أجل ما سلكه كان القدح فيه من كثيرين .

ولعلّ هذا هو ما جاء في مخطوطات الظاهرية قسم التاريخ ، فان زمنه يوافق ما ذكر وهذا نصّ ما هنالك :

«مؤلف هذا الكتاب من علماء القرن التاسع ، فقد ذكر في كتابه اسم الأهدل أبي عبد الله حسين بن عبد الرحمن وقال «عصريّنا» . والأهدل توفي سنة ٨٥٥ هـ . والكتاب مرتب على الحروف ...[1]» اهـ

ومن المحتمل ان يكون قطعة من هذا الكتاب .

١٠ — المجتلى بأخبار أبي العلا :

للمترجم في سيرة أبي العلاء . وهذا الكتاب لم يتعرض له أحد عند الكلام على أبي العلاء في مهرجانه ولا في ما كتب فيه .

قال المؤلف في كتابه دول الأعيان في ترجمة أبي العلاء :

«أبو العلاء أحمد بن سليمان المعري الأعمى ، وعمره (٨٦) سنة ، واختلف في عماه . والصحيح أنه في صغره من الجدري ، وهو ابن ثلاث سنين فانه قال ما أعرف من الألوان الا الأحمر ، فاني لما جدّرت ألبسوني أحمر . وكان غشي يمنى حدقته بياض ، وذهبت يسراه . ورحل الى بغداد ، وأقام بها سنة وسبعة أشهر ، ولزم منزله عند منصرفه من بغداد وسمى نفسه رهين المحبسين للزومه البيت ولذهاب بصره . وكان عالماً ، شاعراً ، لغوياً ، آية من الآيات ، وشعره في غاية الرقة والانسجام اليه النهاية ، وطبق ذكره الأرض ، وذكر عنه أقوال وأشعار يدل ظاهرها على فساد عقيدته وسوء طويته . قال ابن دقيق العيد : وكان الرجل في حيرة من دينه . قال الذهبي : والذي يظهر من حال الرجل انه مات متحيراً ، لم يجزم بدين من الأديان ، نسأل الله السلامة . وكان يزعم ان لأقواله باطناً وانه مسلم ، ويقال انه كان يرجع لمذهب الهنود البراهمة لتركه أكل اللحم والبيض واللبن ٤٥ سنة . وما كان يرى إيلام الحيوانات . وله مصنفات كثيرة ، وأشعار جيدة مشهورة لو لا ما شابها . ومن شعره :

---

(١) المجلد السادس من فهرس مخطوطات الظاهرية ص١٦٨ رأيته عند الدكتور أسعد طلس قبل أن ينشر من تأليف الأستاذ الفاضل السيد يوسف العش .

أبا العلا ابن سليانا ان العمى أولاك احسانا

لوأبصرت عيناك هذا الورى لم ير انسانك انسانا

وأوصى أن يكتب على قبره :

هـذا جناه أبي عليّ وما جنيت على أحد

لأنه ما تزوّج قط . ولما مات رثاه جماعة من تلامذته ، فقال بعضهم قصيدة أولها :

سمر الرماح وبيض الهند تشتور في أخذ ثارك والأقدار تعتذر

وقال الآخر من قصيدة :

إن كنت لم ترق الدماء زهادة فلقد أرقت اليوم من جفني دما » اهـ

ثم قال المؤلف :

« وقد ذكرته في مصنف مفرد ، وذكرت أشعاره وما فيها ، وكثيراً من أقواله ، وسميته (المجتلى بأخبار أبي العلا) [1] . » اهـ .

وهذا من تأليفه بلا ريب ، ولم نعثر على نسخة منه .

١١ — مراجع تاريخ دول الأعيان :

تراجم هذا الكتاب كثيرة ، ومباحثه موسعة الا أنني رأيت ان أذكر بعض المراجع التاريخية التي نقل منها ، وعوّل عليها . وهذه كثيرة جداً . منها :

القضاعي ، وابن الجوزي ، وابن الأثير ، والثعلبي ، وابن وصيف شاه ، والهروي ، وعمارة اليمني ، والكسائي ، والمسعودي ، والشرشي ، والقرطبي ، وابن عساكر ، وابن اسحق ، وابن خلكان ، وابن الشحنة ، وابن عربشاه ، وابن خطيب داريا ، وابن عبد البر ، والشيخ عماد الدين القدمي ، والأصمعي ، وابن هشام ، والزمخشري ، والذهبي ، والطبري ، وابن ظفر ، وسبط ابن الجوزي ، وأبو معشر الفلكي ، وأبو الفرج الاصبهاني .

هذا بعض ما رأيناه في المجلد الأول بنظرة سريعة لا على سبيل الاستقصاء ،

---

(١) تاريخ دول الأعيان ج ٤ ص ١٢ .

ولعل ما في الأجزاء الأخرى مما لم يتكرر ذكره أكثر من هذا العدد بكثير . وبين هؤلاء مؤرخون ، وقصاص ، وأدباء لا تهمهم الا الصنعة الأدبية . ومن مطالعة تاريخه يظهر ان الرجل منهمك بكتب الأدب وقصصها ، لجرفه ذلك وأدى به الى نقل حكايات مجالس لا يقصد منها إلا التلذذ ، أو الدعاية ، وان ذكر الأعلام التاريخية لا يخرجها عن كونها قصصاً لا تدخل في النقل التاريخي الصحيح . ولعل مؤاخذته من جراء ذلك فقد وقع في هذا كثير من المعاصرين والقدماء . وكان المرحوم الأستاذ الحاج علي علاء الدين الآلوسي ينقل عن والده الأستاذ السيد نعمان خير الدين الآلوسي تحامله الشديد على مثل هؤلاء ويشنع عليهم ، ويذكر أنهم منحرفون بأهواء اتخذوا الأدب وسيلة لهذا التنديد والتثريب . وكتاباته تدل على هذا أيضاً . والمهمّ هنا تعيين وجهة الكاتب أو المؤرخ ، ومعرفة قيمة النقل لما فيه شائبة أو كان خالياً منها . . .

وهنا لا أمضي دون أن أقول ان المؤلف نقل بعض النصوص التاريخية قائلاً جاء في (بعض التواريخ) . وعندي تاريخ مخطوط في (الدولة العباسية) الى أيام المستنجد بالله الخليفة العباسي لم يعرف مؤلفه فكان هذا التاريخ من جملة مراجع نقله ، فقد كان من ذلك الحين مجهول المؤلف ، ولم أتمكن من معرفته . وربما عدت الى وصفه لعل في القراء الأفاضل من يعرّف بمؤلفه .

ومن ثم نعلم ان هذا التاريخ قد صرفت له جهود كبيرة ، وروجعت مؤلفات عديدة في التاريخ وغيره لإبرازه . والآن مع وجود خزائن الكتب لا يكاد يجد المرء مجموعة مثل ما وصلت اليه يد المؤلف .

١٢ — كلمتي الأخيرة :

ان المؤلف قد عرف تاريخه (دول الأعيان) والمجلد الأول من (تاريخه الكبير) ، وتعينت بعض مؤلفاته ، ولعل الأيام تكشف عن باقيها .

أكتفي بهذا . والله ولي الأمر .

(بغداد) عباس العزاوي

أقرب الموارد

- ٣ -

ح ن ف س — قال الحَنفساء : القصير الضخم البطن هكذا بالنون وصوابه الحفيسأ مهموزاً غير ممدود ·

ح ق ر — قال : احقره واحتقره — استصغره · فعدّاه بالهمز والمعروف في الفصيح حقّره بالتضعيف وأما الهمز فلم أعثر عليه لأحد من الأئمة ·

ح ق ل — قال الحَقْل — ماء الرُطب في الأمعاء وصوابه ماء الرُطب بسكون الطاء · قال الأزهري أراد بالرُطب البقول الرطبة من العشب الأخضر قبل هيج النبت ·

ح ل ب — قال · واحلب لأهله احلاباً واحلابة : حلب لهم وهم في المرعى ثم بعث به اليهم وصوابه وهو في المرعى · وعبارة اللسان «والاحلابة ان تحلب لأهلك وأنت في المرعى لبناً ثم تبعث به اليهم وقد احلبهم وهكذا عدّاها صاحب اللسان بنفسها ثم ذكرها مرة أخرى كذلك ولعل صاحب الكتاب جاء باللام للتقوية ولكنها بين الفعل ومعموله ليست مستحبة لأن الفعل قوي بنفسه على العمل والأمر في ذلك سهل

ح ل ب — أورد الشاهد هكذا «نحن غداة الحيّ لما دعوتنا»

وصوابه «ونحن غداة العين لما دعوتنا» كما في اللسان والتاج وأورد الشاهد الآخر هكذا «ردّ في الضرع ما جرى في الحلاب»

وصوابه «ما قرا في الحلاب» كما في الكتب المعتمدة

ح ل ت — قال والحليت : البرَد هكذا حرّك البرْد (ضد الحر) فجعله البرَد (حب الغمام) وفي القاموس والحليت البرْد وضبطه الزبيدي بفتح فسكون نصاً

ح ل ج — قال : الحُلُج الكثير الأكل · وقد سقطت منه واو الجمع والصواب الكثيرو الأكل لأن الحلج جمع

ح ل ز – أورد الشاهد هكذا
« يرفعن للحاوي اذا تحلَّزا » هكذا بالواو وصوابه للحادي بالدال المهملة .
ح ل س أورد الشاهد هكذا « ليس بفضل حَلِس حِلَسِّمْ »
ونصه وفي اللسان « ليس بقصْرٍ » هكذا أنشده ابو عمرو وهو لمالك بن مرداس .
والقِصل بالكسر الذي لا يتمالك حمقًا .
ح ل ف – جعل محلوفاء من مصادر حلف وانما الذي ورد منها قول ابن برزج
« لا ومحلوفائه لا أفعل » . قالوا يريد محلوفه فمدها ولو كانت مصدراً لما احتاجت
لهذا التعليل .
ح ل ق م – قال وفي القرآن : « فلولا اذا بلغت الروح الحلقوم » وصوابه
« فلولا اذا بلغت الحلقوم »
ح ل ق م – وقال الحلقامة : الرُطبة : فتح الحاء والصواب كسرها وفي
القاموس رُطبة حلقامة ...
ح ل ي – قال : قال القرآن « اتخذ قوم موسى » والآية واتخذ
ح م ء – قال وفي القرآن « لقد خلقنا الانسان من صلصال ومن حمأ مسنون »
أما الآية فنصها هكذا (سورة الحجر ٢٦) ولقد خلقنا الانسان من صلصال
من حمأ مسنون . ومن هنا لبيان الجنس لأن الصلصال من جنس الحمأ المسنون
وليس غيره ليعطف عليه
ح م ء - قال والحمِيء : الرجل العيون هكذا جاء بها على وزن فعيل وفي القاموس
« ورجل حَمِيء العين كخجل » عيون ولا بد من ذكر المضاف اليه في المفسر
ح م ء – كتب الهمزة في الحمأ الساكنة الميم على صورة الألف مع أنها
اذا وقعت آخر الكلمة بعد ساكن لم يكن لها صورة كالعبء والرزء والدفء
ثم انه قال والحمْ بحذف آخره واسكن الميم شكلاً ولا معنى لاسكان ميم الحم
وانما هو بعد نقصه محلٌ لحركة الاعراب واحسب ان هذين غلط مطبعي
ح م ج – قال : وحمّج اليه جَدّد النظر هكذا بالجيم وصوابه حدّد النظر

ح م ر — قال وحمارة القدم: ما اشرف فوق أصابعها وقيل ما أشرف بين مفصليها وأصابعها من فوق ، أورد الحمارة بتخفيف الراء اكثر من مرة والصواب تشديدها كما نص عليه في النهاية وكما أوردها في اللسان وقوله ما أشرف فوق أصابعها لم يذكره اصحاب الكتب المعتمدة وانما ذكروا ما أورده صاحب الكتاب مضعفًا بكلمة قيل

ح م ر — أورد الشاهد هكذا

الخمر والخمر العتيقة والطلى   بالزعفران فلن ازال مردّعا

أو الذي أورده صاحب اللسان

الخمر واللحم السمين واطّلي   بالزعفران فلن أزال مروّعا

وفي رواية التاج « فلن أزال مبقعا » واما « والطلى ومردعا بالدال فلم يروهما واحدٌ منهما »

ح م ش — قال : وحمشت الساق ض ... و — الرجل حمشًا وحمشه : غضب و — الشر أشتد وظاهر ذلك انها من باب ضرب والصواب انها من باب تعب تعبًا .

ح م م — قال وحمّم المرأة : متعها بالطلاق والصواب متعها بشيء بعد الطلاق كحمّها . والطلاق لا يكون متعة للمرأة

ح ن ث ر — قال الحنثر والحنثري : الرجل الأحمق هكذا فتح أولهما والصواب الكسر نصًا عن التاج

ح ن د — قال « الحنود الحسي وهو البئر والركيّة ج حُنُد قال بعض أئمة اللغة وأحسبها الحند من قولهم عين حُند لا ينقطع ماؤها » هكذا جاء بها بالنون ولكن ما حسبه بعض أئمة اللغة هو الحتد بالتاء قال في اللسان :

« روى ابو العباس عن ابن الاعرابي قال الحُنُد الاحساء واحدها حنود . قال : وهو حرف غريب (ثم) قال وأحسبها الحتد (بالتاء) من قولهم عين حُتد لا ينقطع ماؤها .

ح ن ر — قال : حَنَر الحنيرة ، هكذا جاء بها ثلاثية والمعروف حنَّر بالتشديد وأرجح انها غلط مطبعي لأنه لم يذكر بابها من الثلاثي كما هي عادته

ح ن ص — قال : حنص الرجل • ض • حنصاً : مات ٤ جعلها من باب ضرب وظاهر القاموس انها من باب نصر ثم انه فتح حاء الحنصأوة والصواب كسرها

ح ن ف — قال : تحنف عمِل عمَل الحنفية يقال شافعي تحنف ونص الائمة تحنف عمل عمل الحنيفية وهي ملة ابراهيم (عليه السلام) وجعل النسبة الى مذهب ابي حنيفة « الحنيفي » (بياء بعد النون) والصواب ان النسبة اليه حنَفي كجهني وثقفي في النسبة الى جهينة وثقيف

ح ي د — قال : حيّد السيرَ : قدّه وصوابه جعل فيه حيوداً والحيود تقال لما يتعقد في الحبل من شدة الفتل ونص عبارتهم يقال قدّ السير فخرّده وحيّده أي جعل فيه حيوداً

ح و ر — قال : كشؤم ناقة ثمود • وصوابه كشؤم حوار ناقة ثمود

〃 وقال الحوَار بالفتح والكسر : مراجعة الكلام • جعل الفتح أصلاً والكسر لغة مع ان الكسر هو الأصل لانه مصدر حاوره محاورة وحواراً

ح و ص — قال : اني اجد في بطني حوصاً وبوصاً • هكذا أوردها بالباء وصوابه ونوصاً بالنون والنوص الحركة

خ ب ء — قال الخبْأة : البنت لازومها البيت (بسكون الباء) وفي اللسان والعرب تقول خبَأة خير من يقعة أي خبأة بوزن همزة أي بضم ففتح

خ ب ب — قال الخب : الخبل و — حبل الرمل اللاطئ بالأرض هكذا فسره بالخبل بالخاء المفتوحة بعدها باء ساكنة والخبل في اللغة في اخص معانيه ضرب من الجنون • ولم اجد في معاني الخب ما يشبه ذلك ولعله أراد الحبْل بالحاء المهملة بدون اضافة الى شيء ثم ثنى في معانيه بحبل الرمل وليس الحبل على اطلاقه من معاني الخب بل هو حبل الرمل اللاطئ بالارض فليتأمل

خ ب ث — قال في نص الحديث فلا يقربن مجلسنا • ونص الحديث مسجدنا

خ ب ر — قال : خبُرَ الشيء وخبَرَه و — به • ر • و — له • ل • خِبْراً وخُبْراً وخِبْرَة وخُبْرَة ومَخْبُرَة : علمه (الخ) أما خَبُر خُبْراً فهو لازم لا يتعدى

بنفسه بمعنى صار خبيراً وقد سمع قولهم لا خبُرن خُبْرك كما مثل له هو حيث عمل في المفعول المطلق فتوهم انه متعد الى المفعول به كخبَّر من باب نصر فقال وخبُرَ الشيء وخَبَره

خ ب ر — وقال : اعطاه خِبْرته اي نصيبه . هكذا بكسر الخاء والصواب ضمها وسياقه يدل على ذلك فهو إذاً غلط مطبعي .

خ ب س — قال الخِبس : آخر اظاء الابل . تبع في هذا القول صاحب التكملة والذي عليه جمهور الأئمة انه احد اظاء الابل لغة في الخمس

خ ب ل — جعل خَبَله الحب من باب نصر وصوابه من باب ضرب كما في المصباح والمختار

خ ت ر ب — قال ختربه : قطعه وغطاه (بغين معجمة بعدها طاء مهملة) وصوابه وعضّاه (بعين مهملة بعدها ضاد معجمة) أي فصَّله عضواً عضواً

خ ج ل — قال : وفي الحديث انه قال للنساء اذا شبعتن خجلتن أي فعلتن ما يوجب الخجل والحياء اما نص الحديث فهو « اذا جعتن دقعتن واذا شبعتن خجلتن اي اشرتن وبطرتن » . وقد عدل عن تفسير الأئمة للحديث من الأشر والبطر الى ما يوجب الخجل والحياء والفرق بين العبارتين واضح من حيث الكياسة

خ ج ي — قال الأَخجى : الافجع . هكذا قدم الجيم وآخر الخاء والصواب العكس وأحسب انه غلط مطبعي

خ د ب — جعل خدب خدباً من باب نصر وهو من باب ضرب كما في اللسان

خ د ج — قال وأخدج امره : أحكمه والصواب لم يحكمه . قال في مستدرك التاج يقال أخدج فلان امره اذا لم يحكمه وانضج أمره احكمه فالساقط من عبارة صاحب الكتاب خمس كلمات فانقلب المعنى الى عكسه

خ د ش — قال والمُخْدَش : كاهل البعير ، وقد ذكر الأئمة في فعله خَدَشه يخدِشه خدشاً وخدَّشه للتكثير ولم يذكروا اخدشه واما في الكاهل فقالوا مخدَش كمنبر وهي من صيغ المبالغة ومخدَّش ومخدِش كمعظَّم ومحدِث

خ ذ ل — جاء بالشاهد « وكأنها عياء ام جويذر » وصوابه عيناء واحدة العين وهذا غلط مطبعي

خ ر ب — قال خرّب الجدار : ضد هدّمه مع ان الخراب يصدق على الهدم وفسر اهل اللغة التخرب بالتهدم فكيف يكون ضداً له

خ ر ب — وقال : تخرّب القادح الشجرة · هكذا بالتاء المثناة وتشديد الراء والصواب نخرب القادح الشجرة بالنون

خ ر ب — وقال الخربة : موضع الخراب ج خِرَب جاء بها وزان عنب والصواب خَرِب بفتح فكسر وزان حَذِر

خ ر ب ق — قال المخرنبق : اللاحق بالأرض هكذا بالحاء المهملة وصوابه اللاصق بالصاد المهملة

خ ر ج — قال خرّجه : جعله يخرج · وهذا غريب منكر لم اره فيما رأيت من كتب الأئمة واحسب انها بعيدة عن الاستعمال وان صحت في القياس لشيوع المضاعف في معنى جعله ضروباً والواناً

خ ر ج — وقال المُخرج ... واسم مكان يقال ادخلني مُدْخَل صدق · وهذا من عدم الكياسة لأنه ذكر الآية القرآنية ودلّ عليها بكلمة يقال

خ ر ز — قال : ما ينظم في السلك من الجذع والودع هكذا بالذال المعجمة والصواب بالزاي

خ ر م — ضبط الخرومانة بسكون الراء وفتح الواو والصواب العكس

خ ز ب — جاء بالخزيبة لمعدن الذهب وهي معرفةٌ باللام مع انها علم للمعدن كما صرحوا به وحكمها حكم أسامة للأسد او جهينة للقبيلة المعروفة

خ ز ر — قال خزّر الشيء : ضيقه · مع ان الخزَر خاص بتضييق العين

خ ز ق — قال وعليه الحديث : « ما خزق المعراض فَكُلْ » والذي في النهاية لابن الأثير « وفي حديث عدي قلت يا رسول الله انا نرمي بالمعراض فقال : كل ما خزق وما اصاب بعرضه فلا تأكل » فليس الحديث كما رواه وشرط النقل الأمانة

خ ز م — قال: يقال أعطوا القرآن خزائمه ، وهذا حديث ونصه «ومرهم ان يعطوا القرآن بخزائمهم» قال ابن الأثير يريد به الانقياد لحكم القرآن والقاء الازمّة وصاحب الكتاب حرّف الحديث واخلّ بالمراد

خ ز ي — قال: وفي حديث الشعبي «وقعنا في خزية لم نكن فيها الأبَرَرَة أتقياء» وهكذا نقض النفي بالا مع ان الحديث «لم نكن فيها بررة أتقياء ولا فجرة أقوياء»

خ ز ي — قال كلام مَخْزِيٌّ: يُستحسن هكذا على صيغة المفعول من خزي صوابه مُخزٍ على صيغة الفاعل من أخزى

خ ش ب — قال واختشب السيف: اتخذه خشْباً . هكذا حرّك الشين فأوهم انه اتخذه من مادة الخشب والصواب اتخذه خشْباً بسكون الشين أي مخشوباً قبل ان يحكم صقله

خ ش ب — قال: هم خَشَب بالليل لا يتهجدون . هذا المقتطع من الحديث في ذكر المنافقين «خُشُب بالليل صُخُب بالنهار» قال في اللسان بضم الشين وتسكّن تخفيفاً

خ ش ب — قال ومال خَشَب: هزلى . وقد ضبطه الصاغاني ككتف

خ ش ش — قال: الخشاش بالكسر .. و — العود يجعل في عظم انف البعير الواحدة خَشاشة ، هكذا كسر في الجمع وفتح في المفرد والصواب الكسر فيهما .

خ ش ف — قال خشَف الخَشَف بالقوم خَشافة: دلّ بهم ... خشَف: دل على الطريق . هكذا اختصر ولخص كلام الأئمة ونص التاج «خَشَف بهم خَشافة كسحابة وخشّف تخشيفاً اذا مضى بهم» ، وكل ما ورد من الشرح يدل على السير والذهاب واصل معنى الخشوف الصوت والحركة والفعل من حدّ نصر وضرب خشوفاً وخشفاناً محركة اذا ذهب في الأرض والخَشَفُ الدليل الماضي ولعل العبارة الأخيرة حملت صاحب الكتاب على هذا التلخيص الناقص

خ ص ر — قال الخاصرة: ما فوق الحرقفة والقُصَيرى وقيل ما فوق الطفطفة والشراسيف . والتفسير الثاني يجعل الخاصرة فوق الطفطفة وتفسير اهل اللغة

يدل على العكس قال في التاج «وما فوق الخصر من الجلدة الرقيقة الطفطفة» هكذا في المحكم وغيره وفي اللسان نفس العبارة وهي كما ترى جملة مستقلة للتعريف بالطفطفة وليست من تفسير الخاصرة

خ ص ص — جاء بالشاهد «واذا تصبك خصاصة فتحمل» بالحاء المهملة وصوابه فتجمَّل بالجيم كما في اللسان وهو من التجمل واظهار الغنى .

خ ص ل — قال خَصلهم . ن . خَصْلاً وخصالاً : فضلهم ، هكذا من الفضل والصواب نضلهم من النضال . ولم يفته معنى النضال فجاء به بعده ولكن الفضل لم يكن من معاني الخصل فمن اين أتى به ؟؟ ومن الذي نص عليه ؟

خ ض ب — جعل الخضَبَة (بفتحتين) للمرأة الكثيرة الخضاب وصوابه الخُضبة كهُمزة .

خ ض ر — قال اختضر الفاكهة : أكلها قبل إِنَّانها وصوابه كما نص عليه الأئمة قبل إِناها اي قبل ادراكها

خ ض ر — وضبط الخضر في حديث علي «ليس في الخضر زكاة» بضم ففتح وزان زُفَر وصوابه بفتح فكسر وزان حَذِر

خ ض ع — جعل خضاعاً من مصادر خضع وفتح أولها ولكنه الخضاع بالكسر وهو من مصادر خاضع المرأة اذا خضع لها بكلامه وخضعت له فطمع بها

خ ط ف — جاء بالشاهد هكذا «رأى الموت في عينيه أسود احمرا» والرواية فيه «رأى الموت رأي العين» والرواية الأخرى «رأى الموت بالعينين» والباء هنا للاستعانة وليس للظرفية هنا محل

خ ظ ظ — قال خظَّ الرجل : استرخى بدنه واندال وقد تبع في عبارته صاحب القاموس وصوابه اخظ الرجل استرخى بطنه واندال كما في اللسان والتاج والتكملة والعباب

خ ف ر — قال وخفر بالعهد : وَفى به . وهذا غريب لأن خفر العهد ضد الوفاء به وكأنه استخرج الضدية من لازم قولهم خفره بمعنى اجاره فهل له ذلك وهل هذا صحيح ؟ ؟

خ ف ر — قال وخفر الزرع : شرحه لم أهتد الى المراد من شرح الزرع ولم أجد ما يشبه هذا المعنى في كتبهم

خ ف ث ل — ضمّ الخاء من خفثل وصوابه الفتح وزان جعفر

خ ف ج — قال : الخفج كـكتف والصواب الخفيج كأمير كما في القاموس وفي اللسان والغليظ مكان الضعيف

خ ف س — جعل خفَسه خفْساً من باب نصر وهو من باب ضرب

خ ف ي — أتى بالشاهد « خفاهن ودق ذو سحاب مركب » ورواية اللسان والتاج من سحاب مركب ورواية ابن بري من عشي مجلب فمن الجارة لم تتغير على اختلاف الرواية فما بال صاحب الكتاب احل محلها ذو

خ ف ي — قال : والخفاء ايضاً الكساء · ففتح الخاء والصواب الكسر وربما فتحوه في معنى الغطاء على أشكال

خ ف ي — قال الخفية : الركية والغيضة الملتفة وليست الخفيّة الركيّة على اطلاقها بل هي اذا تركت واندفنت ثم حفرت فلا بد من ذكر ذلك ليتم المعنى المراد بها

خ ق ق — قال الخُقّ بالضم : الغدير اذا جفّ وتلّع وفي كتب الأئمة وتقلفع ، جاء به صاحب الكتاب مضموم الأول نصاً وصوابه الفتح كما جاء اكثر من خمس مرات في اللسان وأحلّ تتلع محل تقلفع ولا مناسبة بين معنى المادتين ولا بين جفاف الغدير والتتلع الا اذا كان اقتبسه من التلاّع العامية للمدر الذي يقلع من الأرض ويرمى به وهذا في الفصيح القلاع لأن أصل مادته القلع وأراه تعمد هذا التبديل بدليل قوله بعد قوله وتتلع « وفي اللسان وتقلفع » وكأنه لم يرضه قول صاحب اللسان فعدل عنه ·

خ ل ب — قال الخلب بالكسر الظفر و — حجاب الكبد وقيل غلاف البطن و — الحبْل منه (كذا) و — ورق الكرم ، فما هو الحبْل من غلاف البطن وقال حجاب الكبد وعبارة القوم حجاب القلب او حجاب بين القلب والكبد أو لحيمة رقيقة تصل بين الأضلاع والكبد · وعلى ذكر الحبْل قال الأئمة ان

الخلب بالضم حبل دقيق صلب الفتل من ليف او قنب او حبل من قطن ولعل القطن تحرف عليه بالبطن فقال حبل من غلاف البطن وقوله ورق الكرم . هو ليس على اطلاقه بل الخلب العريض منه

خ ل ب ب — قال الخُلُبُوبُ : الخداع المكار وصوابه الخَلَبُوب بباءين محركاً كما في التاج

خ ل د — قال أي مقرطون مسودون بالدال وصوابه مسورون بالراء من السوار

خ ل ط — جاء بالآية الشريفة بقوله « وفي القرآن ان كثيراً من الخلطاء يبغي » ونص الآية « وان كثيراً من الخلطاء ليبغي »

خ ل ع — قال وخلع قائده : أزاله بالزاي وصوابه اذاله بالذال المعجمة اي اهانه .

خ ل ف — وقال في جمع الخليف خَلَف والصواب خُلُف وجعل خلف بمعنى استقى وما بعدها من باب ضرب . وكلها من باب نصر كما هو الظاهر من القاموس ومثّل للخَلَف بمعنى الوَلد مطلقاً بقولهم « عدَم الخلَف ولا بئس الخلَف » وليس هذا صالحاً للتمثيل بالمعنى المراد وانما الذي مثلوا به قولهم « نعم الخلَف وبئس الخلف » وأما العدَم فقد ذكره صاحب التاج بأنه على مثال ضده (أي الخلف) وهو العدَم والتلف

خ ل ق — قال : خلق الأديم قدّه قبل ان يقطعه والصواب قدّره وقاسه قبل ان يقطعه ، وهل القدُّ غير القطع ؟؟

خ ل ق — تبارك الله احسن الخالقين أي المقدرين أو الصانعين أو هو مبني على زعم الزاعمين ، أنا لم أفهم مراده من قوله أو هو مبني على زعم الزاعمين والزعم مطيّة الكذب وأين محل الزعم من هذه الآية الكريمة وصدر الآية في بيان تطوّر خلق الانسان في بطن أمه وقد حذف صاحب الكتاب الفاء من فتبارك التي تربط أول الآية بآخرها

خ ل ق — قال : المُختلِق (هكذا بصيغة الفاعل) التام الخلق المعتدله وهو في اللسان لهذا المعنى بصيغة المفعول واستشهد له بقول البرج بن مسهر

فلما ان تنشىٔ قام بخرق من الفتيان مختلَق هضيم

ولكن صاحب الكتاب أورد هذا الشاهد بمعنى انه خلق خلقة تصلح للملك

خ م ر — وقال في خمِر من باب علم . و — المزادة : خرز ناحيتها وعلاها بخرز آخر وصوابه أنها من باب نصر

خ م س — وقال : خمس القوم . ن . خمساً : أخذ خمس أموالهم و — كان خامسهم فجعلها من باب واحد وهو باب نصر . مع ان الأولى من باب نصر والثانية من باب ضرب .

خ م ص — قال وفي الحديث : « خماص البطون من أموال الناس خفاف الظهور من دمائهم » أي لم يأخذوا أموالهم ولم يسفكوا دماءهم لكن نص الحديث في اللسان « خماص البطون خفاف الظهور » ثم قال صاحب اللسان مفسراً اي انهم أعفة عن أموال الناس فهم ضامرو البطون من أكلها خفاف الظهور من ثقل وزرها وصاحب الكتاب خلط التفسير بنص الحديث ولم يجيء بالتفسير على ما فسروه به وتصرف في شرح المعنى كما أراد لا كما أراد المضطلعون بالكتاب والسنة !!

خ م ص - وقال الخَمصان الحشى والخُمصان الحشى بفتح الخاء وضمها : الضامر البطن خماص وهي خَمصانة ونص القاموس « رجل خمصان بالضم وبالتحريك وهذه (اي التحريك) عن ابن عباد

وكذلك ذكر الحديث « كان خُمصان الأخمصين » بالفتح ونصه عند الأئمة بالضم

خ م ص — وقال : يقال لبس البطنةُ خيراً من خَمصة تتبعها وصوابه ليس للبطنة خيرٌ من خمصة تتبعها وقد انقلب المعنى بهذا التحريف من مدح الخمصة الى ذمها .

خ ن ء — قال خنأ الجزع خنأً : قطعه وصوابه الجذع بالذال المعجمة واحد جذوع النخل

خ ن ب — فتح خِنَّابة الأنف والصواب كسرها

خ ن ظ ل — قال والخنظل القطار وصوابه العطار أي بائع العطر

خ ن ف س — قال : اَلخنفَسَةَ من الابل وصوابها الُخنَفِسَةَ كعُلَبِطة كما وزنها صاحب التاج ·

خ ن ن — وقال : اصيبت الإبل بالِخنان فكسر أوله وصوابه الضم لأنه من الأدواء ·

خ و ت — قال في تَخوّت و — تخوّت حديث القوم : أخذ منه فتحفّظه وقال في اختات حديث القوم مثل ذلك والصواب فيهما فتخطفه هذا ما ذكره اهل اللغة والاختطاف غير التحفظ ·

قال في الخوخة وهي في قوله : « سُدّوا عني كل خوخة في المسجد غير خوخة ابي بكر » بمعنى البويب

وهذا حديث نبوي ونصه كما في النهاية : « لا يبقى في المسجد خوخة إلا سُدَّت إلا خوخة أبي بكر » وفي حديث آخر « الا خوخة علي » والخوخة باب صغير كالنافذه الكبيرة · اهـ · فقد حرّف الحديث كما ترى

خ و س — جعل خاست الجيفة من باب نصر وكذلك خاست البضاعة وهما من باب ضرب ·

خ و ف قال : هو يأخذهم على تخوف · وهذه آية قرآنية نصها « أو يأخذهم »

(النبطيّة) احمد رضا

———

الملك الظاهر بيبرس

— ٣ —

وفوجئ بيبرس وهو في مصر بأمر لم يكن في الحسبان : ذلك أن فقراء الصوفية هاجوا على شيخه الشيخ خضر . ومن مواضع العجب ان يستسلم عقل بيبرس الجبار الى هذا الشيخ وأباطيله . وما ذاك إلا لأنه كان بشره بالملك فناله فعدّ بيبرس هذا الاتفاق كرامة للشيخ فأسلمه قياده . وشدّ ما كان لأمثال هذا الاتفاق من أثر سيء في تاريخ الاسلام وفي عقلية المسلمين . فبنى له زاوية وكان يستشيره ويطلعه على أسراره . ويستصحبه في أسفاره . وقد عناه ابن رضوان بقوله في مِدْحةٍ للملك الظاهر :

(لما رأينا الخضر يقدُمُ جيشه   أبداً علمنا أنه الاسكندر)

وكان يخبره بالمغيبات فتقع كما قال . وسمى أحد أولاده خضراً تفاؤلاً باسمه فكبرت نفس الشيخ خضر . وامتدت أصابعه الى اللعب في المملكة . وتعدّى طورَه الى ما فيه إخلال بالأمن فتعرّض للمعابد غير الاسلامية . يتصرف فيها برأيه : ففي دمشق استولى على كنيسة اليهود . وعمل فيها سماعاً للصوفية . ومدّ لهم سِماطاً . لكن هؤلاء الصوفية أنفسهم عادوا فثاروا عليه وأنكروا من اعماله ما لا يسوّغه عقل ولا يصدر مثله من مسلم . فاستدعاه السلطان وجمع بينه وبينهم . ولما علم صدق مقالِهم استشار الأمراء فيه فأشار بعضهم بقتله . وبعضهم بحبسه . وشعر الشيخ خضر بميل السلطان الى الرأي الأول فقال له : (إن أجلي منوط بأجلك فإن قتلتني لحقتني) فخاف الملك وحبسه وذلك (سنة ٦٧١ هـ) وبعد خمس سنوات توفي الشيخ خضر فبلغ الملك وفاته وكان في دمشق فاضطرب ومرض ومات بعد أيام كما يأتي . وقبر الشيخ خضر معروف الى اليوم

باسم (زاوية سيدي خضر) بشارع راس التين في الاسكندرية [1] .

واتفق ان هدم بيبرس احد قصور الفاطميين فوجد فيه امرأة في صندوق وقد نُقش عليه اسم الظاهر وصفته . وهذا بالطبع يسره ويُعلي من شأنه . والصندوق قد يكون هيأه من قبل متخرق كالشيخ خضر أو أنه فرعوني قديم وقد كتب عليه كلمة هيرو غليفية فحرفوها الى بيبرس .

واحتفل بزفاف ابنه الملك السعيد فرسم أن تجتمع العساكر في (قره ميدان) تحت القلعة فبقوا خمسة أيام وهم في مهرجان او عيد يمثلون معارك حربية وفصولاً هزلية . والناس من حولهم يلهون ويلعبون وخلع على رجال الدولة نحو الف وثلاثمائة خلعة . وأرسل مثلها الى دمشق . ومُدّت الأسمطة وحضرها رسل الافرنج والتتار . والملكُ جالسٌ على تختٍ من آبنوس مذهب أُنفق عليه الف دينار وقدَّم الامراء الهدايا حسب العادة فلم يقبل من كلٍ منهم سوى ثوب واحد جبراً لخاطره . قالوا (ولم تُمكَّن واحدة من نساء الأمراء على الأطلاق من الدخول) ولم أفهم معنى هذا .

وبعد ذلك شخص الملك الى دمشق وهي سفرته الأخيرة . ومنها الى حلب فأقام في قرية (حيلان) ذات العين الفوّارة . ونهض منها فالتقى بالتتار وحلفائهم من بني سلجوق على نهر جيحان فكانت معركةً حامية الوطيس (وكان الملك يكرّ على العدو كالأسد الضاري ويقتحم الأهوال بنفسه ويشجع أصحابه ويطيب لهم الموت في الجهاد الى أن انزل الله نصره) وانكسر التتار اقبح كسرة .

(١) وقصة الشيخ خضر مع بيبرس صورة مكبرة لقصة الشيخ سليمان مع بربر . وذلك ان مصطفى آغا بربر الذي استبد بحكم طرابلس الشام قبيل دخول المصريين إلى سوريا كان يعتقد بولاية شيخ اسمه الشيخ سليمان وقد أسكنه معه في قلعة طرابلس وكان هذا الشيخ يقول لبربر أبشر يا أقرع إنك لا تموت إلا على فراشك . وكان لا يخرج من القلعة أصلاً وبربر من عامة الناس لكنه أعرف الناس بطبيعة الناس فأصدر فرماناً بحبس الشيخ سليمان في القلعة وعدم خروجه منها مدة حياته فغضب الشيخ سليمان على بربر وما زال به حتى نقض حكمه عليه واسترد حريته وجعل يخرج من القلعة الى حيث شاء .

وُقتل من قُوادهم جماعةٌ كما استشهد من امراء بيبرس طائفة وأسر من كبار السلجوقيين طائفة . وهرب وزيرهم الأكبر المسمى (بروانا ه) الى عاصمتهم (قيصرية) فأخبر سلطانه (غياث الدين) بما جرى فهرب الى توقات . وقامت الشعراء تهنئ بيبرس وتتغنى بذكر بطولته وبطولة أمرائه . ولحق الملك بالمنهزمين الى (قيصرية) فمر بقرية أهل الكهف وهي (أفسس) الى ان دخل قيصرية ومشى اهلها بين يديه . وجلس على عرش ملوكها السلاجقة . وخُطب فيها باسمه وهادَن أولاد (قَرَمان) . وهم أُمراء كان لهم شان في ذلك الزمان والمكان . وعاد فمر بمكان المعركة فقيل له ان عدة من قتل من المغول وحدهم (٦٧٧٠) نفساً .

وعاد الى دمشق في ٧ محرم سنة ٦٦٧ ونزل بقصره الأبلق في المرجة . وقد بلغه ان التتار يتجهزون للكرّة عليه فأوجس خيفة لأنه شعر بوعكة وتعب . ثم بلغه ان ملك التتار عاد الى بلاده منهزماً فكان ذلك من لطف الله به : إذ أن وعكته استمرّت ثمانية عشر يوماً على أثر إكثاره من شرب القمز الذي وصفناه في اول المحاضرة وقلنا إن (بيبرس) كان مولعاً به لأنه الشراب الوطني لقومه . شعر بيبرس في أول الأمر بحرارة في جوفه فوُصف له مقيئ ثم مُسهل ثم مسهل آخر أشدُّ من الأول أعقبه نزيف ثم اشتدت حُمّاه . وضعفت قُواه . وهكذا اسلم روحه الى الله .

وذكر بعض المؤرخين لموته أسباباً ربما كان في بعضها بعضُ الصحة : ذلك ان القمر كسف كسوفاً كلياً وأظلمت الدنيا على أثره . فتأوّلوه بموت رجل عظيم فخشي الظاهر ان يكون هو ذلك العظيم . فرأى أن يَفدي نفسه بالملك القاهر الذي كان من عظماء مملكته . وهو ابن المعظّم عيسى بن الملك العادل (جارنا الأدنى) وكان بيبرس يحسد القاهر هذا على بطولته . وعلى لهج الناس بالثناء عليه . ويقال إن القاهر عاب الملك الظاهر في بعض ما كان منه في حرب التتار . كل ذلك حمله على الفتك به . فيتخلص من منافسته له أولاً

ويكون فديةً عنه ثانيًا . فدسّ له سمًّا في هنّاب [1] شراب القمز (والهناب قدحُ الشراب الضخم) وقام القاهر من المجلس الى فراشه ومن فراشه توًّا إلى قبره . وغلط الساقي فسقى الظاهر بالهنّاب المسموم الذي شرب به القاهر ونسي ان يغسله من أثر السمّ . فكان ذلك هو السبب في موته . وقد عُدّ قتله للقاهر من أقبح المآثم التي كان ينبغي أن يتورّع بيبرس عنها .

وكانت وفاته في ١٤ محرم سنة ٦٧٦ وعمره احدى وخمسون سنة ومدة ملكه ثماني عشرة سنة . فكتم الأمراء خبر موته عن الناس ونقلوه سرًّا من القصر [2] الأبلق الى قلعة دمشق . فحنطوه وعلقوا تابوته في غرفة من غرفهم . وكتبوا إلى ابنه الملك السعيد بالخبر . واستأذنوه في مكان دفنه . لأن الظاهر أوصى ان يدفنوه على طريق (داريا) في مكان قريب منها . فلم يرض ابنه إلا أن يُدفن داخل سور دمشق . فابتاعوا دار العقيقي الواقعة أمام مدرستنا هذه بستين الف درهم فهدمت وبُنيت مدرسة للشافعية . ودُفن الظاهر في زاويتها الجنوبية . وفي الزاوية الشمالية حمام ما زال يعرف بحمام العقيقي الى اليوم .

(١) لفظ هناب من الألفاظ الصليبية الدخيلة اقتبسه المسلمون في أثناء الحروب الصليبية من الألمانيين واسمه في لغتهم (hnap) .

(٢) القصر الأبلق هذا ويسمى الجوسق أيضاً ، والجوسق كلة تركية عربها العرب من كلة كوشك) بناه الظاهر في مرجة دمشق بالحجر الأسود والأصفر ولذا سمي الأبلق وهو (يشتمل على قاعات مفروشة بالرخام الملون المفصل بالصدف والفص المذهب وله رفارف تناغي السحب وتشرف على المدينة والغوطة ، وقد كتب على أسكفته انه (عمل ابراهيم بن غنائم سنة ٦٦٨) وهو المهندس المصري المشهور الذي بنى المدرسة الظاهرية حيث مدفن الملك الظاهر وابنه الملك السعيد وعلى زاوية أسكفتها العليا كتبت العبارة المذكورة نفسها (عمل ابرهيم ابن غنائم) وبقي القصر الأبلق حتى هدمه تيمورلنك سنة ٨٠٣ ه ولبث متهدماً حتى بنى السلطان سليمان العثماني تكيته من أنقاضه سنة ٩٧٤ ه وكان على واجهته مئة أسد منزلة صورها بالحجر الأسود في الأبيض وهناك أخرى بالحجر الأبيض في الأسود . وصورة الأسد هي (رنك) الملك بيبرس أي شعاره الخاص وما زال هذا الشعار الظاهري منقوشاً على بعض أحجار التكية السليمانية وبارزاً لعين من يراه .

واشتهرت المدرسة باسم المدرسة الظاهرية وكان نقل جثمانه اليها في ٥ رجب فيكون قد بقي في تابوته معلقاً في القلعة ستة أشهر إلا أياماً .

***

هذا ما استطعنا ان نلخصه من أخبار جارنا الملك الظاهر . وقد اتفقت كلمة المؤرخين على أنه اعظم السلاطين الذين ملكوا مصر والشام بعد صلاح الدين . ويجيء بعده المنصور قلاوون . وهؤلاء الثلاثة لهم الفضل الأكبر في جلاء الصليبيين عن الديار الشامية وكانت مراكزهم الكبرى (القدس) و (انطاكية) و (طرابلس) : صلاح الدين أخرجهم من القدس . والظاهر من انطاكية . وقلاوون من طرابلس .

قال الذهبي (وكان الظاهر خليقاً بالملك لولا ما كان فيه من الظلم) وقديماً قالوا : لا يقوم الحق الا على شعبة من الباطل . ولم يقم فاتح من كبار الفاتحين ويستتب له سلطان من دون ان يرتكب شيئاً من الظلم والعدوان . من ذلك ما ذكرنا من اغتيال الظاهر للمعظم توران شاه ابن الصالح ايوب . ثم اغتياله الملك قطز . ثم المغيث ملك الكرك وهو من سلالة بني أيوب . ويُروى ان السبب في قتل الأخير تعرضه بالسوء لامرأة الظاهر مذ كانت في الكرك . وأخيراً قتل بيبرس الملك القاهر دساً بالسم .

وأفظع من هذا كله قتله الفي أسير من الصليبيين بعد أن أمّنهم (كرمون التتارى) وهم يظنونه بيبرس كما ذكرنا في فتح صفد فأشبه بيبرس في فعلته هذه (نابوليون بونابرت) الذي قتل الفي أسير مسلم في يافا بعد رجوعه خائباً من عكا . وقد عاب المؤرخون عليهما فعلهما غير أن بعضهم التمس لهما عذراً بأن أسرى صفد وأسرى يافا نقضا عهد النابوليونيّين ولم يطبقوا شروط الصلح التي اتفقوا عليها .

وللظاهر مشابه أخرى بنابوليون . ومنها النبوغ في فن الحرب وقلقلة الركاب في أطراف البلاد ونشاط الحركة في الكرّ والفرّ . وكان الظاهر يباشر الحروب بنفسه ويشارك جنوده في هدم الأسوار أحياناً ويعتني بالمرضى والجرحى منهم .

وكان مشتغلاً بهدم سور قيسارية يوماً فورد اليه كتاب من أمرائه يشكون له ما لاقوا من أسوار (البيرة) فكتب اليهم (إنا بحمد الله ما خصصنا عنكم براحة ولا دعة . ولا انتم في ضيق ونحن في سعة . ما هنا إلا من هو مباشر الحروب الليل والنهار . وناقلُ الأحجار ومرابطُ الكفار . وقد تساوينا في هذه الأمور . وما ثَمَّ ما تضيق به الصدور) فهو كنابليون يتألف رجاله وينصفهم من نفسه ويحملهم على التأسي به . وأرسل الرسل مرةً الى (بيموند) صاحب طرابلس ورافقهم في زي خادم كي يتعرف خبايا البلد ويدرس طرق الاستيلاء عليها .

ونقض ملك الروم عهده فاستقدم اليه أساقفة مصر وسألهم عن حكم نقض العهد في دينهم فقالوا حرام . ومن فعله يُحرَم من دينه وكتبوا ذلك في كتاب فألف بيبرس بعثةً اكليركية من راهب وأسقف وقسيس وارسلهم الى القسطنطينية يبلغون الملك قرار الحرمان . لكن الملك البزانسي ارعوى عن غيّه واسترضى الظاهر وجدد له بناء جامع القسطنطينية الذي بناه الأمويون في صدر الاسلام فأرسل الظاهر الى الجامع السجاجيد والمباخر وقناديل الذهب .

وقد ظهر لنا من تضاعيف أخبار بيبرس أنه لم تكن له أنسة ولا اهتمام بالموسيقى والشعر والشعراء . ولا بمجالس الأدب . ومحافل الطرب : فان السياسة وحبّ الفتح والنكاية في العدو وعمرانَ البلاد وتشييد المباني والآثار — كلُّ ذلك شغله عما سواه . نعم كان يُعني بنشر العلوم الاسلامية على اختلاف ضروبها فقد بنى لها المدارس وعيّن لها الفقهاء . وأعاد الجامع الأزهر إلى ما كان عليه في العهد الفاطمي بعد ان تَخمَّل شأنه في العهد الصلاحي . ولم يكن له شعراء ومغنون يُحيون مجالسه ويعيشون بجوائزه . كما كان لغيره من الملوك وهذا لعمري من ممادحه . وغرّ مناقبه : فإن حراسة البلاد والقيام بأعباء الملك جدير أن يشغل صاحب الملك عن اللهو وصنوف الدّعة والرفه . ويدلك على شدة اهتمامه بحراسة البلاد الاسلامية قوله لبعض امرائه وقد اشار الأمير عليه بملاينة التتار فانتهره بيبرس صائحاً : (أنتم سببُ هلاك المسلمين) .

وكل ما في الأمر انه اصطفى لرئاسة ديوان انشائه أديباً من الكتاب (وهو محيي الدين بن عبد الظاهر) فكان ينظم احياناً الشعر مهنئاً له . وواصفاً أعماله . من ذلك أن الملك بيبرس حاصر عكا فلم ينل منها . ورجع الى عكار ففتحها فقال محيي الدين :

يا مليك الأرض بُشرا ... لك فقد نلت السعادة
إنَّ عكار لعمري ... هي عكا وزيادة

ولما أوقع الملك بالتتار على شاطئ الفرات هنأه كاتبه بقصيدة عارض فيها قصيدة ابن هاني الأندلسي في المعز الفاطمي التي أولها :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار ... فاحكم فأنت الواحد القهار

فقال محيي الدين :

سِرْ حيث شئت لك المهيمن جار ... واحكم فطوع مُرادك الأقدار

ومنها وهو معنى أظنه مبتكراً :

رَشَّتْ دماؤهم الصعيد فلم يَثُرْ ... منه على الجيش السعيد غُبار

ولو قال (بلَّت) مكان (رشت) لكان أجود .

ومما يدل على ان بيبرس ما كان يحفل بكل ما يسمونه أدباً وأدباء وشعراً وشعراء — مجافاته لمؤرخ الأدباء والشعراء القاضي ابن خلكان فقد عزله من قضاء دمشق بعد ان قام به مدة عشر سنين . وكأن المؤرخ ابن خلكان اراد ان ينتقم منه فلم يذكر له ترجمة في تاريخه كما ترجم لغيره من الملوك ممن لا يقاس به ولم يَفرِ فَرِيَّه .

ومن شعراء عصره السراج الوراق وابو الحسين الجزار وابن الخشاب . ولم يكن لهم فيه مدح يذكر . وشعر يؤثر . ولم ينقل عنه أنه اجازهم بالأموال والبِدَر . وكانوا اذا نظموا فيه قالوا شعراً متكلفاً . وسلكوا في مدحه طريقاً متعسفاً : من ذلك ما قالوه في مدرسته التي بناها في القاهرة ويقال انه بناها بحصته من غنائم انطاكية .

قال السراج :

مليك له في العلم حبٌ وأهله فلله حبٌ ليس فيه ملام

وقال الجزّار :

ألا هكذا يبني المدارس من بنى ومن يتغالى في الثواب وفي الثنا

وقال ابن الخشاب :

قصد الملوك حماك والخلفاء فافخر بأن محلك الجوزاء

الى آخر القصائد وهي ليست مما اعتاد ان يقوله أمثال هؤلاء الشعراء في امثال ملك عظيم كالملك الظاهر وما كانوا ليقولوا هذا فيه لو اكثر لهم اللُّهى . إذ لا يخفى ان اللُّهى تفتح اللَّها ولم يكن هذا بخلاً منه فقد مرَّ انه كان يمنح رجاله الأموال الطائلة لكنه مشي في معاملة الشعراء على اثر عمر بن عبد العزيز

وكان الظاهر يحب التاريخ ويقول (سماع التاريخ اعظم من التجاريب) وكان يطرب لصناعة الانشاء ويسرّه ان تحبَّر الرسائل في مخاشنة الأعداء من ذلك ان الملك الظاهر كان حاول فتح طرابلس وتدميرها على رأس صاحبها البرنس (بيموند) . فلم يتيسر له ذلك فتركه وصمد الى انطاكية وكانت انطاكية داخلةً في حوزة بيموند ففتحها بيبرس وقتل اربعين الفاً من أهلها بعد ان لم يتيسر فتحها لصلاح الدين . وعاد الى دمشق وأقيمت المهرجانات في قلعتها احتفالاً بالعيد وبافتتاح انطاكية وأرسل منها الى (بيموند) كتاباً يخبره بما وقع من الاستيلاء عليها . والكتاب من انشاء رئيس ديوانه وقد ساق خبر الفتح مساق البشارة لبيموند ولكنها على حد قوله تعالى : « فبشرهم بعذاب اليم » والكتاب طويل مذكور في صبح الأعشى (جزء ٨ ص ٢٩٩) ونكتفي منه بفقرات . قال بعد ما وصف فتحه لانطاكية :

(وسلامةُ النفس هي التي يفرح بها الحي اذا شاهد الأموات . ولعل الله إنما أخر أجلك لتستدرك بالطاعة لنا ما فات . ولما لم يسلم أحد من اهل انطاكية

يخبرك بما جرى لم خبّرناك . أو يبشرك بسلامة نفسك وهلاك حزبك بشّرناك .
فينبغي لك بعد الآن أن لا تكذّب لنا خبرا ولا تقل لما جرى كيف جرى) .

وللشيخ النووي شيخ دمشق حكاية مع الملك الظاهر نختم بها محاضرتنا ذلك ان الملك أراد أن يضع ضريبة لتسديد نفقات الحرب واستفتى الفقهاء فأفتوه بما أراد ماعدا الشيخ النووي قائلاً : الضرائب انما تفرض عند الحاجة ولا تتحقق هذه الحاجة الا بعد ان يباع ما في القصر السلطاني من المماليك والأواني وحليّ الذهب والفضة التي هي كلها من مال بيت المسلمين وبعد ذلك للملك ان يضع ضريبة حرب . فسكت الملك مغضباً .

هذا أيها الملك الجليل والجار العظيم ما طالته يدنا من أخبارك . واستطعنا ان نجمعه من جليل آثارك . فإذا كان هناك أشياء من مناقبك لم تطل يدنا اليها . أو لم يتسع الوقت للإتيان عليها . فاعذرنا إذن وارجع الى الرمس قرير العين مطمئن النفس والسلام .

المغربي



ضرب الحوطة على جميع الغوطة

للحافظ محمد بن طولون الدمشقي الحنفي رحمه الله

نشرها نشراً جديداً وعلق عليها الدكتور محمد أسعد طلس

(القسم الثالث)

---

(٢٧) المراد بالتكية تكية السلطان سليمان القانوني فان اموال نواب المماليك ومقدميهم صارت كلها الى السلطان سليم وأولاده فوقفوها أو تصرفوا بها كما يريدون

(٢٨) يقول Dussaud ص ٣٠٣ ان حزرما هي شرقي بيت نايم ٠ وقد ذكرها Sauvaire 1894 ,II, 280 ؛ Quatremére في Les Sultans Mamlouks ٩٨/٢ وقال : ان وارداتها السنوية كانت تقدر بعشرة آلاف وخمسمائة درهم ٠

(٢٩) أقول وذلك ما يزال مكتوباً على حجرة لا تزال موجودة في دار الحديث هذه على الحائط الشرقي ٠

(٣٠) هو جمال الدين ابو المحاسن يوسف بن عبد الهادي أستاذ ابن طولون المشهور بابن المبرد أيضاً ٠ انظر ما كتبناه عنه وعن آثاره في مقدمة كتاب « ثمار المقاصد في ذكر المساجد »

(٣١) ذكرها ياقوت دون ان يضيفها الى (العواميد) وقال Dussaud : هي قرب البحيرة وانما جاءها اسم العواميد من ثلاثة أعمدة رومانية ما زالت قائمة فيها ٠ وانظر ما كتبه عنها Le Strange ص ٤٢٩ ، و Sauvaire 1894,II, 238 ، و Porter في Five Jears in Damaskus I,376 ٠

(٣٢) يقول Dussaud ص ٣٠١ : يوجد شرقي دمشق قريتان اسمها الحديثة وبعضهم يقول حديثة وحديدة — كما في السالنامة — أولاهما حديثة الجرش [التي سيأتي الكلام عليها] وهي شمال زبدين ٠ والثانية حديثة التركمان او الحديثة فقط وهي جنوب شرقي شبعا ٠ [ملاحظة: لقد كرررقم(٣٢) في القسم الأول وهو خطأ]

(٣٣) هذا التعبير يراد به انه كان يتصرف بها ٠

(٣٤) هو صاحب التربة المزلقية ، الغني الكبير صاحب الأوقاف وقد أطال النعيمي الكلام عنه في كتابه « تنبيه الطالب » فارجع اليه وانظر ما كتبناه عنه في نشرنا لكتاب ثمار المقاصد في ذكر المساجد لابن عبد الهادي ٠

(٣٥) قال Dussaud ص ٣٠٥ هي قرية في غربي دير العصافير ٠ وهناك خيارة أخرى بوادي العجم (انظر Dussaud ص ٣١٢) وخيارة ثالثة في البقاع [انظر ص ٤٠٩] (٩) قال دوسو ص ٢٩٧ : مشهورة بعينها وهي ضاحية كبيرة جنوب غربي دمشق نجد لها ذكراً في النصوص السريانية القديمة باسم [دارالشام] ٠ كما نجد لها ذكراً في النصوص المسيحية اليونانية باسم (داريا) انظر ابن جبير ص ٣٠٢ وياقوت ٢/٥٣٦ و Le Strange ص ٤٣٦ و Sauvaire ,II, 296 ٠ وانظر هامش دوسو ص ٢٩٧ وهناك داريا اخرى بمنطقة صيدا وثالثة بمنطقة طرابلس فانتبه

(٣٧) لعل المراد بهذا التعبير انها كانت للسلطان ٠

(٣٨) لايذكر Dussaud هذه القرية وانما يذكر قرية اسمها دقا ويقول ويقول ذكرها ياقوت ٢/٥٨١ و Le Str ص ٤٣٨ ولا يعين موضعها ولا يذكر شيئاً عنها

(٣٩) يذكر Dussaud ص ٢٩٩ انها شمال شرقي دمشق ويخطئ ياقوتاً حين يقول انها كانت تسمى قديماً توما (بالتاء) وان الباب منسوب اليها ٠ وانظر ما قال عنها Le Str ص ٥٤٢ و Sauvaire II, 239 ٠

(٤٠)[1] أمير كبير من القاب المماليك راجع كتاب ٠٠٠٠ La Syrie لديمومبين ٠

(٤١) لم أهتد اليها فيما بين يدي المصادر ٠

(٤٢) يقول Dussaud ص ٣٠٩ : يطلق اسم الربوة على هضبة وقرية غربي دمشق وقيل ان القرآن أشار اليها بقوله عن عيسى وأمه (وآويناهما الى ربوة آلخ الآية) ولكن هناك خلافاً بين المفسرين على هذه القضية ٠٠٠ والربوة مفصولة عن قاسيون بعقبة دمر ٠ انظر ياقوت ٢/٧٦٢ ٠ و Le Str ٠ ص ٥٢١ و Sauvairs 420 , II,300 ، وابن جبير ص ٢٧٨ و ٢٧٩ ٠

(١) لقد طبع هذا الرقم في الصحيفة ١٥٧ خطأ (٣٠) فليصحح

(٤٣) بياض بالأصل ولعل المحذوف كلمة [دمشق] وفي الخزانة ص ٤٧ النيرب

(٤٤) قال المؤلف في كتابه تاريخ الصالحية [الربوة اعظم متنزهات دمشق كان بهـا اربعة مساجد وجامع بخطبة ومدرسة وكان بها التخوت وهو قصر مرتفع على سن جبل به قاعة وطبقات على هيئة الايوان ينظر الجالس هناك من مسافة يوم لو لم يكن حائل به وكان بها خمس مقاصف وكان بها [العاشق] و [المعشوق] وهما برجان للحمام في خلف الجبل الغربي وشماليها برج العذول ٠

(٤٥) قال دوسو ص ٣١٣ [زملكا] و [زملكان] شيء واحد فقد حذفوا النون منها كما حذفوا النون من [بلدان] فقالوا [بلدا] وهي جنوب غربي عربين ٠ انظر ياقوت ٢/٩٤٤ ٠ و Le Str. ص ٥٥٥ ٠

(٤٦) ذكرها Dussaud ص ٣١٣ وقال انها قرب المليحة وقرب عين الحلوش أو الحروش ٠ وانظر Sauvaire 1894,I,455. ٠

(٤٧) يذكرها Dussaud ص ٣١٣ ويقول : كانت مزرعة وقرية في المرج ٠ وانظر أيضاً Sauvaire 1894 II 124 ٠

(٤٨) لا يعرف Dussaud هذه القرية وانما يعرف سويداء جبل الدروز فقط ٠

(٤٩) يذكرها ياقوت ٣/١٠٠ ويذكرها Dussaud ولا يعرف موضعها انظر ص ٣١٢ ٠ وانظر أيضاً Le Str ص ٥٢٧ و Sauvaire 1894,I,265 ٠

(٥٠) لايعرف Dussaud هذه القرية ٠

(٥١) يقول ‍ ‍ ص ٣١٠ هي ضاحية كبيرة شمالي دمشق بناها في القرون الوسطى المهاجرون المسلمون من بيت المقدس لما أخذه الصليبيون ٠ انظر ياقوت وتاريخ الصالحية لابن عبد الهادي وتاريخها لابن طولون وكلاهما مخطوط ٠ وقد صارت الصالحية اليوم قسماً من مدينة دمشق ٠

(٥٢) يقول Dussaud ص ٣١٢ خربت في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي وموضعها وآثارها بين دمشق والمزة انظر ياقوت ٣/٤٣٦ ٠ و Le Str . ص ٥٣٠ و Sauvaire II,229,363 فانه يقول : انها غرب نهر القنوات باتجاه جامع خاتون ٠

(٥٣) لم يذكرها Dussaud ٠

(٥٤) قال Dussaud ص ٢٩٤ هي شرقي دمشق ذكرها ياقوت ٧/٧٥٩ Le Str. ص ٣٨٧ . والمقدسي في مراصد الاطلاع ٢/٢٩٢ وقد أخطأ الناشر فكتبها عين توما

(٥٥) قال Dussaud ص ٢٩٤ هي شمال شرق دمشق .

(٥٦) قال « ص ٢٩٣ هي شمال المرج قرب الصحراء ويرى دوسو ان يفتش عن هذه القرية في منطقة الخضرا ثم ساق طرفاً من تاريخها فارجع اليه اذا شئت . ويسمى المرج باسمها فيقال مرج عذرا انظر ياقوت و Le Str. ص ٥٠٣

(٥٧) قال Dussaud ص ٢٩٤ هي جنوب الجنوب الشرقي من دمشق .

(٥٨) هي راوية فانظر ما كتبناه فيها . وهي اليوم معروفة بقبر الست ويقول Dussaud ص ٣١٠ في كلامه على راوية : ان المؤرخين الثقات يقولون ان فيها قبراً لامرأة تسمى ام كلثوم وليست بنت النبي التي تزوجها عثمان ولا بنت علي وفاطمة التي تزوجها عمر بن الخطاب ولكنها من أسرة النبي (؟) وهناك موضع للشك فان ابن بطوطة يذكر انهم قالوا له لما زار راويه ان فيها قبر سكينة بنت الحسين انظر الرحلة ص ٢٢٥

(٥٩) لا يذكر هذه القرية Dussaud

(٦٠) يقول Dussaud ص ٣٠٨ : القابون غربي حرستا البصل مشهورة بمائها وهوائها وفيها قصر حسن البنيان كما يقول Sauvaire [1894,II,427] كان ينزل فيه السلطان في رحلاته . ولا يفرق دوسو بين القابونين

(٦١) بياض بالأصل .

(٦٢) يقول Dussaud ص ٣٠٩ القصير قرية صغيرة وقربها عن القصير شمال دمشق ذكرها ابن جبير ص ٢٦١ و Le Str. ص ٤٨٩ وانظر ما قال عنها دوسو في هامش ص ٣٠٩

(٦٣) لا يذكرها Dussaud

(٦٤) يقول Dussaud ص ٣٠٤ هي جنوب غربي دمشق ويسميها الجغرافيون القدماء كفرسوسية وهي شهيرة بزيتونها وفيها كتابات سريانية انظر ياقوت ٤/٢٨٨ و Sauvaire 1894.II,425 أو Le Str ص ٤٧٢

(٦٥) لا يذكر Dussaud هذه القرية وانما يذكر قرية اسمها (قيسا) ويقول ص ٣٠٩ انها جنوب شرقي القاسية ثم يقول انظر (دير قيسل) .

(٦٦) انظر دير محمد . ويقول Dussaud ص ٣٠٨ هي شرقي كفر بطنا انظر ياقوت ٤/٤٣٠ و . Le Str ص ٥٠٩

(٦٧) يقول Dussaud ص ٣٠٥ : هي غربي زبدين . ثم يذكر المنيحة ويقول ينبغي ان نفتش عنها ان لم تكن هي نفس المليحة وفيها قبر الصحابي سعد بن عبادة انظر ما كتبناه عنها في كتاب ثمار المقاصد .

(٦٨) يقول Dussaud ص ٣٠٨ : وفيها مسجد القدم النبوي وكان يقال لها مشهد القدم . وانظر أيضاً ما كتبناه عنها في ذيلنا على كتاب ثمار المقاصد في ذكر مساجد دمشق لابن عبد الهادي .

(٦٩) الف ابن طولون فيها رسالة خاصة اسمها المعزة فيما قيل في المزة نشرت سنة ١٣٤٨ . ويقول Dussaud ص ٣٠٧ هي شرقي دمشق وتسمى مزة كلب لأن فيها قبر دحية الكلبي . وكان فيها معامل ماء الورد وقد أطال الكلام عنها ابن بطوطة في رحلته .

(٧٠) يقول Dussaud هي قرية قديمة امام باب الصغير صارت حدائق منذ عهد ياقوت ويقال ان قابيل سكنها انظر ياقوت ٤/٢١٩ و . Ls Str ص ٤٧٣

(٧١) نجدها بكثرة هي و (سطرا) مذكورتين في الشعر الذي قيل في مدح منتزهات دمشق [انظر محاضرة الأستاذ كرد علي] ويقول Dussaud ص ٣٠٦ : هي قرب دمشق ذكرها ياقوت ولم يعين موضعها . وانظر Le Strange ص ٤٩٩ و Sauvaire 1894,I,420 وقال الأستاذ كرد علي (مقرا) هو المكان المعروف عند طاحون الاشنان في شمال شرقي البلد .

(٧٢) قال Dussaud هي شمال المزة . ولها مسجد فية قبر أم مريم ومصلى الخضر وهي كثيرة المياه والحدائق . ومنذ القرن السادس عشر لم يعد يعرف موضعها بالضبط وانظر ابن جبير ص ٢٧٩ وياقوت ٤/ ٨٥٥ وابن بطوطة ص ٢٣٥ و . Le Str ٥١٤ . والاصطخري ٥٨ ، وابن حوقل ١١٤

(٧٣) لا وجود لهذه القرية عند Dussaud .

(٧٤) يقول Dussaud ص ٣١٣ بلدان هي بلدا ويقول ياقوت: هي قرب دمشق شرقي القدم وربما كتبت خطأ جلدا . وقد وجد فيها Porter بقايا آثار رومانية انظر ياقوت ٤/١٠٢٥ و Le Str. ص ٥٥٢

* * *

هذا ما ذكره ابن طولون من قرى الغوطة في زمنه ونحن الآن نعقب عليه بأمرين (الأول) ذكر القرى الموجودة الآن التي اهملها ابن طولون إما لأنها لم تكن موجودة في زمنه وإما لأن اسماءها قد تغيرت . و (الثاني) ذكر القرى التي كانت قبل ابن طولون ثم اندرست وقد اهتدينا اليها اثناء مطالعاتنا في كتب شتى . وقد وضعنا القسم الأول تحت حرف (آ) والثاني تحت حرف (ب) .

(آ)

الأشرفية : لا يذكرها ياقوت وهي اليوم جنوب داريا

البلاط : ويقال لها بيت البلاط ذكرها ياقوت وقال هي من الغوطة ولم يعين موضعها . وهي اليوم غربي زبدين .

ببيلا : يذكرها ياقوت وهي جنوب شرقي دمشق . وانظر Le Str. ص ٤٠١ و II,380 Sauvaire .

بلاس : ذكرها ياقوت وقال: بلدة بينها وبين دمشق عشرة اميال . قال حسان:

(فالقريات من بلاس فداريـ ـا فسكاء فالقصور الدواني)

البلالية : ذكرها Dussaud ص ٢٩٤ وقال: انها شرقي تل الصالحية

تل السلطان : غربي قرحتا . وانظر ما قال عنها Dussaud ص ٣١٣

تل الصالحية : شرقي دمشق شمالي حزرما وغربي النشابية يقول Dussaud ص ٣١٣ : لعلها كانت مدينة قديمة فقد اكتشف فيها Porter آثاراً قديمة . انظر مجلة Syria سنة ١٩٢٤ ص ٢١

تل مسكن : غربي بحيرة الهيجانة ذكرها Dussaud ص ٣١٢

جديدة : شمالي بحيرة الهيجانة ذكرها دوسو ص ٢٩٩ وتسمى أيضاً جديدة الخص انظر Porter ا ص ٣٨٧

حوش الاشعري: جنوبي جسرين بها جامع لطيف ذكرها Dussaud ص ٣٠٤

« خرابو : ذكرها ياقوت ولم يعين موضعها وذكرها « «

« الدوير : جنوبي دير العصافير « « «

« المُدمل: قرب دير سلمان ذكرها Dussaud ص ٣٠٤

« المتين : قرب حرستا القنطرة « « «

« الفارة : ويقال لها قصر الفارة جنوب عدرا « «

« حمّار : قرب حران العواميد ذكرها « «

« المباركة: شرقي الشفونية « « «

« الكوكب : غربي سكا « « «

« الريحانية : جنوبي مسجد القدم « « «

حجيرا : يذكرها ياقوت باسم حجُرا وهي غربي قبر الست وفيها قبر الصحابي مُدرك بن زياد انظر Dussaud ص ٣٠١ و٣٠٤ و LeStr ص ٤٤٥

حديثة التركمان : جنوبي شرقي شعبا

حصن الدوير : شمال شرقي سكاء

حصن النصارى : شمالي المحمديات

حصن الكواكب : « قرحتا

خربة أُلمسيع : في منطقة حران العواميد ذكرها Dussaud ص ٣٠٥

خنيزيرة : ويقال لها خنيصرة شرقي بحيرة الهيجانة ذكرها Dussaud ص ٣٠٥

داعية : قرية بين حمورية وبيت سوا وهي من أفضل قرى الغوطة ويقول الأستاذ كرد علي [مجلة المجمع ١٦/١٦٢] انها كانت معروفة الى القرن التاسع وقد تحقق عندي انها اليوم داخلة في أراضي حمورية

دلبه : قال Dussaud ص ٢٩٩ وهي بين سكاء ودير سلمان

دحيريج : منطقة البحيرتين ذكرها Dussaud ص ٢٩٩

دير سلمان : شرقي حرستا القنطرة وبها مسجد ويقول Dussaud ص ٢٩٨
انها شرقي ام العواميد

« العصافير: يقول Dussaud هي جنوب شرقي زبدين . وقول من قال ان
اسم هذه القرية مأخوذ من السريانية [دير الصفارين] محل للشك

« الاوسط : شرقي البحيرتين وقال دوسو ص ٢٩٨ فيه آثار بيزنطية

« القبلة : شرقي البحيرتين قاله دوسو ص ٢٩٨

« شمال : « « « « « «

ريحان : يذكرها Dussaud ص ٣١١ ويقول انها بين عذرا ودمشق

راوية : هي قرية قبر الست التي ذكرها ابن طولون ويقول ياقوت : فيها
قبر الست زينب بنت فاطمة . ويقول دوسو هي في جنوب
الجنوب الغربي من دمشق انظر ص ٣١٠

سبينة وسبينات: لم يذكرهما ياقوت وهما جنوب دمشق وفيها اقنية رومانية
انظر Dussaud ص ٣١٢

سبعة : ذكرها ياقوت ص ٥٤ وقال دوسو ص ٣١٢ : هي جنوب الخيارة
وتحديدها يبين لنا حدود بيت الابار التي تشمل على عدة قرى
كانت شرقي وجنوب شرقي دمشق .

سكاء : ذكرها ياقوت وقال دوسو ص ٣١١ : هي شمال غرب الغسولة
وقد وجد فيها آثار رومانية ترجع الى القرن الثالث المسيحي
وكنيسة للقديس بولص انظر . Le Str ص ٥٢٨

الشقونية : شمال جسرين ذكرها دوسو ص ٣١٢

الصفوانية : يقول دوسو ص ٣٠١ انها عند باب توما وهي التي يسمونها
الآن الصوفانية بين باب توما والمستشفى الانجليزي

صحنايا : لا يذكرها ياقوت وهي اليوم جنوب داريا

صهيا : جنوب قبر الست ذكرها دوسو ص ٣١١

الضمير : قرية أثرية هامة جداً اطال دوسو الكلام عنها وعن آثارها وأهميتها ص ٣٠٠ و ٣٠١ وقال لعلها مدينة Admedra التي كان لها اهمية كبرى منذ القرن الأول للمسيح وفيها هيكل مؤرخ بناؤه بـ ١٥ اكتوبر سنة ٢٤٥

العبادة : من قرى المرج

العبادية : هي شمال غربي العتيبة ذكرها ياقوت ٣/ ٥٩٩ و Dussaud ص ٢٩٣ و Le Str. ص ٣٨٢

الفسولية : هي جنوب شرقي سكاء

القصرين : قال دوسو ص ٣٠٩ : هي قرب بحيرة الهيجانة بجانبها تل المسطبة ذو الآثار القديمة

قرحتا : شمال غرب الغزلانية ذكرها ياقوت و Le Str. ص ٤٧٩ Sauvaire 1894,II,237 ؛ Porter ٣٩٣/١

القاسمية : جنوب الجرباء وربما اعتبرت من قرى المرج وبها مسجد لطيف وقال دوسو ص ٣٠٩ : هي شرقي تل الصالحية

كفر بطنا : قال دوسو ص ٣٠٤ : هي من اقليم داعية شرقي حمورية انظر ياقوت ٤ ص ٢٨٦ و Le Str. ص ٤٦٩

مسرابا : ذكرها ياقوت وقال ان ابن عساكر ذكرها في تاريخه ونسب اليها احمد بن ضياء المسرابي وبها جامع حسن -

مديرا : لم يذكرها ياقوت وانما ذكرت في السالنامة وهي شرقي دوما وقال دوسو ص ٣٠٥ : ينبغي أن يفرق بينها وبين معديرا

المرج : قال دوسو ص ٣٠٦ : هي المراعي التي تحيط بالغوطة وأشهرها مرج عذراوجنوبيه مرج راهط وقد أطال في كلامه عنها ص ٣٠٦ و ٣٠٧

النشابية : هي شرقي تل الصالحية وبها مسجد لطيف

نولا : هي جنوب حرستا القنطرة (يقال لها اليوم نولة)

النحاسية : 〃 〃 〃 〃

(ب)

الأيرشية : يقول Dussaud ص ٢٩٣ : ينبغي البحث عنها حول دمشق أو لعلها خارج الغوطة انظر ياقوت ١١/٥ و Le Str. ص ٣٨٢ .[1]

أرض عاتكة : هي عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، كانت قرية خارج باب الجابية ولعاتكة قصر فيها انظر Dussaud ص ٢٩٤

أرض الأوزاع : دخلت في دمشق من جهة باب الفراديس انظر Dussaud ص ٢٩٤

بيت سابا : قال ياقوت : من اقليم بيت الآبار عند جرمانس وكان ليزيد ابن معاوية بها قصر انظر Dussaud ص ٢٩٥

بيت الآبار : جمع بئر قال ياقوت : من غوطة دمشق كورة فيها عدة قرى خرج منها غير واحد من أهل العلم وقال دوسو ص ٢٩٤ محلها مجهول

بيت قوفا : قال ياقوت : من قرى الغوطة نسب اليها بعضهم قوفانيّاً ذكرها دوسو ص ٢٩٥ ولم يعرف موضعها

بجّ حوران : ذكرها ياقوت ٤٩٦/١ وقال دوسو ص ٢٩٤ : انها مجهولة عندي وينبغي ان تكون في اقليم باناس عند باب دمشق (؟)

قلبين : قال ياقوت : موضع في غوطة دمشق قال احمد بن منير :
فالقصر فالمرج فالميدان فالشرف الأعـــلى فسطرا فجرمانا فقلبين[2]

تلفياثا : قال ياقوت من قرى الغوطة ورد ذكرها في حديث ابي العميطير انظر دوسو ص ٣١٢

جامع : ذكرها ياقوت ولم يعين موضعها ويقول دوسو ص ٢٩٩ هي من قرى المرج وانظر Le Str. ص ٤٦١

حرلان : يقول دوسو ص ٣٠٢ : ذكرها ياقوت وقال انها من الغوطة وفيها

(١) وهي داخلة اليوم في أرض حوش الريحان من قري المرج (المجمع العلمي العربي)

(٢) يذكر ياقوت قرية في الغوطة باسم (تلين) [بالتاء] ولا شك في انه اختلط عليه الأمر فذكرها في الموضعين .

مات چان اسقف زيزا (؟) والأستاذ Honigmann يعتقد انها مأخوذة من الكلمة اليونانية [ApΛvn'] وقد ترددت هذه الكلمة مرات في كتاب ياقوت وصححها الناشر بكلمة [خولان] وقد أطال دوسو في الكلام عنها وعن تاريخها وتحريف اسمها فارجع اليه اذا شئت [1]

حَلْفَيلَتَا : ذكرها ياقوت ولم يعين الموضع وقال ان فيها قبر كناز الصحابي وانظر دوسو ص ٣٠١ و . Le Str ص ٤٤٧

حميريين : ذكرها ياقوت وقال انها قرية متهدمة وانها على طريق كفرسوسية وقال دوسو ص ٣٠٢ وربما كانت في ضواحي دمشق

حوش الصالحية : ذكرها دوسو وقال لعلها هي تل الصالحية انظره ص ٣٠٢

« المأمونية : « « ولم يعين موضعها « «

« الخياط : « « « « « « «

« خميسيني : « « « « « « ص ٣٠٥ وذكرها

1894,II,260 Sauvaire

دير أبان : ذكره ياقوت وقال نقلاً عن ابن عساكر : انه ابان بن عثمان بن حرب وانه كان يسكن عند قرحتا وذكره دوسو ص ٢٩٧ ولم يعين موضعه و .Le Str ص ٤٢٧

دير بشر : ذكره ياقوت وهو غربي حجيرا وذكره دوسو ص ٢٩٧ و .Le Str ص ٤٢٨

دير يُوَنّا : « « وقال هو بجانب الغوطة في انزه مكان وهو اقدم ابنية النصارى يقال انه على عهد المسيح او بعده بقليل وهو صغير ورهبانه قليلون ذكره دوسو ص ٢٩٧ و .Le Str ص ٤٢٨

دير حنينة : وقال هو قرب دمشق ولم يعين موضع وكذلك دوسو ص ٢٩٧ و .Le Str ص ٤٢٩

---

(١) ولعلها حردان فان نهر حردان فوق سقبا (المجمع) .

دير قَطْرُس ودير بُوْلَس : ذكرهما ياقوت وقال: قال ابو الفرج هذان الديران بظاهر دمشق بنواحي بني حنيفة من ناحية للغوطة وانظر دوسو ص ٢٩٧

دير قيس : قال ياقوت : هو بالغوطة من مساكن خولان وقد بحث دوسو ص ٢٩٨ في كلمة (خولان) بحثاً مطولاً فارجع اليه .

دير صليبا : انظر دير خالد الآتي .

دير محمد : قال ياقوت: من نواحي دمشق . وقال ابن عساكر : هو محمد بن الوليد الأموي واليه تنسب المحمديات [انظر هذه الكلمة] التي فوق الارزة ، ودير محمد الذي عند المنيحة من اقليم بيت الآبار . وانظر دوسو ص ٢٩٨

دير مران : قال ياقوت: بالقرب من باب الفراديس مشرف على مزارع الزعفران ورياض حسنة انظر دوسو ص ٢٩٨

دير خالد : قال ياقوت: وكان يسمى قبل نزول خالد بن الوليد بدير صليبا . أقول: وموضع هذا الدير خارج بابي توما والشرقي ولا يزال أثر هذا الدير في مسجد يسمى بمسجد خالد أو الخالديات أمام ضريح الشيخ رسلان . انظر كتابنا ثمار المقاصد وانظر كتاب دوسو ص ٢٩٧ و Le Str. ص ٣٤٠

دير هند : قال ياقوت : من قرى غوطة دمشق من اقليم بيت الآبار . انظر دوسو ص ٢٩٧ و Le Srt. ص ٤٣٩

دير زكا : ذكره دوسو نقلاً عن ياقوت في ص ٢٩٨ ولم يعين موضعه . اقول ولعله محرف عن (دير سكا) انظر هذه الكلمة .

رحبة خالد : قال ياقوت : قرية من قراها بينها وبين دمشق ميل خربت . وقال دوسو: ولعلها رحبة خالد المعروفة بدمشق . انظر كتابنا ثمار المقاصد

السفليون : ذكرها ياقوت ولم يعين موضعها وذكرها دوسو ص ٣١٢ و Le Str. ص ٥٣٧

سنام : (بالسين) ذكرها ياقوت وقال هي بالغوطة قرب دمشق وان الحافظ ابا القاسم بن عساكر كان يسكنها وانظر ما قال دوسو عنها ص ٣١١ و Le Str. ص ٥٣٠

ساقي : ذكرها ياقوت ٣/١٠٥ و .Le Str ص ٥٢٨ ودوسو ص ٣١٢
ولم يعينوا موضعها

السطيح : ذكرها ياقوت ٣/ ٩٠ وقال : هي في الغوطة شمال باب توما في منطقة بيت لهيا ، وهناك قرية أخرى بهذا الاسم بين الكسوة وغباغب ذكرها دوسو ص ٣١٣ و .Le Str ص ٥٢٨

سطرا : ذكرها ياقوت ٣/٩٠ و .Le Str ص ٥٢٨ ودوسو ص ٣١٢ حيث يقول انها في منطقة سطيح من بيت لهيا وقد خربت · انظر Sauvaire 1894 , II , 216 وانظر أيضاً (مقرا)

صبيبة : ذكرها دوسو ص ٣١٢ وقال : انها تسمى أيضاً قرية تميم ·

طرميس : ذكرها ياقوت ولم يعين موضعها · انظر ما قال دوسو عنها وعن اسمها ص ٣١٢

طيرا : ذكرها 〃 〃 〃

الفضلية : ذكرها دوسو ص ٣٠١ · وفي السالنامة لها ذكر انظر Sauvaire II , 238 · ويقول دوسو : لعلها القرية التي يذكرها Sauvaire عند الميدان باسم الفصيلة (١) ·

فذايا : قال ياقوت : هدمت منذ زمن طويل ، وقال دوسو ص ٣٠١ كانت فوق مقبرة اليهود انظر .Le Str ص ٤٣٨ و II 212 Sauvaire ·

الفندق : قال ياقوت : هي من قرى الغوطة وقال دوسو ص ٣٠١ لم اهتد الى محلها وانظر .Le Str ص ٤٣٩

قرية تميم : وهي الطيبة ذكرها دوسو ص ٣١٢ ولم يعين موضعها ·

قرية الحميرا : ذكرها صاحب مراصد الاطلاع ٢/٤٠٤ وقال دوسو ص ٣٠٩ لم أهتد الى محلها وانظر .Le Str ص ٤٨١

قصر بني عمر : ذكرها ياقوت ٤/ ١١٠ و .Le Str ص ٤٨٢ وقال دوسو ص ٣٠٩ لم أهتد اليه ·

(١) ولعلها الفضالية قرب حوش التبن [المجمع العلمي العربي] ·

قصر اللباد: ذكره Sauvaire 402 I 1894 وقال دوسو ص ٣٠٩ : قال بعضهم هو دير وقال آخرون هو قرية خربة شرقي مقرا

الماطرون: قال ياقوت : من قرى دمشق ولم يعين موضعها وقال دوسو ص ٣٠٦ هو حول دمشق • انظر .Le Str ص ٥٠٨

المصيصة : قال ياقوت : من قرى غوطة دمشق كانت شرقي بيت لهيا ذكرها دوسو ص ٣٠٦ و .Le Str ص ٥٠٨

المسعودية : يقول دوسو ص ٣٠٦ : هي في المرج ورد ذكرها في بعض الكتابات الحجرية فقط •

ميدعا : غربي البحيرة ذكرها دوسو ص ٣٠٦ وقال ان ياقوت قال انها في منطقة خولان •

الميطور : قال ياقوت : من قرى دمشق قال عرقلة الدمشقي :

وكم ليلة بالماطرون قطعتها ويوم الى الميطور وهو مطير

النمرانية : قال ياقوت هي منسوبة الى نمران بن زيد وقد أقطعها اياه معاوية

م . أسعد طلس
القنصل الأول في المفوضية السورية بطهران



تصويبات لأخطاء وقعت في القسم الأول :

١ : صفحة (١٤٩) سطر : ٢٢ (حرستا القنطرة)
٢ : « (١٥٥) « ٦ (المغل)

موجز الاقتصاد السياسي

تأليف الدكتور احمد السمان

أستاذ الاقتصاد السياسي في معهد الحقوق العربي بدمشق

صفحات هذا الكتاب ثلاث مئة واربع صفحات من القطع المتوسط

وطأ الدكتور السمان لكتابه بمقدمة بحث فيها عن علم الاقتصاد : اصله ، وتعريفه ، وتصنيفه . فكان من جملة ما قال فيه : « انه علم جديد ، وضعه المؤلفون في فجر النهضة الحديثة ، وليس هذا يعني ان أبحاثه لم تطرق من قبل ، فقد عرفت المدنيات القديمة حياة اقتصادية باهرة ، وأبحاثاً اقتصادية هامة . وقد ترك لنا ارسطو واورسم أبحاثاً بارعة في النقد . ثم ان التراث السلمي العربي طافح بالكثير من الأبحاث الاقتصادية الصرفة ، ولا سيما مقدمة ابن خلدون ، ومؤلفات المقريزي ، وابن الهيثم ، ويمتاز ابن خلدون بوضعه نواميس ونظريات عامة للشؤون الاقتصادية لم تفقد الى اليوم روعتها وجلالها ... ولكننا إذ نقول : ان الاقتصاد علم جديد ، نذهب الى انه أصبح علماً مستقلاً ذا طرائق وأساليب ونظريات خاصة ، منذ القرن السابع عشر ، اي منذ الانقلاب التجاري الذي عم العالم ، بعد اكتشاف العالم الجديد » . وأشار المؤلف في مقدمته هذه الى المراحل التي مرت على الاقتصاد من : قيد أو اطلاق .

وانتهى من مقدمته هذه الى البحث في بيئة الحياة الاقتصادية ، من حيث اختلاف عناصرها : الطبيعية ، والحقوقية ، والفنية ، والبشرية . وعرض لتقسيم العمل وتطوره وأشكاله ؛ وللتنظيم العملي للعمل ، ولاستخدام الآلات ونتائجه ؛ وللنطاق البشري ؛ وللهجرة اوأسبابها ونتائجها ؛ وللاكراه الاقتصادي ، وما يتفرع عنه من نظام

الطبقات ، ونظام الأصناف ، ونظام الحرية الاقتصادية ومستلزماتها ، والملكية الخاصة او وسائل الانتاج . وهو القسم الأول من الكتاب .

وأما القسم الثاني فقد تناول : النقد وأصوله ، من عهد المقايضة الى عهد النقد المعدني ؛ فالنقد الورقي واصله ، واصداره ، ورقابة الحكومة ، والصك (وهو الشك [1]) وطريقته والتضخم النقدي . وتعرض لاصلاح أنظمة النقد ، وللحلول التي تراها بعض الحكومات . وأشار في أحد فصول هذا القسم الى انفصال الليرة الاسترلينية عن الذهب في سنة ١٩٣١ . وما كان من نتائج ذلك ومن اثره في الحياة الاقتصادية البريطانية ، ثم ما كان من ذلك يوم انفصل الدولار عن الذهب في سنة ١٩٣٣ . وختم أبحاثه بالأسعار وقانون العرض والطلب ، والعلاقة بينهما وبين الأسعار . وقرب هذه الأبحاث الى الأذهان بجداول رقمية ، وعزز كثيراً من أقواله بأقوال مشهوري علماء الاقتصاد وآرائهم وأنظارهم .

عارف النكدي

---

(١) قلنا : الشك [chèque] كلمة فرنسية ، قالت معاجم هذه اللغة : انها منقولة عن الانكليزية ، وقالت هذه : انها منقولة عن الفرنسية القديمة أو العربية أو الفارسية . وفي الحق أن اللفظة قديمة في العربية وهي منقولة اليها عن الفارسية . وفي لسان العرب : والصك : الكتاب ، فارسي معرب وجمعه : أصُك ، وصكوك وصكاك . قال أبو منصور : والصك الذي يكتب للعُهدة ، معرب ، أصله [چك] ويجمع صكاكاً وصكوكاً . وكانت الأرزاق تسمى صكاكاً لأنها كانت تخرج مكتوبة . ومنه الحديث في النهي عن شراء الصكاك والقطوط . وفي حديث أبي هريرة ؛ قال لمروان : أحللت بيع الصكاك ؟ وهي جمع صك وهو الكتاب ، وذلك ان الأمراء كانوا يكتبون للناس بأرزاقهم واعطياتهم كتباً فيبيعون ما فيها قبل أن يقبضوها معجلاً ويعطون المشتري الصك ليمضي ويقبضه ، فنهوا عن ذلك لأنه بيع ما لم يقبض) فاستعمال الصك (للشك) هو رجع الشيء الى أصله ، واستعمال في محله .

الوقائع والنظريات الاقتصادية في العصر الحديث

تأليف الدكتور احمد السمان

وهذا كتاب آخر للدكتور السمان ، يقع في ثلاث مئة وست وعشرين صفحة من القطع المتوسط ، بسط فيه المؤلف الوقائع والأنظار الاقتصادية في العصر الحديث . والأستاذ راض عن كتابه هذا ، وهو يعده خير كتاب وضعه . والكتاب أقسام ثلاثة ، تنطوي على أبواب ثم فصول .

فالقسم الأول ، من أبحاثه : الحياة الاقتصادية في القرون الوسطى ، صدر كلامه فيها بكلمة ممتعة منها : « ويكاد المؤرخون يجمعون على ان أظلم فترة في تاريخ أوربة تقع في صدور القرون الوسطى (القرن الخامس حتى الحادي عشر) فقد ساد اوربة ليل طويل لا يشع فيه فكر ، ولا يلمع فيه قبس من حياة . وقضت الغزوات الجرمانية على الحضارة الرومانية ، واعقب السلطان السياسي الموحد الوف من الاستقلالات المحلية الاقطاعية . . »

وبعد ان يلقي المؤلف نظرة عاجلة على الوضع الاقطاعي الداخلي في اوربة ، يخلص منه الى الناحية الخارجية فيقول : « اما من الوجهة الخارجية فمع القرون الوسطى تبدأ سيادة العرب البحرية في المتوسط ، اذ تطلع المسلمون لتكوين قوة بحرية تنزع السيادة من بيزنطية وتعينهم على اخذ نصيبها من تجارة العالم . ففي عهد معاوية الأول احتلوا قبرص (٦٦٠) وظفروا بالأسطول البيزنطي في واقعة ذات السواري التي أتاحت لهم فتح رودس ، وبلغوا حتى اقريطش . ثم سارت الأساطيل من المهدية في افريقية ومن الأندلس تنتزع الجزر والسواحل ، وتشد أزر الجيوش البرية التي تغزو سواحل فرنسة الجنوبية (٧٣٣) . ثم يعيدون الكرة بعد مقتل عبد الرحمن الغافقي فيحتلون شاطئ البروفانس ، ويستمر هجومهم على صقلية طويلاً (٧٢٠ — ٧٥٣) ثم يحتلها الاغالبة ويحتلون الباليار (٧٩٨)

ويحتلون مسينة بمعاونة النابوليين (٨٣١) ثم يغزون ساحل ايتالية ، وينزلون في تارنتة (٨٣٨) ثم في باري بعد تحطيم اسطول البندقية وبيزنطية (٨٤٠) ويصلون في منتصف القرن التاسع الى غزو ايتالية الوسطى ، ويقفون أمام أسوار رومة وكنيسة القديس بطرس (٨٤٦) ويبقون محتفظين بنفوذهم في البحر حتى القرن الحادي عشر ، حين بدأت سفن الصليبيين تحتل جزر البحر المتوسط وشواطئه » .

وينقل قول ابن خلدون في هذه الفتوحات العربية ، ثم ينتهي من هذا التمهيد الى وصف الحالة الاقتصادية فيقول :

« كان الاسلام في هذا العهد يؤلف عالماً لوحده (وكان العراق عين الدنيا) كما يقول الثعالبي . وكان المسلمون بعد ان ركزوا اعلامهم على اقسام العالم الثلاثة . واطمأنوا الى الفتح ، فكروا في المساهمة بخيرات العالم وتجاراته ، ونسوا زهدهم الماضي ، وأقبلوا على الترف والبذخ ، فبدأت النهضة التجارية في العهد العباسي . . »

ويمضي المؤلف في وصف مدن العرب وأسواقهم التجارية في تلك الايام وصفاً تاريخياً علمياً ، لا نجيز لأنفسنا ان نختصر شيئاً منه ، مخافة ان نفكك هذه الحلقات الاقتصادية التي بسطها المؤلف بسطاً متصلاً متسلسلاً ، فنشوه من محاسنها ، ولا المقام يتسع فنأتي بها منقولة بجملتها ، بل حسبنا ان نحيل القارئ الى الكتاب نفسه ، يغترف من مائه العذب ، وحقائقه العلمية .

وينتقل الأستاذ السمان بقرائه من عصر اقتصادي الى عصر ، ومن انقلاب الى انقلاب . يبحث الانقلاب النقدي ، والاستعمار الاقتصادي الأوربي : دولة دولة ، وقرناً بعد قرن . ويعرج على اميركة فيذكر اكتشافها وأثره في الحياة الأوربية ، والتطور الصناعي : مراحله ومظاهره وأسبابه ومسبباته ، وأثر الآلات فيه ، والمواصلات ووسائلها ، والأسباب الاقتصادية وعواملها الأساسية ، والانقلاب الحقوقي ، والحريات : الشخصية والاقتصادية والتجارية ، وحق الملك ، والرأسمالية ، وتفوق بعض الدول وأسبابه ، وتحول الاقتصاد من قومي الى عالمي .

وفي القسم الثاني : شرح الأزمة الاقتصادية الحديثة وعواملها ، وخلل التوازن

والعقبات الكمركية[1] والنقدية والمالية، ويبسط بعض المذاهب الاقتصادية بالماومايها .

وفي القسم الثالث: عالج اصلاح النظام الاقتصادي الحديث في مختلف وجهاته عند كثير من الدول .

فباحث الكتاب كلها قيمة . وهي مما نحتاج اليه في نهضتنا الحاضرة ، اذ النهضة لا تكون صحيحة إلا اذا هي قامت على دعامة ثابتة من الاقتصاد .

والشيء الذي كنا نرجو ان يهتم له الأستاذ ، فيتبسط فيه ، هو وضعنا الاقتصادي الحاضر: علله وأدواؤه ، فيوفي الموضوع الاقتصادي العربي حقه في حاضره ، كما وفاه حقه في غابره . وعسى ان يفعل ذلك في طبعة جديدة .

اننا نشكر للأستاذ فضله وجهده ، ونشاركه رأيه في كتابه بأنه امير كتبه ، بل هو من عيون الكتب التي ألفت في هذا الباب عندنا .

ع . ن



الياذة هوميروس

كتاب من القطع المتوسط ، يقع في قرابة ثلاث مئة صفحة ، وضعه بالانكليزية (الفرد تشرشل) أستاذ اللغة اللاتينية في جامعة لندن ، ونقلته الى العربية السيدة عنبرة سلام الخالدي .

والياذة هوميروس من الشهرة بالمنزلة التي لا تحتاج معها الى وصف ولا تعريف ، فهي على ما جاء في التمهيد التاريخي الذي قدم الكتاب به : اول الشعر القديم وأعظمه ، ولعلها أعظم شعر على الاطلاق ، قديماً كان أو حديثاً .

وقد فصل هذا التمهيد الموفق ، موضوع هذه الملحمة . وهو يدور على الحوادث

(١) استعمل المؤلف [الجمرك] بالجيم متابعة لما جرت عليه الصحافة والدوائر الحكومية عندنا تقليداً أعمى لمصر . والذي نعرفه وكنا عليه الى ما قبل هذه الأيام الأخيرة ، في قوانيننا ، وفي استعمالنا لفظاً وكتابة ، أن نكتب الكمرك بالكاف لا بالجيم . والكلمة فارسية أخذها الترك بلفظها الأصلي أي الكاف الفارسية [گ] وهي تلفظ ما بين الكاف والغين كال [g] الافرنجية ، ومن حق المصريين أن يكتبوها بالجيم ، فتبقى على لفظها الأصلي . ولا وجه لكتابتها عندنا بغير الكاف .

التي وقعت نحو سنة ١٢٠٠ او ١١٠٠ قبل الميلاد . اثناء حرب نشبت حول مدينة اليون . وهي الحرب المشهورة بحرب طروادة .

وذكر كذلك الممالك التي كانت قائمة في ذلك العهد . وما كان فيها من شعوب ، وما كانت لهم من لغات .

وقد وفقت السيدة الخالدية في ترجمتها توفيقاً تشكر عليه . اذ جاءت عبارتها جلية واضحة ، دلت على طول باعها في الترجمة ، كما عرفت من قبل بالأدب والفضل .

ع . ن



كتاب المؤتمر الأول للمحامين العرب

طبعته نقابة المحامين بدمشق

كان من أعمال الأستاذ مظهر القوتلي الرائعة أيام كان نقيب المحامين بدمشق ، ان دعا الى عقد مؤتمر يجمع المحامين العرب ، الغرض منه دراسة عملية قومية لتوحيد الاتجاه في التشريع ، وانسجام الأوضاع الحقوقية في البلاد العربية .

وقد تم الأمر على خير وجه ، فوفق المؤتمر توفيقاً كبيراً في ترتيبه وتنظيمه . وضم النخبة المختارة من المحامين العرب في الشام : سورية ، وشرق الأردن ، وفلسطين ، ولبنان ، وفي مصر والعراق ؛ وألقيت المحاضرات الممتعة في الجلسات الست التي عقدها المؤتمر .

دارت الأبحاث في الجلسة الأولى ، على الصلات القضائية بين البلدان العربية ، وفي الجلسة الثانية على الحقوق التجارية ، وفي الثالثة على الحقوق المدنية ، وفي الرابعة على توحيد المصطلحات الحقوقية ، والخامسة على الوضع المسلكي للمحاماة ، ثم كانت الجلسة الختامية التي انتهت بقرارات المؤتمر الأول للمحامين .

ثم كان بعد ذلك ماذا ؟

كان لاشيء ، فلا القوانين العربية المختلفة درست دراسة تقرب مسافة الخلف بينها ، ولا المصطلحات وحدت ، فأثبتنا مرة أخرى ، ان هذه الشعوب العربية ، أمة تحسن القول ، ولا تحسن العمل .

ع . ن

سلسلة الفكر الحديث (٧)

عصر الخرافة الذي نعيش فيه

الكتاب الأول

تأليف : جستاف شتلبر • تعريب : محمد علي أبودرة ومحمد بكير خليل

راجعه : محمد عبد الواحد خلاّف

جاء في مقدمة التعريب ان الدكتور « جستاف شتلبر » المستشار الاقتصادي في مدينة نيويورك قد تمكن بسبب حياته الحافلة من الالمام التام بالأوضاع الاقتصادية والسياسية في أوربة وأميركة فهو خير من يعالج هذه الموضوعات •

تصدّى المؤلف في كتابه الأول للمذاهب والنظريات السياسية والاقتصادية التي يموج بها العالم وتتصارع الدول من أجلها فيردها الى اصولها ويبين الأدوار التي مرّت بها وهو يحرص الحرص كله على ان يكشف عما تشتمل عليه هذه المذاهب والنظريات من زيغ وخرافة ولكنه يميل الى التهكم والهدم •

لا يؤمن المؤلف بالاشتراكية أو وضع خطط تنظم حياة الفرد وتمكن الدولة من السيطرة عليها وانما يرضى بشيء يسير من تدخل الحكومة لتوفر للفرد قسطاً من السعادة أوفر ، وهو يؤمن أشد الايمان بالحرية الفردية ويدافع عن الرأسمالية الحرّة متصوراً اياها انها النظام القويم والأساس السليم الذي يمكن ان يبنى عليه عالم تشيع فيه السعادة والثقة والطمأنينة والأمن والسلام ، وهو مع هذا كله لم يحجم عن بيان مثالب الرأسمالية وشوائبها ولو سلمت من هذه المثالب والشوائب لكانت نظاماً مثالياً رائعاً •

والكتاب يتضمن ثمانية فصول تصوّر أعظم ماله صلة بحياتنا الاقتصادية والسياسية •

شفيق جبري

سلسلة الفكر الحديث (٨)

عصر الخرافة الذي نعيش فيه

الكتاب الثاني

تأليف: جستاف شتلبر . تعريب: محمد علي أبو درة ومحمد بكير خليل

راجعه محمد عبد الواحد خلاف

يشتمل الكتاب الثاني من عصر الخرافة على سبعة فصول وهي تتمة ما اشتمل عليه الكتاب الأول من المذاهب والنظريات الاقتصادية والسياسية .

تبحث هذه الفصول عن الدول المحدودة والدول المحرومة وعن الأسباب الاقتصادية للحرب وعن الامبراطورية البريطانية وعن التنظيم السوفييتي وعن المعجزة الألمانية وعن الديمقراطية الهزيلة والدكتاتورية القوية والفصل الثالث عنوانه هل تسير انجلترة الى الوراء .

والكتاب الثاني مثل الكتاب الأول في التعرض لبعض الأفكار المسيطرة على العقول وهي بمنزلة الخرافات ، فالمؤلف يقضي على هذه الأوهام ويرد الأمور الى مستقرها ، من ذلك الخرافة الوارد ذكرها في الفصل الأول وهي خرافة الذهب والعمل ، فبعض الدول تتهم بريطانية بالتمسك بعيار الذهب مع انها خرجت عن قاعدة الذهب في حرب ١٩١٤ ورهنت كل ما تملكه من الذهب .

وهكذا شأن المؤلف في الموضوعات التي عالجها فانه يبين الخرافات الاقتصادية والسياسية المسيطرة على العقول في عصرنا هذا ثم يهدي الناس سواء السبيل فيها .



ش . ج

سلسلة الفكر الحديث (٩)

كيف يعمل العقل (الكتاب الأول)

تعريب: الدكتور رياض عسكر

تضافر على وضع هذا الكتاب نخبة صالحة من أكبر علماء النفس البريطانيين ،

وقد تفرغ كل واحد منهم للموضوع الذي اختص به فأصبح الكتاب بهذا العمل عمدة ، كان الكتاب في الأصل محاضرات ألقيت في دار الاذاعة البريطانية ثم جمعت فجاءت خالية من المصطلحات المعقدة والمشاكل العويصة فلا يحتاج فيها القارئ الى عناء الذهن فقد يسهل عليه إدراك كل ما له صلة بالمسائل التي تجول في خاطر الانسان وتمس تفكيره ومشاعره وعواطفه ، أي حالته النفسية بأجمعها .

هذا ما أشار اليه معرب الكتاب الدكتور رياض عسكر في المقدمة ومما يزيد في الثقة بتعريب ان الكتاب قسم قسمين ، عرب الدكتور عسكر قسماً وعرب الأستاذ محمد خلف الله قسماً وراجع كل واحد منهما ما عربه الآخر توخياً للدقة والضبط .

يشتمل الكتاب على عشرة فصول تعاون على كتابتها ثلاثة أساتيذ : الاول أستاذ علم النفس بجامعة لندن والثاني رئيس المجمع الدولي للتحليل النفسي والثالث الرئيس الفخري لعيادة شرق لندن السيكولوجية لإرشاد الأطفال ، عرب الدكتور عسكر الفصول الثمانية وعرب الأستاذ محمد خلف الله الفصلين التاسع والعاشر . وهذه هي موضوعات الفصول : يبحث الكتاب الأول عن الحياة العقلية — شعورية ولا شعورية — عند الكبير ، فيبين الطرق التي تستعمل في دراسة عقول الآخرين وفي دراسة المرء لعقله ويصور الأسس التي يقوم عليها التحليل النفسي وآثار العقل الباطن في الحياة الانسانية ويبحث عن الأحلام وما لها من دلالات ، وعن عقل الطفل وما يزود به منذ نشأته من ميل وقوة وما لبيئة الأسرة من أثر في تكييف سلوكه وعن مخاوف الأطفال ولعبهم وعمل الغريزة والعادة في حياتهم .

هذا الوصف الظاهر للكتاب أما قيمته فلا يمكن تلخيصها في سطور فلا بد للقارئ من قراءة الفصول كلها حتى يعرف عظمة الموضوعات النفسية فيها وبساطة عرضها وتصويرها .

ش . ج

سلسلة الفكر الحديث (٥ أ)

كيف يعمل العقل (الكتاب الثاني)

تعريب محمد خلف الله

انفرد بوضع هذا الكتاب الدكتور « سرل برت » أستاذ علم النفس بجامعة لندن وعرّبه الأستاذ محمد خلف الله والمعرّب قرأ في الأصل على الدكتور « برت » فعرف في أسلوبه دقة العلم ورقة الفن وفي شخصيته حسن المحاضرة وجاذبية الحديث على نحو ماقال .

واذا أراد القارئ ان يعرف طابع الكتابين ، الأول والثاني فليقرأ ما كتبه الدكتور « برت » في المقدمة :

« كان غرضنا الأساسي أن نبين في أمثلة بسيطة وعبارة واضحة كيف نما الاهتمام بفهم طرائق العقل الانساني في سلوكه حتى أصبح دراسة علمية جادّة وأن نعرض الآثار التطبيقية لنتائج هذه الدراسة على معضلات الحياة اليومية ، ان المدنية الحديثة قائمة على العلم واذا كان يراد لها ان تستمر فيجب ان يوجه التفكير العلمي الى دراسة الانسان كما وجه من قبل الى دراسة الطبيعة غير الحية » .

أشار الأستاذ خلف الله الى الموضوعات التي عالجها « برت » في الكتاب الثاني فقد عالج أهم نواحي الحياة الاجتماعية واختار من بين هذه النواحي ميادين الفروق العقلية بين الشعوب والطوائف الاجتماعية والجنسين ، وعالج الأسس العقلية العامة في السياسة والفن والدين ونبه على ان هذه المعضلات لكل انسان من التفكير فيها نصيبه ورأيه ولكن الدراسات العلمية الحديثة قد أخضعت كثيراً من ظواهرها للبحث والتجريب وكانت مهمة واضع الكتاب كما يقول ان يصف في اختصار احدث نتائج هذه الدراسات وأجدرها بالاعتبار وان يبين الاتجاه الذي تتجه اليه المباحث الحاضرة فيها

وما أصدقَ ما تمناه المعرّب في آخر المقدمة اذ قال : ولعلّ نقل أمثال هذه البحوث الى العربيه يحدث أثره المطلوب في توجيه الانتباه في مصر والشرق العربي الى دراسة الانسان دراسة علمية منظمة والى اقامة نواحي الحياة من سياسة واصلاح واجتماع على أسس الفطرة القويمة كما يكشف عنها البحث العلمي الصحيح .

ش . ج

بين العلم والأدب

قدري حافظ طوقان

جمع الأستاذ قدري حافظ طوقان ما نشره من المقالات في طائفة من المجلات وما ألقاه وأذاعه من الأحاديث في بعض دور الاذاعة في كتاب سماه : بين العلم والأدب ، وأمله الوحيد ان يرى المتعلمون والمثقفون في هذا الكتاب عاملاً من العوامل التي تعينهم على تحقيق رسالتهم القومية ، وان يجد فيه النشء ما يحملهم على السير في الحياة على أسس من الخلق المتين والاخلاص للحق والحقيقة .

وسواء أعالج بعض موضوعات الرياضيات والطبيعيات أم عالج بعض الموضوعات الفكرية انه توخى السهولة في كل ما كتبه حتى تكون العلوم قريبة من الأذهان خالية من التعقيد بحيث تدركها العقول دون شيء من العناء .

ولقد وقفت على مقالة : الى المتعلمين والمثقفين فشاهدت ما شاهده المؤلف نفسه فإن أكثر الذين يحملون الشهادات من طبقة الأطباء والمحامين والمهندسين وغيرهم يقولون للكتب العلمية بعد حصولهم على هذه الشهادات : هذا آخر عهد بيننا وبينك ! فكأنهم لا يدرون ان في كل يوم اختراعاً ومذهباً حديثاً وان العلم لا يقف عند حد من الحدود ، فما يكون في الطب ضاراً في هذا اليوم فقد يصبح نافعاً غداً وما يكون في العلم وهماً فقد يصبح حقيقة فالذي لا يتتبع العلم وأطواره ويقتصر على حمل الشهادة فهذا قد انقطعت الصلة بينه وبين سير العلم .

وعلى الجملة فان كتاب الاستاذ حافظ قدري طوقان ينفخ في القراء روح العلم ويحببهم اليه .

ش . ج

نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر

محمد مهدي البصير

يحتوي هذا الكتاب على خمسة وأربعين حديثاً اذاعها صاحبها الأستاذ محمد مهدي البصير من دار الاذاعة العراقية ومن دار الاذاعة في يافا .

تتضمن هذه الأحاديث تراجم ثمانية وعشرين شاعراً عراقياً ، وقد عانى المؤلف ما عاناه في سبيل الحصول عليها لأن تأريخ أصحاب هذه التراجم غامض وأحوالهم غير معروفة على صورة واضحة فمنهم من كانت تراجمهم مطولة حافلة ولكنها متناقضة مضطربة ومنهم من كانت تراجمهم مختصرة ومنهم من ليس له ترجمة فاعتمد المؤلف في دراسة حياتهم على آثارهم قبل كل شيء . وقد نظر في التراجم المطولة المتناقضة والمختصرة المقتضبة فاستخلص منها ما يمكن استخلاصه مما له قيمة تأريخية وعمد الى الأخبار فمحصها حتى يكاد القارئ يستطيع ان يجد في الكتاب على قدر الامكان صورة واضحة لأصحاب التراجم .

أما شعر الشعراء الواردة تراجمهم فيغلب عليه طابع عراقي وأعني بهذا الطابع حسن الديباجة حتى كاد بعض النقاد يفضلون طائفة من الشعراء الذين ترجم لهم المؤلف على المتنبئ والمعري والشريف الرضي وفي هذا شيء من الشطط فان هؤلاء الشعراء ما استضاؤوا إلا بضياء الشريف الرضي وأمثاله ولا غرفوا إلا من بحره .

ش . ج

خيالات

رياض معلوف

أهدى الشاعر خيالاته الى بلاده والى أبيه وأمه .

أما بلاده وهي لبنان فقد وجدت لها أثراً في هذه الخيالات تدل على وصف صادق لها وعلى حب أصدق .

وأما أبوه وأمه فلم أجد لهما صورة في شعره ، وانما وجدت صورة لأخيه المرحوم فوزي المعلوف تنم عن مقدار حزنه عليه وما أحلى هذه اليمين التي حلفها :

فوزي ! وحق ثراك والأخلاق والوجه الصبيح !

وعلى الجملة فإن هذه الخيالات لا تخلو من صور حية تدل على نفس شاعرة وروح رقيقة وذوق لا يشبه هذه الأذواق الحديثة الغريبة .

واذا لم أجد بداً من ذكر نموذج من أبياته فهذه أبيات وقعت عليها عرضاً في خيالاته ولم أجهد في التفتيش عنها ٠

من قصيدة عنوانها : غرِّد يا عصفور !

فأرى شدوك شدوي   وأرى لحنك لحني
ليت قلبي في جناحيك   وفي المنقار سني
غرِّد يا عصفور غني   ثم طِرْ عنك وعني

ش ج

ميسلون

بدر الدين الحامد

أظن ان الشعر العربي لم يؤهل بعدُ للروايات التمثيلية التي أهل لها الشعر الغربي ولذلك فإنا نجد ان الشاعر اذا وضع رواية تمثيلية مثل الرواية التي وضعها الأستاذ بدر الدين الحامد وسماها ميسلون ووصف فيها فجيعة اهل الشام بوطنهم اعترضته عقبات لا يجد سبيلاً الى اقتحامها فيضطر في خلالها الى النزول بالشعر الى حيث لا ينبغي له ان ينزل له ، من هذا الشكل قول الأستاذ بدر الدين الحامد في بعض روايته :

رياق باب دمشق   محطة للقطـــــار

أو قوله :   رياق نقطـة وصل   تفيدنا في الكفاح

أو قوله :   قبولنا أفضل من ردنا   نسعى ويبقى حقنا في الكلام

أو قوله :   في حياتي لم أحمل البندقية ٠

وليست قيمة الشعر بكثرة أبياته ولا عيب الشعر بقلة هذه الأبيات فان ثلاثين بيتاً ينصرف الى نظمها الأستاذ صاحب رواية ميسلون فيفرغ فيها شعوره وعاطفته وروحه أقدر على تنبيه شعور القاريء وعاطفته وروحه من رواية تمثيلية يضطر في أبياتها الى مثل ما اضطر اليه من الشعر الذي ذكرته ٠

ويظهر أن الأستاذ بدر الدين الحامد قد عزم على وضع سلسلة من الروايات الشعرية يصور بها لأبناء اليوم ما لقيه آباؤهم من عنت الزمان وجور الحدثان

فأرجو ان يقوى في هذه السلسلة على ما لم يقو عليه في الحلقة الأولى فان من قرأ له أخيراً قصيدته في رثاء صديق له من المغنين يعترف بأن شعره لا يخلو في أحيان من شعور وعاطفة ٠

ش ٠ ج

أفراح الربيع

ديوان حسن البحيري

أعجبتني كلمة صاحب هذا الديوان في صدر ديوانه وهي : « يا بلادي ! اني أكشف الأستار عن بهائك وجلالك وأصف ما فيك من فتنة وروعة لأشعل في قلوب شبابك الغض نار حبك وأفتح عيون ابنائك الصيد على نور جمالك » ٠

ولكني فتشت في الديوان عن بهاء بلاد الشاعر وجلالها ، وهي فلسطين ، وعن فتنتها وروعتها فلم أهتد الى شيء من ذلك ، لقد تغنى صاحب الديوان بالطبيعة في أكثر قصائده ولكن الطبيعة التي تغنى بها هي طبيعة بلاد كثيرة لا طبيعة فلسطين الخاصة ، وما أظن ان فلسطين شهرت بالبان والاقحوان والكافور والزعفران أكثر من شهرتها بالبرتقال والموز فكنت آمل أن يتغنى الشاعر بحدائق فلسطين الفتانة وهي « البيارات » التي لها لونها الخاص وطبيعتها الخاصة ٠

وهذا نموذج من شعر صاحب الديوان يصف فيه وادي « رشميا » من جبل الكرمل في ضوء القمر :

بوادٍ في ضياء البدر فياض التعاريج
نصبتُ من الأماني الغر للذكرى معاريجي
وفي كوكب ليل صيغ من ذوب الدماليج
مدارجه من الخز وأرياش الحبـاريج
وفي روض من الأحلا م مشبوك العساليج
نعمت بغفوة الذكرى عن النوب المداليج

أظن ان كشف الأستار عن بهاء البلاد وجلالها يحتاج الى نمط من الشعر أقل غرابة من هذا النمط ٠

ش ٠ ج

تطور الري في العراق

تأليف الدكتور احمد سوسة

من منشورات مجلة المعلم الجديد سنة ١٩٤٦ ، وقد جاء في ٢٣٥ صفحة من القطع المتوسط

« المعلم الجديد » مجلة تربوية ثقافية تصدرها وزارة المعارف في بغداد ، كثيراً ما طالعت فيها مقالات نفيسة للفيف من الأساتذة والكتاب المبرزين . وما كنت أدري قبل الاطلاع على هذا الكتاب أنها تنشر للمؤلفين ما هو جدير بالنشر من كتبهم . ولا شك ان عملها هذا يضيف فائدة جديدة الى فوائدها الكثيرة .

وكتاب « تطور الري في العراق » وضع بادئ ذي بدء بالانكليزية . ثم نقله مؤلفه الى العربية . وهو يبحث عن دجلة والفرات من حيث صبيب كل نهر وجريته وسقيه وغيضه وفيضه وروافده وروافده ومرواضعه الخ . وعن تطور الإسقاء في تأريخ العراق ، وأعمال الإسقاء في القرن الحاضر ، وسياسة الإسقاء في أيامنا هذه . وهي في الجملة أبحاث فيها مادة وفيها دراسة تجعل من هذا الكتاب صورة صغيرة جلية مفيدة لشؤون الاسقاء في العراق . ومن بواعث الأسف انه لم يظهر عندنا حتى اليوم كتاب عربي كهذا الكتاب يبحث عن الاسقاء في ديار الشام .

ومن المعلومات التي يجدها المرء في الكتاب ان الزراعة في العراق اتسعت كثيراً في ربع قرن ونيف بفضل أعمال الإسقاء وغيرها . فقد كانوا يقدرون الأرض التي زرعت في سنة ١٩١٣ ، مثلاً بنحو ٣٥٠٠٠٠ هكتار من الزرع المسقوي والعذي أي البعل ، على حين انها تبلغ اليوم نحو ٢٣٠٠٠٠٠ هكتار (منها ١٦٠٠٠٠٠ هكتار من المسقويات و ٦٠٠٠٠٠ هكتار من البخوس أي الأعذاء شمالي العراق) .

ولقد ذكرت في عدد نيسان سنة ١٩٤٦ من مجلتنا هذه شيئاً عن كتاب « وادي الفرات ومشروع سد الهندية » للمؤلف نفسه . وقلت انني لا أوافقه على بعض الاصطلاحات الواردة فيه . وهنا أكرر هذا القول وأذكر فيما يلي عدداً من الاصطلاحات الأخرى غير الصحيحة أو المرجوحة مما صادفته عند تلاوة كتاب « تطور الري في العراق » :

ترجم المؤلف Régime du fleuve بنظام مجرى النهر . وأصلح من ذلك جرية النهر .

والنبات الذي يتم نموه عاجلاً (Précoce) هو البَكُور والمِبْكار والمِعْجال . وهي البكائر والمباكير والمعاجيل . أما الذي يطول زمن نموه (Tardif) فهو المئخار وهي المآخير . ولا حاجة الى اصطلاحات جديدة لهذه المعاني واذا كان أحد النباتات مما يزرع في فصلين مختلفين نُسب اليهما ، فيقال ذرة ربيعية وذرة صيفية وهكذا .

وذكر الخاضير والخضرات بمعنى Légumes والصحيح الخضر والخضروات والبقول . وجمع قناة على أقنية وهو غلط شائع . والصحيح قنوات وقُنِي .

وقال رافد ديالي بالاضافة مشيراً الى ان ديالي من روافد دجلة . والصحيح الرافد ديالي لأنه يمدّ دجلة . وقيل لدجلة والفرات الرافدان لأنهما يمدان شط العرب .

وذكر « نضوج المزروعات » . والصحيح نضجها ، أما النضوج فلم ترد . والنضج للثمار في الأرجح . أما الزرع فيقال له احصد واستحصد وأجزّ الخ . وهو الحصاد والجزاز .

ومما لاحظته في الكتب العلمية الحديثة ان معظم الكتاب يستعملون كلمة ري للدلالة على كلمة Irrigation الفرنسية ترجيحاً على « سَقْي وإسقاء » على حين ان أجدادنا العرب القدماء رجحوا الكلمتين الأخيرتين في كتبهم القديمة فيجب مجاراتهم في ذلك .

وقال : « تراكم الترسبات في الأهوار » والصحيح الراسبات Alluvions . وهي الغِرين والغِرْيَن . ومن الأسماء المقاربة التَقانة والطَلْخ والمَطْخ . وسماه مجمع مصر الطَمْي . قلت والغرين أصلح .

وقال : « خطر التسبُّخ » قلت هو السَبَخ والاسباخ . ولم أجد التسبخ بهذا المعنى . واستعمل الصيهود بمعنى Etiage والصحيح البُرُوض والضَحْل .

وقال « حوض دجلة والفرات » ترجمة لمثل قول الفرنج Bassin du Tigre

et de l'Euphrate ؛ الصحيح سقي دجلة والفرات ، أي ما يسقى منهما من أرض أو زرع وهو المقصود .

وكرر مثل قوله « يبلغ سقوط المطر كذا مليمتراً . ووصلت كمية الأمطار الى كذا من المليمترات » قلت ان مايقاس بالمليمترات في ميازين المطر هو ارتفاع الأمطار أي علوها . فيجب ان يقال : « بلغ ارتفاع المطر كذا مليمتراً » وهكذا .

واستعمل « المنسوب » بمعنى Niveau . قلت السوية والمستوى والسطح كلها أصلح .

والصبيب هو الاصطلاح الذي وضعناه لكلمة Débit . أما كلمة « تصريف » التي استعملها لهذا المعنى فهي غير صالحة .

وقال : « زراعة المحصولات الصيفية » والأرجح « زراعة النباتات الصيفية » اذا أراد التعميم ، و « زراعة الحبوب الصيفية » اذا أراد التخصيص .

وقال « في العراق نحو ١٨٠ نوعاً من التمور » . والمصطلح عليه الضرب أو الصنف (Variété) بدلاً من النوع لأن هذه الكلمة الأخيرة قد قصرت على معنى Espèce في تصنيف المواليد الحديث .

وبعد لا تقدح هذه الهنات وأشباهها مما لم أذكره في قيمة الكتاب العلمية . وأنا لم أتمثل بها إلا لأنني قرأت في أول الكتاب أن للمؤلف معجماً مخطوطاً جاهزاً للطبع سماه « معجم المصطلحات الهندسية » . فاذا كانت مصطلحات هذا المعجم كالتي استعملها المؤلف في كتبه يكون من المفيد أن يتريث في طبعه ، وان يراجع الفاظه بضع سنين خشية أن يسيء الى نفسه والى لغة الضاد . وهذه نصيحة لا أسديها إلا إلى الذين أنا معجب بمؤلفاتهم كصاحب هذا الكتاب النفيس .

مصطفى الشهابي

آراء وأنباء

استقبال عضو عامل جديد

عقد المجمع العلمي العربي جلسة في ١٣ ايار سنة ١٩٤٦ لاستقبال العضو العامل الجديد الدكتور حسني سبح رئيس الجامعة السورية التي فيها كلمة ترجم فيها لسلفه المرحوم الأستاذ اديب التقي ، وأجابه العضو العامل الأستاذ عارف النكدي بكلمة نوه بها بأعمال المجمع وحيا العضو الجديد معرفاً به وبآثاره . وفيما يلي الكلمتان المشار اليهما :

كلمة الدكتور حسني سبح

سادتي الأفاضل

أرى لزاماً علي ان افتتح كلمتي بحمد الله على ما أولاني من نعم ، ثم ان أتبعها شكري حضراتكم على تفضلكم علي وانتخابكم اياي عضواً عاملاً في مجمعكم الموقر وفقني الله لأن أكون عند حسن ظنكم .

وبعد ، فإن من تقاليد المجمع ان يلقي العضو العامل الجديد في جلسة استقباله كلمة يترجم بها لسلفه ويسرد ما قام به من عمل وما أبقاه من أثر ، وسلفي رحمه الله كان ممن تربطني به صلة الصداقة ، ومعرفتي به وان لم تكن قديمة العهد راسخة ، فقد أتيح لي أن رافقته في رحلة مهرجان المعري وقضيت بصحبته الساعات الطوال ، والسفر كما قيل يسفر عن أخلاق الرجال ، فسبرت غور نفسه واطلعت على ما تحلى به رحمه الله من سجايا طيبة وأخلاق رضية ونفس أبية ، في جانب تفكير صحيح وثقافة عالية ، وأدب جم وشعر رقيق ، ناهيك عن وطنية صحيحة وحمية لاهبة .

وقد ولد المرحوم الأستاذ أديب التقي سنة ١٣١١ هـ في دمشق من أبوين صالحين ، وكان ولعاً في صغره بحفظ الجيد من شعر العرب وكلامهم مع آيات

الذكر الحكيم ، وأتم دراسته الثانوية في المدرسة السلطانية في دمشق ، وتخرج في علوم البلاغة والنقد الأدبي بالعلامة الجليل السيد محسن الأمين عضو مجمعكم الموقر ، وما ان اكمل تحصيله حتى اشتعلت نار الحرب العالمية الأولى ، فأخذ ضابطاً احتياطياً وذهب الى جبهة القفقاس ، حتى اذا وضعت الحرب أوزارها عاد الى بلده دمشق ، فاشتغل في التعليم ودأب على تأليف الكتب المدرسية المفيدة ، ولما احتل الفرنسيون دمشق كان مديراً لمدرسة الجحصة ، وكان يذكي في نفوس تلاميذه روح العروبة ويبذر بذور الوطنية الحق ، حتى ان صورة للجنرال غورو كانت معلقة في بهو إدارة المدرسة مزقها الطلاب في يوم ذكرى ميسلون فأثار ذلك حفيظة أولي الأمر عليه ونحي عن العمل ، فعين مديراً للمدرسة العلوية الأهلية في دمشق ، فأحسن إدارتها ونهض بها الى مصاف المدارس الثانوية الراقية .

ولما اندلع لهيب الثورة السورية سنة ١٩٢٥ غادر دمشق الى شرقي الأردن حيث عهد اليه فى تدريس الأدب العربي في مدرسة الصلت الثانوية ، ورجع الى دمشق بعد خمود الثورة ، وانتسب الى معهد الحقوق العربي في الجامعة السورية ونال الإجازة وعين أستاذاً للأدب العربي في تجهيز الإناث ثم محاضراً في الأدب العربي في مدرسة الآداب العليا ، وانتخب سنة ١٩٤٢ عضواً عاملاً في المجمع العلمي العربي ، وبينما كان يعد العدة للذهاب الى القاهرة ليقدم الى جامعتها كتابه الذي وضعه في الشريف الرضي ، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب ، عاجلته المنية في نيسان ١٩٤٥ تغمده الله برحمته .

وقد كان رحمه الله أديباً وشاعراً تقياً ، فصيح اللسان واسع الاطلاع في علوم اللغة والتاريخ ، عذب الحديث محافظاً على المبادئ والأخلاق الاسلامية والقومية الصحيحة ، ابي النفس ينتصر للحق وفياً لأصدقائه فعالاً للخير .

وانكب على الكتابة والتأليف وقرض الشعر ، فأهدى الى المكتبة العربية بعض الكتب القيمة ، أذكر مما طبع منها التاريخ العام وهو في جزئين وسير التاريخ الإسلامي ومناهج التربية والتعليم ، وسير العظماء ، ونهضة اليابان السياسية والاجتماعية ، ومصطفى كمال باشا في الأناضول ، وغرائب العادات ، والمسيح الهندي ..

وساهم مع زملائه الأساتيذ الجندي والقواس والسراج بوضع كتاب الطرف في ستة أجزاء ، ونشر عدة مقالات في المجلات العربية المختلفة .

أما ما لم يطبع من مؤلفاته : فمنها تاريخ العصر الحاضر ، وتاريخ العهد النبوي والخلفاء الراشدين ، والامام علي بن أبي طالب ، وبسمارك بطل الاتحاد الألماني ، والجغرافية الاقتصادية ، وتاريخ الختان ومحسناته ، والجزء الثاني من سير العظماء ، ومائتا مسألة في الحساب النظري والجبر والمثلثات والميكانيك والفيزيك ، ومجموعة مقالاته الاجتماعية والأدبية والتاريخية ، وشعر الخيام وفلسفته ، ورواية الوجيه المتحضر ، ثم مؤلفه في الشريف الرضي ويعد على ما قيل من أفضل ما كتب عنه .

ونظم رحمه الله الشعر حتى اجتمع من شعره ديوان طبعه سنة ١٣٥٠ هـ ، فضلاً عن القصائد العديدة التي نظمها في جملة مناسبات ، وكلها حماسية تذكي لهيب الوطنية وتدعو الى النهوض واليقظة . وبوب ديوانه المذكور تبويباً ينم على ما يخالج نفسه من مشاعر في شتى النواحي . فاستهل «نبضات قلب» بوداع دمشق نظمها عندما غادر دمشق الى استانبول للانضمام الى الجيش في الحرب العالمية الأولى ومطلعها :

شذاك ام المسك الفتيت يضوعُ   له بيننا انى نحل سطوعُ

ومن شعره الرقيق في « سانحة وجد » :

لئن بعدت منازلكم فقلبي   لكم من دونها كنف ودارُ
وان ضن السحاب فدمع عيني   لكم من دون عارضه قطار
عتبت على الزمان وليت شعري   أيرجى منك يا دهر اعتذار
هي الأقدار تمضي في البرايا   فليس يقيك من قدر حذار

وقال رحمه الله :

يجري بنا الدهر الى غايةٍ   سيان داني الخطو او شاسعه
ان لم يزن حسن الفتى خلقه   فما جمال خلقه نافعه
والمسك ما نم عليه الشذا   لا ما غلا في مدحه بائعه

وقال في « زفرة » :

الزيت اوشك ان يجف وينطفي نور السراج

انى سأمضي غير معـــروف الدخيلة والعلاج
واظل في هذا الورى أحجية بين الأحاجي

وابدع في وصف شيخ تصابى وضل وفجر اذ قال :

جاز الشباب الى شيخوخة ورثت عن الشباب بقايا الاثم والعار
ما زال منذ الصبا باللهو منغمساً لم ينهه الشيب في وعظ وأذكار
في حالتيه تراه غير مكترث بغير كأس وطنبور ومزمار
تراه طوراً لدى ماخور مومسة وتارة هو في حانوت خمار

الى ان قال :

يا ويحه كثرت آثامه فمتى تنأى به الدار أو ينأى عن الدار

ورثى صديقه المرحوم احمد شاكر الكرمي برثية طويلة قال فيها :

يردى بكى وبكت ضفافه قل للحمام فما هتافه
الموج عبر عن أساه وصوته هذا التهافه
والآس في روضاته مستعبر وكذا خلافه

الى ان قال :

أمهدداً بالموت ان الموت امر لا نخافه
درجت عليه كهولنا والنشء تيمه ارتشافه
لا نرتضي عيش الهوان فان أنفسنا تعافه
عيش يعز قويه وتئن رازحة ضعافه
العدل أظلم أفقه والظلم لا يخشى اقترافه
والأرض مجزرة القوي ضعافه فيها خرافه
والشمل منصدع فهل يرجى مع الخلف ائتلافه

رحمه الله رحمة واسعة وأمد الله في أعماركم زملائي الأكارم وادامكم للعلم والفضيلة وللعرب والعربية ذخراً والسلام .

حسني سبح

كلمة الأستاذ عارف النكدي

سادتي : رئيس المجمع العلمي العربي واعضاءه الكرام .

جرى العرف في المجامع العلمية ، ان يقدم العضوَ الجديد ، عضوٌ قديم ، وأقر مجمعنا هذا العرف ، ثم ندبني لأقدم اليه زميلنا الجديد الحكيم حسني سبح : رئيس الجامعة السورية .

والتقديم — سواء أكان سنة تردد ، أو تعارف يجدد ، او معرفة تؤكد ، — من حقه ان يكون متبادلاً ، لذلك رأيت ان ابدأ فأقدم هذا المجمع الى الزميل الجديد ، قبل ان اقدمه هو اليه .

ولست في تقديمي هذا ، بمتعرض للمجمع من ناحيتيه : العلمية والتاريخية : تأسيسه وسيرته ، وابحاثه واحداثه ، وتطوراته ومحاضراته ، فهذا شيء من حقوق الرئاسة ، والأستاذ الرئيس يقوم به ، وعلى أحسن وجه ، ولا سيما في تقريراته الدورية ، وبياناته السنوية لكنني متناول هذا المجمع من ناحيته : العملية والاجتماعية :

ليس يعرف لهذا المجمع قيمته ، إلا الذين عاشوا في نأناة الحكومة العربية ، التي أنشأها رجل العرب فيصل بن الحسين ، او من يعود الى اوراقها ومعاملاتها ، ينقب فيها ليطلع على مضامينها . في ذلك الحين كان لتلك الحكومة العربية الناشئة ، لغة عربية ، وليس لها من العربية الا حروف مغلوطة مقلوبة : في رسمها وفي لفظها ، وإلا كلمات محرفة مصحفة : عن وضعها وعن استعمالها . اما الأساليب والتراكيب فمعجمة في عجمة ، قل ان يفهم منها مقصود ، او يستخلص معنى .

في تلك الفترة الدقيقة من حياة اللغة العربية ، بل من حياة الأمة العربية ، وبعيد تلك الفترة — يوم حاولت اللغة الفرنسية وأساليبها ان تزحزح اللغة العربية عن مقامها في الدوائر الحكومية — وقف هذا المجمع يعرب الكلمات ، ويضع المفردات ، ويصحح الألفاظ والعبارات ، ويقوم الأساليب واللهجات ، صيانة لهذه اللغة ومحافظة عليها . وهو العمل الذي ما يزال عليه الى يومنا هذا ، دائباً موفقاً . . . . . . لانها إذا كانت هذه اللغة قد اقيلت في هذه البقعة العربية من عثارها ، فاصطلحت

اللغة : في الدواوين ، وفي الصحافة ، وفي الدراسة ؛ وهذبت مما كان يشوبها من عجمة ولكنة ؛ فجانب كبير من هذا الفضل ، يعود الى هذا المجمع .

واللغة اذا سلمت ، فقد سلمت الأمة . فالأمة لغتها ، وقديماً قال عليه الصلاة والسلام : ليست العربية لأحدكم بأب ولا أم ، وانما هو اللسان . من تكلم العربية فهو عربي .

هذه واحدة ، من حيث خدمة المجمع العربي للشعب الشامي ، بل للأمة العربية ، من الناحية اللغوية والقومية ، ولو لم يكن له غيرها لكان قد قام بما أسس من أجله ، وحسبه هذا .

الا ان لهذا المجمع موقفاً آخر من حيث الكرامة القومية ، والروح الوطنية ، لا ينبغي ان يغفل أمره .

فالمجمع العربي هو الدائرة الفرد — من بين سائر دوائر الحكومة — التي وقف منها الأجنبي موقف الحرمة والمساواة . فما سيطر عليها ولا استطال ، ولا عبث بها ولا أفسد ؛ في هذا الموطن وحده وقفت لغة القوة ، من لغة العلم ، موقف الند للند ، ومدت السلطة يدها الى المجمع ، مدة المجاملة لا المجالدة .

هذه هي صورة مجملة لهذا المجمع العلمي ، ما نرسمها تعريفاً له ، بل تنويهاً به .

ومما يحمد لهذا المجمع انه كان في جميع ادواره ، حريصاً على ان يضم اليه النخبة الصالحة من رجال الأدب والعلم والفضل ، في كل باب من أبواب العرفان ، التي يحتاج اليه هذا المعهد في تكوينه وتقويته وتعزيزه .

من أجل ذلك كان طبيعياً ان يختار مجمعنا لعضويته الأستاذ سبح ، لصفتيه : العامة والخاصة .

فالأستاذ الحكيم ، رئيس الجامعة السورية ، وخليق بصاحب هذا المنصب العلمي الخطير ، وهو يشرف منه على تثقيف أبناء الأجيال القادمة في دراساتهم العليا ، ان يكون في جملة اعضاء المجمع العلمي ؛ ولا سيما متى اجتمع فيه من مزايا العلم ، وخدمته ، والعمل في التعليم والتأليف ، ما اجتمع في زميلنا الكريم .

فهو بعد ان أتم دراسة الطب في معهد دمشق سنة ١٩١٩ ، عين مساعداً لمخابر

المعهد الطبي فيها ، ثم محاضراً ، ثم وكيل أستاذ ، ثم أستاذاً لكثير من فروع العلوم الطبية . ثم رئيساً لمعهد الطب ، فرئيساً للجامعة .

أما مؤلفاته فهي : موجز مبادئ علم الأمراض ، طبع سنة ١٩٣٣ ! وأعيد طبعه مرتين سنة ١٩٣٨ وسنة ١٩٤٢ . ومبحث الاعراض والتشخيص طبع سنة ١٩٣٣ وأعيد طبعه مرتين أيضاً سنة ١٩٤٢ وسنة ١٩٤٥ . وعلم الأمراض الباطنة في سبعة اجزاء صدر منها حتى الآن خمسة أجزاء ، والجزء السادس تحت الطبع . وموضوعات الأجزاء كما يلي :

الجزء الأول امراض الجملة العصبية طبع سنة ١٩٣٥ .

الجزء الثاني الأمراض الأنتانية والطفلية طبع سنة ١٩٣٦ .

الجزء الثالث أمراض جهاز التنفس طبع سنة ١٩٣٧ .

الجزء الرابع أمراض جهاز الهضم طبع سنة ١٩٤٠ .

الجزء الخامس امراض جهاز الدوران طبع سنة ١٩٤٤ .

الجزء السادس امراض جهاز البول وامراض الدم وهو تحت الطبع .

وألف كتاباً أسماه فلسفة الطب طبع سنة ١٩٣٩ واعيد طبعه سنة ١٩٤٥ .

وهو يطبع الآن موجزاً للأمراض الباطنة يقع في جزئين .

وله معجم في الألفاظ والمصطلحات الفنية يقع في ثلاث كراسات ، احداها في أمراض الجملة العصبية . والثانية — في الأمراض الأنتانية والطفلية . والثالثة — في أمراض جهاز التنفس .

وقد بوّب هذه الألفاظ والمصطلحات ، ورتبها على الحروف الهجائية ، باللغتين العربية والفرنسية ، ثم بالفرنسية والعربية ، مما يسهل على الطالبين الرجوع اليها والاستفادة منها . وهذه الألفاظ منها ما نقله المؤلف عن غيره ، ومنها ما اهتدى اليه باجتهاده ، ومنها ما وضعه من ذات نفسه . وعمله هذا خدمة جلى للغة ، ولعلم الطب ، بل للعلوم عامة .

وتآليف الأستاذ ظاهر فيها دقة الوضع ، ووضوح المعنى ، غالب عليها صحة الأسلوب ودقة التعبير ، ولا سيما في الكتب التي جدد طبعها .

وزميلنا الفاضل مشهور في فنه خاصة بتشخيص المرض، وبإخلاصه للفن اخلاصاً يسمو به عن روح المتاجرة، وبالصراحة التي تبعده عما يقع فيه كثيرون من الرغبة في التبجح ومن الميل الى الظهور. فأخلاقه اخلاق العلماء، وتواضعه تواضع من يعرف قدر نفسه وقيمتها، فلا يبالي بمظهر كاذب، ولا دعوى فارغة.

ذلك هو المجمع، وهذا هو عضوه الجديد. واذا كان الأستاذ سبح قد خدم العلم من قبل من ناحية، فسيخدمه في المجمع بعد اليوم من ناحيتين. والأمل كبير في ان يكون الزميل بما هو معروف عنه من جد ودأب ونشاط — المثل الأعلى في المؤازرة والمعاونة في كل ما يعود على المجمع والعلم بالخير والفائدة.

أهلاً وسهلاً بالزميل الجديد، ورحم الله الزميل الفقيد.

مصاب بالكاتب الأديب، وعزاء بالعالم الأريب.

عارف النكدي

مدينة سراي

جاء ذكر سراي في الجزء الثالث والرابع المزدوج من المجلد الحادي والعشرين (ص ٢٣٥) وقيل عنها هناك: «لعلها التي تسمى اليوم استرخان». فلإزالة هذا الاشتباه أقول ان سراي ليست استرخان، وان كانتا كلتاهما على نهر إتل (بكسر الألف والتاء)، وهو المسمى اليوم فولغا أطول نهر في اوربا. فان استرخان (تحريف اسمها القديم الحاج ترخان) هي عند مصب هذا النهر. وأما سراي فقرب اواسطه بعيدة عن استرخان الى الشمال.

أسس بلدة سراي باتوخان ملك التتار ابن جوجي (ويقال دوشي) خان ابن جنكيز خان الشهير على الجانب الشرقي من نهر إتل بساحل شعبة منه يقال لها آق توبه أي التل الأبيض في حدود سنة ٦٤٠ هـ. وجعلها كرسي مملكته المعروفة عندهم بـ(الوس جوجي) اي حصة جوجي، حصته التي أعطاه اياها ابوه جنكيز عندما قسم الممالك التي استولى عليها بين أولاده الاربعة، وتعرف أيضاً بمملكة الدشت، دشت قبچاق، وبالتوني اوردو، وسماها المؤرخ أجدادنا بمملكة سيرا...

لأن بركة خان اخا باتوخان اشتهر بكونه أول من أسلم من آل جنكيز على الاطلاق ونشر الاسلام في تلك الأصقاع وجرت له مناسبات سياسية مع ملوك مصر عداوة لهلاكو ابن عمه . وكان اسلامه على يد صاحب طريقة يدعى سيف الدين الباخرزي . وكان بركة خان هو الذي أتم بناء سراي كما جاء في كتاب (تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقايع قزان وبلغار وملوك التتار) تأليف م . م - الرمزي (ج ١ ، ص ٣٧٩) .

زار ابن بطوطة مدينة سراي في زمن السلطان اوزبك وسماها (سرا) بحذف الياء . قال بعد عودته من القسطنطينية : « ... ثم وصلت الى مدينة الحاج ترخان حيث فارقنا السلطان اوزبك فوجدناه قد رحل واستقر بحضرة ملكه فسافرنا على نهر إتل وما يليه من المياه ثلاثاً وهي جامدة . وكنا اذا احتجنا الماء قطعنا قطعاً من الجليد وجعلناه في القدر حتى يصير ماء فنشرب منه ونطبخ به . ووصلنا الى مدينة السرا (وضبط اسمها بسين مهملة وراء مفتوحة والف) وتعرف بسرا بركة وهي حضرة السلطان اوزبك ودخلنا على السلطان ... ومدينة السرا من احسن المدن متناهية الكبر في بسيط من الأرض تغص بأهلها كثرة ، حسنة الأسواق ، متسعة الشوارع . وركبنا يوماً مع بعض كبرائها وغرضنا التطوف عليها ومعرفة مقدارها ، وكان منزلنا في طرف منها فركبنا منه غدوة فما وصلنا لآخرها الا بعد الزوال . فصلينا الظهر وأكلنا طعاماً فما وصلنا الى المنزل إلا عند المغرب . ومشينا يوماً في عرضها ذاهبين وراجعين في نصف يوم . وذلك في عمارة متصلة الدور لا خراب فيها ولا بساتين . وفيها ثلاثة عشر مسجداً لإقامة الجمعة ... وفيها طوائف من الناس منهم المغل وهم أهل البلاد والسلاطين وبعضهم مسلمون ، ومنهم الاص وهم مسلمون ومنهم القفجق والجركس والروس والروم وهم نصارى ... وكل طائفة تسكن محلة على حدة فيها اسواقها . والتجار والغرباء من أهل العراقين ومصر والشام وغيرها ساكنون بمحلة عليها سور احتياطاً على أموال التجار ... » .

( ) حارب تيمورلنك توقتامش خان ملك التتار ، وفي حربه الأخيرة معه غلبت توقتامش وهرب ، فقام تيمور من خرب سراي سنة ٧٩٨ (تلفيق الأخبار ،

ج ١ ، ص ٦٢٤) — ثم انها عمرت تدريجاً بعد انصراف تيمور . وبعد مضي اكثر من عصر استولى عليها مكلي كراي حاكم القرم واخربها نهائياً ، وقيل في تاريخ خرابها : (ايا ويح سراي هده ودمره مكلي كراي) (سنة ٩٠٧) (تلفيق ، ج ١ ، ص ٧٠٩ و ٧١٢) . واستمر خرابها الى ان بنى الألمان النازحون ، منذ القرن الثامن عشر الميلادي ، الى تلك الأطراف في أيام يكاترينا الثانية على انقاضها قرية سميت (سريفكه) تحريف سراي . ثم صارت بعد ذلك قصبة وفيها محلة من المسلمين لهم فيها مسجد ومكتب (تلفيق ، ص ٧١٣) .

(الموصل)  الدكتور داود الجلبي

ذيل مرآة الزمان

في خزانة وزارة الهند في لندن كتاب عنوانه ذيل مرآة الزمان لمؤلف غير معلوم كما كانوا يظنون ولكن بعد المطالعة وجدت انه مجلد من تاريخ قطب الدين اليونيني البعلبكي المتوفى سنة ٧٢٦ وهذا الكتاب اظنه نادراً جداً يوجد أوله في الآستانة في نسختين ، ثم نسخة عتيقة في اكسفورد تحتوي أخبار سنة ٦٥٦ الى سنة ٦٧٣ . وهذا المجلد المحفوظ في لندن يشتمل على الأخبار من سنة ٦٧١ الى ٦٨٦ واذ ان المؤلف ساق تاريخه الى عام وفاته فياحبذا لو نعلم بمكان وجود الجزء المشتمل على الأخبار من سنة ٦٨٦ الى آخر الكتاب .

أسلوب هذا التاريخ على نمط التواريخ منذ زمان الصولي والصابي انه يذكر أولاً التاريخ الدولي ثم فى كل سنة تراجم من مات في تلك السنة من الأعيان من الأمراء والملوك والشعراء وشيوخ الحديث الخ ولكنه يختلف عن المؤرخين المصريين اذ هو شامي وتاريخه شامي ودائماً نجد انه كان صديقاً أو ذا معرفة بكثير من الأكابر في زمانه وأيضاً انه شاهد بنفسه الواقعات المشهورة مثل الملحمة ظاهر حمص التي كسرت بها التتار تحت امرة منكوتمر اخي الملك ابغا خان وتارة يجيء بالعجائب نحو ما ذكره في ترجمة شمس الدين ابن خلكان حين كان قاضي القضاة يقول : (ورقة ٥) حكى لي (يعني صاحبه كمال الدين عمر بن العديم المؤرخ المشهور) انه حضر اليه

وهو بالمدرسة العادلية الكبيرة بدمشق بعد العشاء الآخرة من اخبره ان ثم جماعة من أعيان العدول في مكان يشربون الخمر وعندهم نساء أجنبيات وشنع شناعة كثيرة فاستوثق الخبر عنده وأرسل من باب السر من يثق به الى ذلك المكان وعرفهم الصورة وان والي الليل يحضر لكشف ذلك وأمرهم برفع ماعندهم من المنكرات والتأهب لمن يحضر ثم أحضر والي الليل وعرفه ما ذكر الناقل وأمره ان يأخذه ويتوجه الى المكان لكشف (الأصل بكشف) حقيقة ذلك فتوجه والي الليل وطرق الباب ودخل فوجد جماعة يتحدثون وعندهم فقير مزمزم ومأكول لا غير فعاد والي الليل ومن معه وأخبروه بما شاهدوا فعزر الناقل فانحسمت مادة السعايات بمثل ذلك ٠

كذلك نجد أشياء تبين أخلاق بعض الأكابر فانه قال بعد ترجمة طويلة للملك الظاهر بيبرس (سنة ٦٧٦) في ترجمة الملك القاهر عبد الملك بن عيسى ابن محمد بن أيوب ما نصه :

وحكي ان تاج الدين نوح بن اسحاق بن شيخ السلامية حكي عنه حكاية غريبة معناها ان الأمير علاء الدين ازدمر العلائي نائب السلطنة كان بقلعة صفد حدثه بها قال كان الملك الظاهر مولعاً بالنجوم وما يقول ارباب التقاويم كثير البحث عن ذلك فأخبر انه يموت في سنة ٧٧ ملك بالسم فحصل عنده من ذلك أثر كثير وكان عنده حسد شديد لمن يوصف بشجاعة او يذكر بذكر جميل في معناها واتفق ان الملك القاهر لما دخل الملك الظاهر الى الروم وكان يوم المصاف ورآه الملك الظاهر فتأثر منه وانضاف الى ذلك ان الملك الظاهر حصل منه في ذلك اليوم فتور على خلاف العادة وظهر عليه الخوف والندم على تورطه في بلاد الروم فحدثه الملك القاهر في ذلك الوقت بما فيه نوع من الانكار عليه والتقبيح لفعاله فأثر عنده أثراً آخر ٠ فلما عاد من غزاته وسمع الناس يلهجون بما فعل الملك القاهر زاد تأثره وحنقه عليه فخيل في ذهنه انه اذا سمه كان هو الذي ذكره أرباب النجوم لأنه يطلق على اسم ملك وله ذكر فأحضره عنده ليشرب القمز وجعل الذي قد أعد له في ورقة في جيبه من غير ان يطلع على ذلك أحداً من خلق الله تعالى

وللسلطان هنابات مختصة ثلاثة مع ثلاثة من السقاة الذين له لا يشرب إلا بها ممن يكرمه بأن يناوله ذلك الهناب من يده واتفق قيام الملك القاهر الى البزال فجعل الملك الظاهر ما في الورقة في هنابه وأمسكه بيده فلما عاد الملك القاهر ناوله إياه فقبل الأرض وشربه وقام الملك الظاهر ليبزل فأخذ الساقي الكأس من يد الملك القاهر وملأه على العادة وأمسكه ووقف مع السقاة فجاء الملك الظاهر من البزال وتناول ذلك الكأس بعينه فشربه وهو لا يشعر فلما فرغ من شربه استشعر وعلم انه شرب من ذلك الكأس الذي فيه آثار السم وبقاياه فقام من وقته وحصل له ألم وتحيل واشتد به المرض ومات كما تقدم وأما الملك القاهر فمات غد ذلك اليوم ·

هذا مضمون ما ذكره ابن المولى تاج الدين نوح وذكر ان عز الدين العلائي بلغه ذلك من مطلع لا يشك في أخباره والله أعلم بحقيقة ذلك ·

تنبيه الى ص ٥٢٠ من المجلد العشرين من المجلة

اسم جد البرزالي اويدّاس بفتح الياء المثناة والدال المشددة كما ذكرته في ترجمته في الدرر الكامنة وكذا كتب جده اسمه في مجلد من تاريخ ابن عساكر محفوظ في المتحف البريطاني وهذا الاسم ليس بنادر في برابر المغرب ·

ديوان زهير بن أبي سلمى

ـــ لم أر الى الآن هذا المنشور ولكن اقول ان الموجود منه ثلاث روايات فالمتداولة الى يومنا الاندلسية المختصرة التي طبعت غير مرة ، ثم روايتان للديوان الكامل اقدمها لأبي سعيد السكري ، ثم التي في رواية ابي العباس ثعلب النحوي الكوفي التي هي أصل الطبعة الجديدة لذ منها عدة نسخ جيد ترينها بالتي هي محفوظة في خزانة الاسكوريال ببلاد الاندلس وهي التي نقلتها في هوامش نسختي من الرواية الثالثة وهذه الرواية اعني رواية ابي سعيد السكري لا اعرف منها إلا

النسخة التي في خزانة المستشرقين الألمانيين في هالّة وقد وهم صديقي الأستاذ فيشر لما زعم انها ايضاً رواية ثعلب بل هي أوسع قليلاً ولكن فقدت الورقة الأولى منذ دهر قديم فكتب شخص ليكمل الكتاب على ورق مخالف للأصل بمداد ليس اسود مثل مداد الأصل وأيضاً في آخر الديوان يوجد بخط دقيق لكاتب الأصل كملت رواية السكري او ما معناه . وفي هذا الديوان أبيات يسيرة لا وجود لها في رواية ثعلب وبالعكس . وأيضاً في الروايتين اختلاف في ترتيب القصائد ولكن لا شك بأن كليهما أخذا اكثر الشروح عن شيوخ كانوا قبل زمانهما . نسختي التي كتبتها منذ أكثر من ثلاثين سنة عازماً على نشرها قد أعرتها لصديق فلم يردها الى اليوم .

(كمبردج) سالم الكرنكوي

التنبيه والتوجيه

— ٣ —

٢ — وفي ص ١٥ أيضاً « وأكياساً حريرية» وقول الكاتب الفاضل «حريرية» فيه لبس وايهام، لأن قوله « حريرية » يعني في لغة العرب « فيها شيء من الحرير » وكذلك الأمر في كل ما نسب الى الأشياء ولم أجد أحداً من المعاصرين نبه على هذه النكتة الدقيقة في لغة العرب، فاذا كانت الأكياس كلها من الحرير قيل «أكياساً حريراً» ، وعلى هذا يجب ان يقال «السكة الحديد» لا «السكة الحديدية» .

٣ — وجاء في ص ١٧ أنّ من الضروري جعل « البرعمة » — وهي بالفرنسية Ecussonnage — للتطعيم بالرقعة إذ لم يكن له اسم في العربية، قلت: اسمه بالعربية «التطعيم» أيضاً فلا حاجة الى البرعمة، قال ابو الحسن المسعودي « وقد ضربنا ضروب التوليدات في أنواع الحيوان والنبات من تطعيمهم الغروس والأشجار[1]» ، وجاء في أخبار الملك الناصر محمد بن قلاوون الألفي من حوادث سنة ٧١١ هـ انه «أخرب مناظر اللوق بالميدان الظاهري ، وعملها بستاناً وأحضر اليه سائر

(١) مروج الذهب « ج ١ ص ٢٢٥ » طبعة المطبعة البهية المصرية سنة ١٣٤٦ هـ .

أصناف الزراعات واستدعى خولة الشام والمطعمين فجاء من أبدع البساتين [١] »
واشتهر من المطعمين في التاريخ «عيسى بن عبد الرحمن بن معالي المقدسي ثم الصالحي الحنبلي السمسار المطعم، ولد سنة ٦٢٦ هـ وروى من الأحاديث النبوية وغيرها وكان يطعم الأشجار ويسمسر في الدور وسافر الى بغداد وطعم بستان المستعصم بالله العباسي وتوفي سنة ٧٠٧ ، قيل كان أمياً بعيد الفهم [٢] » . وربط الثقافة العربية القديمة بالحديثة واجب راتب .

٤ — وجاء في ص ١٨ من المجلد المذكور أن « مضغط الجو هو أدل على البارومتر Barometer من المضغط بالاطلاق . قلت : اذ انتهى الأمر الى استعمال كلمتين فالصواب « ميزان الهواء » وهذا الاسم أقرب الى أفهام العرب وأوضح لطلاب العلم من غيره .

٥ — وفي ص ٢١ منه ورد أن « بغلاً » لا يجمع في القلة على « أبغل » بل على « أبغال » ، قلت : إنّ « أبغلا » هو القياسيّ في قلة على « بغل » وأما « أبغال » فلم يجمع الصرفيون على قياسه ، وفي الأخبار التي نقلها الخطيب البغدادي ان الخليفة محمداً الأمين أمر الفضل بن الربيع فأوقر لعبد الله بن أيوب الشاعر « ثلاث أبغل » دراهم [٣] ، إجازة له على أبيات .

٦ — وجاء في ص ٣٥ منه ما يفيد ان قولهم « يخرب بيتو » من الكلام العامي الحديث ، والتاريخ يدلّ على قدمه فقد ورد في كلام ثعلب : قيل لما قرأ القطربلي عليه بيت الأعشى « فلو كنت في جب ثمانين قامة . . . » صحف « جباً » الى حب فقال ابو العباس « خرب بيتك هل رأيت حباً قط ثمانين قامة ؟ ! إنما هو جب [٤] أما إبدال الشاميين الواو من هاء الغائب كأن يقولوا « بيتو » مكان « بيته » فقد وجدته في كلام اهل القرن السادس للهجرة ، قال ابن خلكان في ترجمة العلامة أبي محمد عبد الله بن بري اللغوي النحوي « ويحكى أنه كانت فيه غفلة ولا يتكلف

(١) المقريزي في السلوك لمعرفة دول الملوك « ج ٢ ص ١٣٠ » طبعة لجنة التأليف وهي الأولى
(٢) ابن حجر العسقلاني في الدرر الكامنة « ج ٣ ص ٢٠٤ » (٣) تاريخ بغداد « ج ٣ ص ٣٣٩ »
(٤) ياقوت الحموي في « معجم الأدباء ج ٢ ص ١٢٥ »

في كلامه ولا يتقيد بالاعراب بل يسترسل في حديثه كيفما اتفق حتى قال يوماً لبعض تلامذته ممن يشتغل عليه بالنحو: اشتر لي قليل هندباء بعروقو. فقال له التلميذ: هندباء بعروقو؟! فعز عليه كلامه، وقال له: لا تأخذه إلا بعروقو وإن لم يكن بعروقو فلا تأخذه[1]».

٧ — وجاء في ص٣، «يجدر بي هنا السكوت» وليس ذلك بفصيح ولا صحيح، فالصواب «إني جدير بالسكوت أو بأن أسكت»، و «يحسن بي السكوت» و «أنا أجدرُ بالسكوت» ولو كان الكاتب شاعراً لقلنا إن هذا من القلب كقول عروة بن الورد:

فديت بنفسه نفسي ومالي وما آلوك إلا ما أطيق

أراد: فديت نفسه بنفسي فقلب المعنى[2] هكذا قال المرزباني وأنا أقول: بل قلب اللفظ.

يتبع: (بغداد) الدكتور مصطفى جواد

هدية الى دار الكتب الظاهرية

أهدى الأمير جعفر الحسني عضو المجمع العلمي العربي الى دار الكتب الظاهرية بدمشق مجموعة من المجلات العربية يبلغ عددها ٢٣٧ مجلة بين مجلد وجزء فله الشكر الجزيل.

القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية

أخذنا في طبع كتاب (القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية) لمؤلفه محمد بن طولون الصالحي المتوفى سنة (٩٥٣ هـ) عن صورة من نسخة وحيدة بخط المؤلف فنرجو ممن يعلم ان هناك نسخة ثانية من هذا الكتاب ان يرشدنا اليها وله منا جزيل الشكر.

دمشق: محمد أحمد دهمان

(١) الوفيات «ج ١ ص ٢٩١» من طبعة العجم (٢) المرزباني في الموشح «ص ٨٥»

الصفحة	فهرس الجزء السابع والثامن من المجلد الحادي والعشرين

مجلة
المجمع العلمي العربي

ايلول وتشرين الأول سنة ١٩٤٦ شوال وذو القعدة سنة ١٣٦٥

المؤلفون في مصر

كتبت الاجادة في التأليف لأكثر حملة العلم عند العرب من أهل القرن الثاني الى الخامس من الهجرة وكتبت الاجادة لبعض هذه الطبقة منذ القرن السادس الى القرن التاسع . وفي هذه العصور الأخيرة كان عهد المتوسطين بقرائحهم وعلمهم والنوابغ معدودين في كل جيل على أصابع اليد . وبعد العصر التاسع بدأ عصر التقهقر فضعفت اللغة ، وضعفت الآداب وأمست الأقطار العربية في سبات عميق نزع من النفوس مضاؤها ومن العقول تفكيرها ، وصار الدور دور العجمة والأعاجم ، ونشأ من ذلك قلة الدارسين والباحثين والشاعرين والناثرين ودام هذا الانحطاط الى اواخر المئة الثالثة عشرة .

تعلقت قدرة المولى تعالى ان يحمل العرب مشعل النور الى العالم بضعة قرون وتعلقت قدرته بعد ذلك ان تقع هذه الشعلة من أيديهم ويتلقفها أهل الغرب . وكان النور قبل العصور الوسطى يحمل من آسيا وأفريقية الى اوربا ، فأصبح بعد ذلك يحمل من أوربا الى آسيا وافريقية .

ولما كانت النهضة العربية الأخيرة في مصر كان أول ما بدئ به اصلاح اللغة واصلحت القوالب التي يؤدى الكلام بها ، وأخذ النبهاء منا عن الغربيين طرقهم في البحث والدرس ، فضموا الى قديمهم حديثاً طريفاً ، وأخذوا عن جيرانهم ما اشتدت حاجتهم اليه من ثقافة وتدريب ٠

وما جاءت المئة الرابعة عشرة حتى أخذ التأليف بالعربية يتجه وجهة لم يكن له بها عهد منذ أجيال ٠ وما انسلخ الربع الأول من هذا القرن حتى تبدلت هيئة الكتابة وهيئة الشعر وتبدلت بتبدلها هيئة التأليف ٠ أخذ الناس يحرصون على المعاني والمحسوسات أكثر من حرصهم في القديم على الألفاظ والخيالات ٠ ودالت دولة الاسجاع والجناسات التي اخترعتها عصور الانحطاط ، ويكاد يقول من قرأ صفحة كتبت في القرن الثاني او الثالث وعارضها بأخرى كتبت في العصر الحادي عشر والثاني عشر أن اللغة تبدلت معالمها وروحها كل التبدل وخلص الجمهور من معان باردة وافكار مكررة وآداب لا تلامس الحياة في قليل ولا كثير ٠

كان الفضل الأول لاخراج اللغة العربية من الابتذال والركاكة وادخالها في طور جديد تجري فيه مجرى عصور الارتقاء لذاك المعهد العظيم الذي دعوه (دار العلوم) في القاهرة فتخرج بأساتذته أناس تشبعوا بالبيان العربي الصحيح وقلبوا بالتدريج الطريقة المألوفة عند المعاصرين ، وبذلك تغيرت لغة الخطب والصحف والكتب والمحاكم والمعابد ٠ ومن عارض بين كتابة أواخر المئة الثالثة عشرة وكتابة النصف الثاني من القرن الرابع عشر يتمثل لناظره الفرق العظيم بين لغة تموت ولغة تحيا ، وبين بيان مضغوط بالمحسنات اللفظية وبيان حي سالم من كل تزيد وفضول ٠

فصحت دعوانا والأمر على ما ذكر أن التآليف التي صدرت في الربع الثاني من القرن الرابع عشر أرقى من التآليف التي وضعت منذ القرن التاسع الى أواخر الثالث عشر في مصر وبلاد العرب ولا عبرة بالشواذ ٠ والسر الأعظم في

هذه الاجادة يعود لاصلاح اداة التأليف كما قلنا، ولسلامة اداة التفكير من التلوي والتعقيد ، وكان من أثر ذلك ان طلّق المؤلفون الموضوعات التافهة التي لاكتها الألسن كثيراً ، وتشبثوا بايجاز المفيد منها ، وأتوا الأمة بأشياء جديدة ماعرفوها ، واصبح المؤلف لايلخص الا بعد بحث ، ولا يدون إلا بتمحيص ، ويبرز على كل حال في ابراز الأفكار القديمة والحديثة في قالب مقبول من الرشاقة والجزالة . ولا نغالي اذا قلنا ان التأليف في هذه الحقبة انقلب رأساً على عقب بلغته وأفكاره وان التآليف التي كتبت بركاكة أواخر القرن الماضي واوائله تكاد لا تجد من يعطف عليها واكثرها حرية بأن تكون صوراً ولفائف كالجرائد القديمة .

عارضوا كل ماكتبه الشيخ محمد عبده في رسالة التوحيد وتلميذه الشيخ احمد ابراهيم في كتبه الفقهية وما كتبه في هذين الموضوعين من تقدموهما في عصور الانحطاط تجدوا الفرق عظيماً بين من استجمعوا ادوات التأليف كلها وبين من لم يستجمعوها . والناقد البصير يدرك لأول نظرة ان ماكتبه محمد بخيت من شيوخ الأزهر على كثرته محكوم عليه بالعفاء لأنه خلا من روح العصر ومن بلاغة العصر ، وعرا من جمال الأسلوب وجودة التأليف إلا قليلاً . أما ما كتبه محمد عبده على قلته وهو من شيوخ الأزهر أيضاً فانه خالد لأنه كتب ورائده البلاغة وسلامة الفكر ، وكذلك قل في كتاب الاسلام وأصول الحكم لعلي عبد الرزاق فان هذه الرسالة تبقى لأنها كتبت في موضوع مهم بلغة العصر الحديث وعلى أسلوب تفكير أهله . وليست منفعة التآليف بكثرة صفحاتها وتعدد مجلداتها ، فقطعة الذهب تساوي مئة ضعف من وزنها حديداً . ورب رسالة محكمة خلد بها اسم صاحبها وكم من مجلدات سقيمة ذهبت مع الزمن منسية . والمكثار لا يأمن العثار على كل حال .

ان ما كتبه قاسم امين في (تحرير المرأة) و(المرأة الجديدة) وعبد الرحمن الكواكبي في (طبائع الاستبداد) و(أم القرى) وحافظ عفيفي في (على هامش

السياسة) و (الانكليز في بلادهم) وابراهيم المويلحي (فيما هنالك) ومحمد المويلحي (في حديث عيسى بن هشام) ومحمد علي علوبة في (السياسة المصرية) قد يعمّر ويفيد أكثر من مجلدات ضخمة كتبها محمد بخيت وطنطاوي جوهري ويوسف النبهاني واضرابهم فمن لم يهضم موضوعه لا يرتجى من الناس ان يهضموه ، ومن لم يتعب في اعداد عدته قلما يقبل قومه على اقتنائها ·

اما بعد فان اللغة العربية لغة ايجاز ، ولا سلطان على عقول أبنائها أعظم من العبارات الموجزة وهذا العصر الذي نعيش فيه هو أيضاً عصر ايجاز واختزال يملّ أهله التطويل بلا طائل ، ويكرهون التزيد في غير محله · ولو كتب كاتب من أهل العصر الماضي ما كتبه طه حسين في تاريخ (الأدب الجاهلي) و (على هامش السيرة) وفي (الايام) لكتب ألوفاً من الصفحات وما أغني غناء طه ولا ابدع ابداعه · ولو ألف مؤلف قبل مئة سنة ما كتبه احمد امين في (فجر الاسلام) و (ضحى الاسلام) و (ظهر الاسلام) ما كتبت له هذه الاجادة · ولو تم المنهاج الذي وضعه مع زميليه طه حسين وعبد الحميد العبادي على ان يكتب طه الحياة الأدبية في الاسلام كما كتب احمد امين الحياة العقلية ويكتب العبادي الحياة السياسية لكان فجر الاسلام وضحى الاسلام وظهر الاسلام وثم عصر الاسلام اعظم معلمة عربية في هذا الموضوع لأن هؤلاء الثلاثة المؤلفين رزقوا حظاً عظيماً من البلاغة وعرفوا اساليب الغرب والشرق في التأليف وطرق الافادة ·

وكتبت الاجادة في التأليف للعقاد والمازني وعنان على كثرة ما انتجوا ونشروا · ويعود قسم وافر من الفضل في اجادتهم الى تشبعهم باللغات الغربية والأدب العربي · وأكبر الظن ان لكثرة التمرين دخلاً كبيراً في هذا الاحسان · وقلّ ان كتبت الاجادة لمثل العقاد على كثرة ما خاض عبابه من الموضوعات السياسية والاجتماعية والفلسفية والأدبية والقصصية ، وقرينه في كثرة الانتاج محمد لطفي

جمة الا ان الرشاقة قد تخطئه لأنه نشأ مترجماً عن الانكليزية فأضعف النقل من ملكنه . أما العقاد والمازني فقد نشآ نشأة أدبية وكان لهم في الشعر أيضاً فضلاً عن النثر يد طولى . ويكثر المؤلفون المحسنون في بيانهم بين طلاب دار العلوم والمعلمين العليا ومدرسة القضاء الشرعي (الملغاة) أكثر من أمثالهم في الأزهر والجامعة المصرية والجامعة الأميركية .

كان لكثير من المؤلفين يد باسطة في التعريب اكثر مما كان لهم في التأليف ، وفي مقدمتهم أحمد فتحي زغلول واحمد لطفي السيد ويعقوب صروف وابراهيم مصور ونجيب شاهين ومحمد السباعي وفريد ابو حديد واحمد حسن الزيات ، وهذا اجاد في تعريب (رافائيل) للامرتين (وآلام فرتر) لجوته ، والزيات يبالغ في تنميق ما يكتب فيجمع بين ادب العصر واسلوب البديع والخوارزمي والصابي وهو سواء ومصطفى صادق الرافعي ومصطفى لطفي المنفلوطي وعبد العزيز البشري يتشابهون في طريقتهم ويمتاز الأخير بأسلوبه الخاص به أسلوب الهزل في الجد . وكتابه (في المرآة) الذي ترجم فيه لمعاصريه من المصريين على نهجه الخاص به في السخرية لو خلا من مصانعة بعض من كانوا يوم كتبه من الصدور لكان من أجمل الكتب في بابه . وأحسن ايضاً في كتابه (المختار) وهي مقالاته التي نشرها في مناسبات مختلفة ومن أهم ما ساعد على اجادته اكثر الاوقات احاطته بحياة كبار المصريين وصغارهم فهو قاهري يعرف ما في القاهرة من سر وجهر ويحسن عرض أدب المجالس ويورد النكتة حائغاً لها صياغة أدبية يدخل بها المرح على القلوب . والمجودون في هذا الباب قلائل وما ذاك لأن الجد غالب على المؤلفين بل لأن الهزل صعب المراس على التدوين . وكان عبد الله نديم ورفائيل بن صفونع (ابو نضارة) وابراهيم المويلحي من أول من خطا في هذا العصر خطة الهزل في الجد فتذوق معاصروهم هذا النمط من الكلام ، وكان البشري أحد أساطين هذا الهزل المحبوب لعهدنا وكان مع صديقيه محمد البابلي وحافظ ابراهيم من أعظم رجال هذا الشأن .

ومن تلاميذ دار العلوم الذين برزوا في التأليف حفني ناصف واحمد الاسكندري ومحمد الخضري وعبد العزيز جاويش وعبد الوهاب النجار وضرباؤهم واكثرهم من المقلين لأن تعاطي اكثرهم التدريس طول حياته العملية قطعه عن التأليف بعض الشيء ولكنهم أجادوا فيما نشروه للناس فيمكن ان يقال ان علمهم أكثر من عملهم وانهم عاشوا للتوظف لا لأنفسهم . وعلى هذا النحو يمكن القول فيمن لو تفرغوا للتأليف لبرزوا كل التبريز امثال مصطفى المراغي احمد حسنين علي ماهر بهي الدين بركات علي زكي العرابي محمد حلمي عيسى محمد علي علوبة محمود ابو العيون مصطفى عبد الرزاق منصور فهمي مظهر سعيد عبد الرزاق السنهوري سنى اللقاني محمد احمد الغمراوي احمد فهمي العمروسي عبد الله عنيفي انطون زكرى ابراهيم مصطفى توفيق اسكاريوس عمر لطفي رزق الله منقريوس .

فان هؤلاء وامثالهم من الأحياء ابانوا بالقليل الذي نشروه عن كفاية تامة اما من الأموات فاحمد شفيق وتوفيق البكري عبد الحميد البكري عبد القادر حمزة علي يوسف علي بهجت اسماعيل رأفت ، محمد توفيق صدقي ، ابراهيم رفعت ، علي ابو الفتوح ، اسماعيل حسنين ولي الدين يكن ، حسن منصور ، حسن توفيق ، امين سرور ، محمد فريد ، مصطفى الدمياطي ، محمود مصطفى .

ومن المؤلفين المجودين احمد كمال الأثري ، محمود سامي البارودي ، حافظ ابراهيم ، احمد شوقي ، اسمعيل صبري وهؤلاء الأربعة انبغ شعراء مصر في هذا العصر واحمد تيمور (باشا) ، واحمد زكي (باشا) واحمد زكي (الدكتور) علي مصطفى ، مشرفة محمد ، مسعود حافظ عوض ، عبد الرحمن الرافعي ، عبد الوهاب عزام ، محمد عوض محمد ، محمد حسين هيكل ، محمد ثابت ، اسماعيل مظهر ، مصطفى كامل ، محمد دياب ، سلطان محمد ، عبد الرحمن الجزيري ، احمد عبد السلام الكرداني حسن السندوبي ، محمود عرنوس ، زكي نجيب محمود ، محمود الخفيف ، محمد خالد حسنين عبد العزيز الخولي ، سعيد العريان ، محمد عبد الغني ، حسن محمد بدران ، امين

مرسى قنديل ، محمد محي الدين عبد الحميد فكري اباظة ، احمد الزين احمد فريد الرفاعي محمد فهيم عبد الرحمن البرقوقي ·

ومن ألفوا في العلم والطب والاجتماع والتاريخ والآثار والفقه احمد عيسى احمد الشايب زكي مبارك احمد ضيف شوقي ضيف احمد الحسيني عبد الرزاق السنهوري امين واصف مصطفى زيادة امير بقطر توفيق حبيب اسعد داغر زكي حسن فرنسيس ميخائيل يعقوب فام عزيز خانكي حسن ابراهيم حسن سلامة موسى يوسف كرم ابراهيم مدكور عبد الهادي ابو ريدة مصطفى عناني احمد محمد شاكر ومحمود محمد شاكر احمد زكي ابو شادي محمد امين حسونة وفريد وجدي وهذا أجاد في الرد على الماديين اجادة حسنة واجادته قليلة في الكتب الكبيرة الحجم التي كتبها وقد بدت عليها العجلة ولم يظهر الدرس والبحث فيها كثيراً فالاكثار اضرّ بعمل هذا المؤلف النشيط العالم · وارجو ألا يكون كذلك حال المؤلف امين سامي فاني لم يسعدني الحظ بقراءة ما كتب ، ورجال الرأي مجمعون على انه من أعظم المؤلفين ·

وطرّس الأدب العربي الحديث على اثر الأدب الغربي فكان من مستلزمات ذلك ان يستخدم القصة للتعليم والتسلية والعبث على أساليب الفرنج في هذا الضرب من الأدب ، فمن المجودين في الروايات التمثيلية شوقي والعقاد ومن المجودين في القصة المنثورة توفيق الحكيم ومحمود تيمور فالأول تلمح فيما كتب صورة من صور الغرب اكثر مما تحمل كتابته روح الشرق ، وفي قصص الثاني تتمثل لك الروح المصرية الشرقية وهناك غيرهم من كتاب القصص واكثرهم نقلة ومعربون لم أعرفهم. اما لأني ضعيف الولوع بالقصة او لأن ضعف الكتابة فيما وضعوا وترجموا حال دون اعطاء الحكم فيهم ·

ويكثر فيهم المؤلفون الذين وضعوا كتباً مدرسية للمدارس الابتدائية والثانوية وبعضهم اشتركوا مع زملائهم في وضعها وقد تجد كتاباً ليست له مكانة

كبرى تعاون تأليفه بضعة مؤلفين واظن الداعي الى ذلك الكسب لأن هذا النوع من الكسب يربح أرباحاً طائلة خصوصاً اذا كان له في وزارة المعارف من يساعد على انتشاره ٠

وهناك عشرات من المؤلفين الذين كانوا من أصل سوري فنزلوا مصر وظهر فيها فضلهم ومنهم من تمصر وتحلى بالجنسية المصرية ومنهم من تعاطوا الطب والمحاماة والصحافة والوظائف فما انتجوا كثيراً لأن طبيعة أعمالهم اليومية حالت دون ما قد يشتهون تدوينه لنفع الناس ٠ فمن هذه الفئات يعقوب صروف فارس نمر شبلي شميل خليل مطران عزيز خانكي نجيب حداد امين حداد محمد رشيد رضا رفيق العظم داود بركات خليل ثابت انطون الجميل نعوم شقير سعيد شقير جرجي زيدان محب الدين الخطيب فؤاد صروف وغيرهم ٠

بقي ان اقول ان هناك عشرات من المؤلفين لم تواتني الأيام ان اتشرف بمعرفتهم او استفيد من علمهم في كتبهم وذلك لأن كتبهم لم تشتهر الشهرة التي تستحقها او انهم خاضوا من العلم فروعاً لم اعرفها ٠ وأنا لم أتكلم إلا على المؤلفين الذين عرفتهم وطالعت كتبهم مستحسناً او ناقداً ٠ ولم اقصد بهذه العجالة الحصر فالحصر يحتاج الى نفس أطول - وما زلت شهد الله منذ عرفت مصر اتعرف الى كثير من المغمورين وأعتقد ان بعضهم لو نظموا اوقاتهم بنظام بعيد عن الفوضى الاضطرارية احياناً لاشتهروا في الأقطار بما يوازي مكانتهم الأدبية والعلمية ٠ واني أمثل لذلك بأربعة فقط عملت معهم في مجمع اللغة العربية بمصر وهم حسين والي واحمد العوامري وعلي الجارم ومحمد احمد جاد المولى فقد اعجبت بما انطووا عليه من علم غزير في آداب العربية ومعرفة دساتيرها وأسرارها بيد ان ما نشروه للناس اقل مما كان يرجى منهم ٠ وما علة ذلك الا بأنهم صرفوا جزءاً عظيماً من أعمارهم في التدريس أو الاستخدام فضاقت أوقاتهم عن الاتساع لغيره من الأعمال الكبرى - نعم تخرج بهم كثيرون ولكن لم تتجاوز أنوار معارفهم البيئة التي اضطربوا فيها ٠ ومن المتعذر ان يحوز الفرد كل المزايا فالمحاضر غير الخطيب

والكاتب غير الشاعر والمؤلف غير المدرس والصحافي غير السياسي ولا عبرة بالشواذ ·

واكبر الظن ان علة ذلك كله تفضيل الناشئين العيش الهنيء المضمون في أبواب الحكومات وايثارهم له على الصناعات الحرة التي يسرح صاحبها ويمرح على هواه ويتحمل وحده تبعة اعماله · ولو ضعفت شهوة الاستخدام في بعض النفوس المصرية ربما زاد عدد الباحثين المجودين وتضاعفت جمهرة من ينفع الناس منهم نفعاً عاماً وربما كان تغير بذلك وجه المدنية العربية · والأمم التي تعلق كل مجد لها على حكوماتها فقط يكون حظها من الحضارة محدوداً بخلاف الأمم التي يعول بنوها على الاستقلال في الأعمال وتتقزز نفوسهم من الاتكال · وليس من الغرابة في شيء ان يكون معظم مؤلفي مصر في هذا العصر من الذين اتصلوا بالحكومة مباشرة وقل ان رأينا ذا نعمة وسعة من العيش حاول نفع الناس بقلمه وبيانه اللهم الا ثلاثة عظماء من أمراء البيت العلوي الكريم وهم الأمراء عمر طوسون ويوسف كمال ومحمد علي توفيق فكتب الأول في تاريخ مصر الحديثة كتباً مفيدة جداً ووضع الثاني سفراً عظيماً سماه المجموعة الكمالية ضمنه جميع ما كتب في جغرافية افريقية باللغات القديمة والحديثة انفق عليه نحو خمسين الف جنيه مصري وصدر منه الى الآن ثلاثة عشر مجلداً طول الواحد نحو متر · وكتب الأمير الثالث رحلاته الى انحاء العالم الشرقي والغربي فجود بها وأفاد ·

هذا وقد يتساءل بعضهم فيقول اليس في كل هذا الرعيل من الرجال سيدات جارين الرجال في التأليف في مصر على عهدها الأخير فالجواب نعم ان منهن اليوم من هن موضع العجب فمن عهد عائشة عصمة التيمورية الى زينب فواز وملك ناصف (باحثة البادية) الى ماري زيادة (مي) الى نور الحكيم الى نظلة الحكيم الى زينب الحكيم الى انصاف فهمي الى احسان احمد القوصي الى سهير القلماوي الى امينة سعيد الى غيرهن من المؤلفات ترى طبقة ضاهت الرجال باخراجها ثمرات عقولها للناس وسيخرج من النساء عدد أكبر في الجيل المقبل ·

محمد كرد علي

الغزالي وزعماء الفلاسفة

١ — تمهيد عام

لتطور الأفكار في تاريخ البشرية قانون عجيب يمكننا ان نسميه قانون التضاد او قانون التناوب في التهالك . وهو يدل على أن كل مذهب من المذاهب سياسياً كان او فلسفياً ، يمهد السبيل لظهور ضده .

والسبب في ذلك أن في الطبيعة البشرية نزعات متضادة كالميل الى التفاؤل والتشاؤم ، والميل الى الرخاء والتقشف ، والميل الى الحياة الروحية والمادية . فاذا سلكنا طريق نزعة من هذه النزعات وبالغنا في ارضائها أدى تهالكنا في ذلك الى إحياء ضدها . ان مبالغة بعض الناس في التفاؤل تدفع بعضهم الآخر الى التشاؤم ، كما ان التهالك في محبة الجديد يوقظ في قلوب الناس محبة القديم .

وما ينطبق على تناوب الميول والنزعات يصدق أيضاً على تطور الأفكار . فاذا اكتشف المفكر مذهب جديد بحث أولاً عن أصوله ، ثم رتبها وهذبها ، ثم بالغ في استخراج النتائج اللازمة عنها . واذا لم يبالغ هو نفسه في النتائج قام اصحابه من بعده وبالغوا فيها . حتى يجيء مفكر جديد يصعب عليه التسليم بنتائج ذلك المذهب فيعود الى الأصول وينتقدها ، ثم يصوغها في قالب موافق لنزعته الجديدة . ان المبالغة في النتائج اللازمة عن مذهب (ديكارت) و (ليبنيز) أدت الى المذهب الخيالي وفسحت المجال لظهور المذهب التجريبي . كما ان المبالغة في المذهب التجريبي أدت الى الريبية ومهدت السبيل لظهور المذهب الخيالي . وهكذا تدور رحى الآراء والمذاهب حول قطبين متضادين ، وينتقل ميزان الفكر من طرف الى آخر حاملاً الى كل طرف ما ربحه من حركته الاولى . فكأن تاريخ الأفكار مسرح يمثل عليه كل مفكر دوره ، وكأن العقل البشري لا يحب الا التآمي .

مثال ذلك ان مذهب سقراط في الأخلاق كان مشتملاً على نزعتين متضادتين أدت المبالغة في كل منها الى ظهور مذهبين مختلفين هما السيرينائية والكلبية . فأصحاب المذهب الأول كانوا يقررون أن السعادة في اقتناص اللذات . واصحاب المذهب الثاني كانوا يعتقدون ان الفضيلة في التقشف واحتقار التقاليد الاجتماعية والتحرر منها . ثم تولد من هذين المذهبين مذهبان آخران هما الابيقورية والرواقية ، كان القائلون بكل منهما يتهالكون في الدفاع عن آرائهم والرد على مخالفيهم ، السابقون يضعون أساس البناء ، واللاحقون يهدمونه ، وفي تهديمهم هذا اصلاح لأصول المذهب ، واستئناف لانشائه .

ومن الأمثلة الدالة على ذلك ايضاً رد (ارسطو) على كل من قبله من الفلاسفة حتى على استاذه افلاطون . ورد مفكري الاسلام منذ تسالم بالفرس واليونان على الثنوية والدهرية . فقد كان ابو الهذيل العلاّف وابراهيم النظام يستعينان بالفلسفة للرد على اعداء الدين . وكان الفلاسفة انفسهم يقتبسون من العقائد الدينية بعض مبادئهم ومقدماتهم ، حتى اصبحت المذاهب الفلسفية في ذلك العهد اشبه شيء بالمذاهب السياسية ، لا بل بالأدوار المسرحية . لكل مذهب زعماؤه ورؤساؤه ، كلما ظهر مذهب جديد انبرى فريق من المخالفين للرد عليه . والسبب في ذلك أيضاً ان كلام المترجمين الذين نقلوا كلام أرسطو الى اللغة العربية لم يخل من التحريف والتبديل ، حتى أثار ذلك نزاعاً شديداً بين الشارحين . وكان أقدم الفلاسفة بالشرح والتحقيق ابو نصر الفارابي وابن سينا حتى سمي الأول بالمعلم الثاني ، وسمي الثاني بالشيخ الرئيس فانتشر بهما مذهب الفلاسفة وتهالك الناس في اتباعه . فلا غرو اذا اطلق الغزالي عليهما وعلى اصحابهما اسم زعماء الفلاسفة وانبرى للرد عليهما في كتاب التهافت ، وزعم انه كشف عن فنون ما انخدعا به من التضليل والتخييل ، وانه برده عليهما انما ردّ في الوقت نفسه على كلام آرسطو . وكما رد الغزالي على الفارابي وابن سينا فكذلك ردّ ابن رشد على الغزالي في كتاب تهافت التهافت .

ان تهافت الناس على الفلاسفة ادى الى حملة الغزالي عليهم كما أن اعجاب الناس بكتب الغزالي دعا ابن رشد الى نقدها . وهكذا لم تزل أبداً حال الفلاسفة بعضهم مع بعض ، اذا عظم أمر أحدهم ، وأخذ الناس في اتباعه ، تصدّى له فريق من المخالفين وحملوا الناس على استنكار مذهبه .

٢ — أسباب حملة الغزالي على الفلاسفة وغايتها

ونريد الآن ان نبحث في الحملة التي شنها الغزالي على الفلاسفة ونبين أسبابها وغايتها وأثرها في تاريخ الفلسفة العربية .

أما أسباب حملة الغزالي على الفلاسفة فترجع الى ما شاهده في زمانه من اضطراب الفرق وتعدد المذاهب والطرق ، وانحلال العقائد الدينية . فقد قاسى الغزالي من جراء ذلك آلاماً نفسية عظيمة ، وحاذر ان يقضي هذا الاضطراب على العقائد الاسلامية ، فندب نفسه الذب عن حياض الدين ، واراد ان يكون اماماً مرشداً ومصلحاً دينياً ينقذ اخوانه مما غرقوا فيه من الضلالة . فخاض في ذلك كما يقول[1] «خوض الجسور ، لاخوض الجبان الحذور» . متفحصاً عن عقيدة كل فرقة ومستكشفاً أسرار كل طائفة ، لا يغادر باطنياً الا ويحب ان يطلع على بطانته ، ولا ظاهرياً الا ويريد ان يعلم حاصل ظهارته ، ولا فلسفياً الا ويقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلماً الا ويجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته[2] . فألّف في الرد على مذهب التعليم كتاب المستظهري وكتاب حجة الحق وكتاب مفصل الخلاف ، وكتاب القسطاس وغيرهما وألّف في الرد على علماء الكلام كتاب الجام العوام عن علم الكلام ، وألّف في الرد على الفلاسفة كتاب التهافت .

ولكن الفلاسفة كانوا في نظر الغزالي أشد خطراً على الدين من غيرهم لما غلب على الناس من حب كتبهم وحسن الظن في علومهم . فهم قد أرادوا أن

(١) الغزالي ، المنقذ من الضلال ، ص — ٦٦ طبعة مكتب النشر العربي بدمشق .
(٢) عن المنقذ باختصار ص — ٦٦

يزنوا كل شيء بميزان العقل وان يوفقوا بين الحكمة والشريعة ، فكان الدين في يدهم آلة خادمة للفلسفة حتى تفاقم أمرهم وبالغوا فيما ارادوه ، واصبحوا خطراً على الدين والاخلاق .

أما خطرهم على الدين فيرجع الى انهم اعتقدوا في انفسهم كما يقول الغزالي التميز على أترابهم ونظرائهم فرفضوا وظائف الاسلام والعبادات ، واحتقروا شعائر الدين واستهانوابالشرع وحدوده ، وكان مصدر كفرهم بزعمه انهم سمعوا باسماء هائلة كسقراط وبقراط وافلاطون وارسطو وأمثالهم واطلعوا على مبالغة متبعيهم في وصف عقولهم وحسن اصولهم ودقة علومهم الهندسية والمنطقية وحكايتهم عنهم انهم مع رزانة عقولهم وغزارة فضلهم منكرون للشرائع والنحل ، جاحدون لتفاصيل الأديان والملل ، معتقدون أنها نواميس مؤلفة وحيل مزخرفة فتجملوا بالكفر واظهروا التكايس في تقليد الباطل . قال الغزالي :

« ولما رأيت هذا العرق من الحماقة نابضاً على هؤلاء الأغبياء ، انتدبت لتحرير كتاب التهافت رداً على الفلاسفة القدماء ، مبيناً تهافت عقيدتهم ، وتناقض كلمتهم فيما يتعلق بالالهيات ، وكاشفاً عن غوامض مذهبهم التي هي على التحقيق مضاحك العقلاء[1] » .

ولا شك ان المعجب بأقوال الفلاسفة في المنطق والرياضيات يظن كما يقول الغزالي ان جميع علومهم في الوضوح ووثاقة البرهان هي كهذين العلمين، ثم يسمع بعد ذلك اشياء كثيرة عن كفرهم وتعطيلهم وتهاونهم بالشرع فيقلدهم ويقول : لو كان الدين حقاً لما اختفى على هؤلاء مع تدقيقهم في هذا العلم . دع ان الجهال من اصدقاء الاسلام يكذبون كل ما جاء به الفلاسفة ويقولون انه مخالف للشرع مع ان الذي يقرأ العلوم الثابتة بالبرهان لا يشك في تلك العلوم ، بل يشك في مكذبيها وبسوء ظنه فيهم .

(١) التهافت ، ص ٣ ، طبعة مصر .

وأما خطر الفلاسفة على الأخلاق فيرجع الى انهم أهملوا أحكام الشريعة ، فشربوا الخمر وأعرضوا عن الصلاة وقالوا مع ذلك أنهم ادركوا حقيقة النبوة وعلموا ان حاصلها يرجع الى الحكمة والمصلحة ، وان المقصود من تعبداتها ضبط عوام الخلق وتقييدهم عن الاسترسال في الشهوات . فاذا ترفع الانسان عن طبقة العوام سقط عنه التكليف ، وكشف عنه الغطاء ، وأصبح بصيراً بحكمته . وإنك لتجد بعضهم كما يقول الغزالي[1] يقرأون القرآن ويحضرون الجماعات والصلوات ويعظمون الشريعة بلسانهم . وهم مع ذلك لا يتركون فسقهم وفجورهم ، «حتى ان ابن سينا ذكر في وصية له انه عاهد الله على كذا وكذا ، وان يعظم الأوضاع الشرعية ولا يقصر في العبادات الدينية ، ولا يشرب تلهياً ، بل تداوياً وتشافياً ، فكان منتهى حاله في صفاء الايمان والتزام العبادات ان استثنى شرب الخمر لغرض التشفي[2]» . وفي هذا السلوك كما يرى الغزالي خطر على اخلاق الناس .

ولم تكن غاية الغزالي من نقد آراء الفلاسفة سلبية ، بل كانت غاية ايجابية . فهو لم يهدم البناء الذي اقامه الفلاسفة على اساس العقل الا لينشئ صرحاً جديداً على أساس الكشف الباطني والوحي القلبي . فشك في علم الكلام ، وشك في مذهب التعليم ، وشك في الفلسفة ، وشك في العقل ، وانحلت عنه رابطة التقليد وطلب العلم اليقيني ، «وهو العلم الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً ، لا يبقى معه ريب ولا يقارنه امكان الغلط والوهم[3]» ، فوجد علومه غير متصفة بهذه الصفة . وطمع في اقتباس اليقين من الحسيات . فلما تأملها لم تسمح له نفسه بتسليم الأمان فيها ، لأن حاكم العقل كثيراً ما يكذب حاكم الحس ويخونه ويبطله . فلما بطلت ثقته بالحسيات تأمل الضروريات العقلية ، وكاد يثق بها لولا اعتراض الحسيات وقولها لعل وراء ادراك العقل حاكماً آخر ، اذا تجلى كذب العقل في حكمه كما تجلى حاكم

(١) المنقذ ص ١٥٠ (٢) المنقذ ص ١٥٠ (٣) أيضاً ٦٩ .

العقل فيكذب الحس في حكمه . ويمكن ان تطرأ على الانسان حالة تكون نسبتها الى العقل كنسبة اليقظة الى النوم . فالعقل يكذب الحس والحس يكذب العقل كأن هناك مأساة جدلية محزنة ، تظفر فيها العقليات على الحسيات ثم تعود الحسيات فتتغلب بجدلها على العقليات . ولو استسلم الغزالي لهذا الجدل لبقي على مذهب السفسطة ، ولكانت غايته سلبية محضة . الا انه استطاع ان يخرج من الشك عن طريق الكشف الباطني والحدس الديني فعادت نفسه الى الصحة والاعتدال ورجعت الضروريات العقلية موثوقاً بها على أمن ويقين ، لا ببداهة العقل كما فعل (ديكارت) ولكن بنور قذفه الله في الصدر ، وذلك النور في نظره مفتاح اكثر العلوم .

وها هنا مسألة لا بد من الاشارة اليها وهي ان الغزالي لم يحمل على الفلاسفة لعجزهم في الالهيات عن الوفاء بالبراهين التي اشترطوها في المنطق ، بل هدم آراءهم ليظهر عجز العقل عن الخوض في مسائل ما بعد الطبيعة . نعم انه يقول في بيان اسباب حملته على الفلاسفة انهم ما قدروا في الالهيات على الوفاء بالبراهين التي اشترطوها في المنطق[1] ، « وانهم يحكمون بظن وتخمين من غير تحقيق ويقين ، ويستدلون على صدق علومهم الالهية بظهور علومهم الحسابية والمنطقية ويستدرجون ضعفاء العقول . ولو كانت علومهم الالهية متقنة البراهين نقية عن التخمين كعلومهم الحسابية لما اختلفوا فيها »[2] . « وان ما شرطوه في صحة مادة القياس في قسم البرهان من المنطق وما شرطوه في صورته في كتاب القياس ، وما وضعوه من الأوضاع في « ايساغوجي » « وقاطيغورياس » لم يتمكنوا من الوفاء بشيء منه في علومهم الالهية »[3] وهذه الأقوال تدل بحسب الظاهر على ان الغزالي يؤمن بأحكام العقل ويعتمد على البراهين المنطقية وانه لم ينتقد الفلاسفة الا لعدم وفائهم بشروط البرهان المنطقي في مسائل ما بعد الطبيعة ، فأحكام العقل صادقة ، الا

(١) المنقذ من الضلال ، ص (٢) تهافت الفلاسفة ، ص ـ ٨ (٣) التهافت ، ص ـ ١٦

ان الفلاسفة اساؤا استعمالها ، وخالفوا شروطها . ولو وفوا بهذه الشروط لسلموا من انتقاده اللاذع . ولكن من قرأ كتاب التهافت وتصفح المسائل التي أوردها الغزالي في الرد على الفلاسفة لم يشك أبداً في موقف الغزالي من العقل في علم ما بعد الطبيعة . فهو لم يحمل على الفلاسفة لتقصيرهم في الوفاء بشروط البرهان فحسب بل هاجمهم ، كما فعل ابن خلدون بعده ، لتهديم صرحهم الفلسفي من أساسه ، معتقداً أن أحكام العقل صادقة في الرياضيات والمنطقيات والطبيعيات اما في علم ما بعد الطبيعة فان العقل المحض عاجز عن الوصول الى اليقين ، وسيتضح لنا هذا الأمر عند استعراض بعض المسائل التي كشف الغزالي عن تناقضها الداخلي وهي كلها تدل على ان الغزالي لا يقتصر على تعجيز الفلاسفة عن اقامة الدليل وتخطيئهم في البرهان فحسب ، بل تشير الى ان مسألة الصفات الالهية ومسألة ازلية العالم وابديته ، ومسألة استحالة الفناء على النفوس البشرية وغير ذلك من المسائل ، لا توزن بميزان العقل البشري ، بل يحتاج العقل في ادراكها الى عامل آخر هو الكشف الباطني والايمان القلبي والوحي الديني .

٣ — طريقة الغزالي في الرد على الفلاسفة

اما طريقة الغزالي في الرد على الفلاسفة فتشبه رد رؤساء المذاهب او زعماء الأحزاب على آراء مخالفيهم . فهو ينقد أدلة الفلاسفة كما ينقد الصيرفي الماهر الدراهم الزائفة . ويخرج منها الزيف وغير الصحيح من الفاسد ، حتى لقد أظهر في ذلك حذقاً لا مثيل له في تاريخ الفكر العربي . لم ينتقد الغزالي مذهب الفلاسفة انتقاداً عاماً مبهماً كما يفعل النقاد في أيامنا هذه ، بل انتقده انتقاداً عميقاً منظماً . فحدد المسائل التي خالف فيها الفلاسفة عقائد الاسلام ، ففندها واحدة واحدة ، وانتقد ما فيها من جهات الضعف . ومن اجل الرد على الفلاسفة قرأ الغزالي مذهبهم وألف فيه كتاباً وجيزاً سماه كتاب المقاصد ، نظر فيه نظر الباحث الذي يقرر المسائل ويحكيها على وجهها ، غير متعرض لما فيها من حق أو باطل . والسبب

في ذلك انه لم يرض لنفسه ان يظن به الغفلة عن أصل حجة الفلاسفة ، فلذلك قررها الى أقصى حدود الامكان ، ثم عاد الى ذلك في كتاب التهافت ، فأفرد لكل مسألة من المسائل بحثاً خاصاً . ومن قرأ كتب ابن سينا وقرأ بعدها كتاب التهافت اعجب بقدرة الغزالي على عرض المسائل وايضاحها . وربما كانت قراءة كتاب التهافت ضرورية لكل من أراد ان يفهم مذهب ابن سينا . فهو قد قرر حجة الفلاسفة بلغتهم واصطلاحهم وهجر في رده عليهم الفاظ المتكلمين والاصوليين ، بل اوردها كما يقول بعباراتهم في المنطق ، ودخل عليهم في ذلك كله دخول مطالب منكر لا دخول مدع مثبت ، فقطعهم بإلزامات مختلفة فالزمهم تارة مذهب المعتزلة واخرى مذهب الكرامية ، وطوراً مذهب الواقفية وجعل الفرق جميعها إلباً عليهم ، واراد ان يتفق الجميع ويتظاهروا عليهم ، فعند الشدائد تذهب الأحقاد .

وطريقة الغزالي هذه تذكرنا بطريقة القديس توما الاكويني في رده على الملحدة فهو يعرض المسألة ثم يقسمها الى وجوه مختلفة ، ويعين المطالب ثم يذكر أجوبتها ، ويحدد الشبه ثم يبين وجه الخروج منها ، ثم يورد الاعتراضات المتقابلة ويفندها . وربما كان كتاب التهافت اكمل ما وصل اليه فن الجدل المدرسي عند العرب ، فهو اكمل من كتاب الانتصار لأبي الحسين الخياط واكمل من كتاب تهافت التهافت لابن رشد من حيث اسلوبه وفنه . والفارابي وابن سينا لم يبرزا في هذا الفن ، كما ان ابا الحسن الأشعري لم يوفق في مقالات الاسلاميين لشيء من هذا ، لأنه اقتصر على عرض عام للآراء والمذاهب من غير ان يفصل المطالب ويجادل فيها . ومن قارن بين أسلوب الغزالي واسلوب ابن سينا اعجب بقدرة الأول على التحليل والافهام . فأسلوب ابن سينا هو أسلوب الفيلسوف الموزون كل لفظ من الفاظه مطابق لفكرة معينة ، ليس فيه زيادة او نقصان . اما أسلوب الغزالي فهو أسلوب الخطيب ، او أسلوب الواعظ والمعلم تتدفق الفاظه كالسيل وتجيء مفعمة بالفكر والعاطفة . وقد تجد للمعنى الواحد عنده عدة الفاظ ،

وتجد للفظ الواحد عدة معان تختلف باختلاف الكلام وسياق العبارة ، وقد تتبدل معانيه بحسب ما يخاطب به كل سائل ومسترشد . وليس في الفلسفة العربية كتاب بلغ من دقة الألفاظ ورشاقة الأسلوب ما بلغه الغزالي في المنقذ من الضلال والاحياء من حسن الاشارة ولطف العبارة ، اللهم الا كتاب حي بن يقظان لابن طفيل .

وكثيراً ما كان الغزالي يعدل عن الفاظ الفلاسفة الى الفاظ مألوفة عند الفقهاء معتادة الاستعمال عند علماء زمانه ، كما فعل في كتاب معيار العلم وكتاب محك النظر فأعانه ذلك على نشر أفكاره ، قال ابن طملوس : « غير اني عندما تصفحت كتب ابي حامد رأيت من تلويحاته واشاراته التي تكاد ان تكون تصريحاً ان له فيها (أي في صناعة المنطق) تآليف ورى في تسميتها عن ان يسميها باسم المنطق . وهذه الكتب منها معيار العلم له وكتاب محك النظر وهو دون المعيار وكتاب القسطاس المستقيم ومقدمة المستصفى في الفقه ، ومنها مقدمة المقاصد - فهذه الكتب التي الفها ابو حامد هي من صناعة المنطق ، لكن ابا حامد غير اسماء الكتب واسماء المعاني المستعملة فيها ونكب عن الفاظ أهل الصناعة الى الفاظ مألوفة عند الفقهاء معتادة الاستعمال عند علماء زمانه . وما فعل هذا كله الا حذراً وتوقياً من ان يجري عليه ما جرى على غيره من العلماء الذين اتوا بالغريب وغير المألوف من الامتحان والامتهان . فصانه الله عن ذلك بلطفه وبما اعطاه من بديع الحيلة . فانه عاشر جميع الاصناف وولج معهم الولوج الذي شاركهم به المشاركة التامة حتى صار اماماً في كل صنف ورئيساً في كل مذهب »[1]

فالغزالي لم يستعمل لغة الفلاسفة واصطلاحهم الا في كتاب المقاصد وكتاب التهافت أما في كتبه الأخرى فقد غير اسماء المعاني ، وفضل الألفاظ المألوفة عند أهل زمانه على الألفاظ الفنية الغريبة . ولولا ذلك لما أقبل الناس على مطالعة كتبه ولما اعجبوا بما فيها من حسن الترتيب وجودة النظام والتبويب .

(١) ابو الحاج يوسف بن محمد بن طملوس ، كتاب المدخل لصناعة المنطق ، طبعة مجريط ١٩١٦ ، ص ١٣

٤ — موضوع الخلاف بين الغزالي والفلاسفة

ولكن ما هو موضوع الخلاف بين الغزالي والفلاسفة ؟

لقد أشار الغزالي في كتاب التهافت الى ان الخلاف بين الفلاسفة وغيرهم انما يرجع الى ثلاثة أقسام :

١ — قسم يرجع النزاع فيه الى الفاظ مجردة كتسميتهم صانع العالم جوهراً مع تفسيرهم معنى الجوهر بأنه الموجود لا في موضوع اي القائم بنفسه الذي لا يحتاج الى مقوم يقومه . ولا مجال لابطال هذا في نظره لأن المعنى اذا اتفق عليه في الذهن يرجع الكلام في التعبير عنه الى اللغة والاصطلاح .

٢ — والقسم الثاني من هذه المسائل لا يصدم اصلاً من أصول الدين كالعلوم الرياضية والمنطقية فليس شيء منها يتعلق بأمور الدين نفياً واثباتاً . وهي أمور برهانيه لا سبيل الى مجاحدتها . ومن ظن ان المناظرة في ابطال هذا من الدين فقد جنى على الدين وعلى نفسه معاً .

٣ — والقسم الثالث يشتمل على المباحث الالهية التي تصدم أصلاً من أصول الدين ذكر الغزالي منها في كتاب التهافت عشرين مسألة غلط فيها الفلاسفة فبدعهم في سبع عشرة مسألة وكفرهم في ثلاث هي القول بقدم العالم ، واقتصار علم الله على الكليات دون الجزئيات ، وانكار حشر الأجساد .

لا يتسع المقام الآن لاستعراض جميع هذه المسائل ، ولو أردنا استقصاء مسألة واحدة منها استقصاء تاماً لاحتجنا الى مقدمات طويلة من فلسفة ابن سينا والفارابي . فلنقتصر اذن على الاشارة الى بعض القضايا التي تدل على ان الغزالي قد وفق في نقده لوضع اصول جديدة لفلسفة عامة جديدة . وهذه القضايا التي نريد ذكرها على سبيل المثال هي مسألة المعرفة ، ومسألة العالم والزمان والمكان ، ومسألة السببية .

يتبع : ——— جميل صليبا

آل بكتكين ـ مظفر الدين كوكبري

او

امارة اربل في عهدهم

(٥٢٢ هـ — ٦٣٠ هـ)

١ — كلمة

تكونت في العراق امارات عديدة نالت مكانة في التاريخ . وأغلبها لم تكسب ثقة الشعب ولا حصلت على الاعتماد المطلوب في الادارة أو في خدمة الحضارة والعلوم والآداب . والامارات الصغيرة لا يتعرض لذكرها أحياناً بأكثر من العلاقات المهمة الخاصة بالدول الكبرى ، مما أدى الى اغفال أعمالها الداخلية وأوضاعها الذاتية وبذلك صعب البحث لقلة وسائل الوصول الى حقيقة التاريخ لهذه الامارات وتفاصيل حياتها .

وان هذه الامارة من تلك الامارات الصغيرة تكونت في اربل سنة ٥٢٢ هـ — ١١٢٨ م وكانت أقطعتها دول الأتابكة في الموصل ايام عماد الدين زنكي (٥٢١ — ٥٤١ هـ) لأحد امرائها (زين الدين علي كوچك) . فصارت تابعة لها مدة . ثم تطورت بها الحالات فتابعت (الدولة الأيوبيه) في الشام ، ثم مالت الى (الخلافة العباسية) لما رأت من جفاء الأيوبيين ، فعدلت عنهم . تقلبت بها الأوضاع السياسية في أطوارها كلها . وهكذا كانت في علومها وآدابها تابعة لهذه الدول . فلم يطرأ عليها فتور ، ولا خلل فعاشت الى رمضان سنة ٦٣٠ هـ — ١٢٣٣ م ، فبلغت عمراً تجاوز المئة سنة تمكنت في خلاله من التوجيه السياسي والاجتماعي والثقافي ، وولدت اتصالاً سياسياً وعلمياً بالأقطار الاسلامية العديدة من عربية وغير عربية ، وأحسنت الادارة ، وقامت بمشاريع خيرية مهمة نالت

بها مكانة من نفوس الشعب ، وبقي ذكرها مردداً على الألسنة وفي بطون التواريخ ، لهج به القاصي والداني ، نالت من سمو المكانة ما لم تبلغه الامارات التي توالت على إربل قبلها أو بعدها ...

وربما زاد ذكرها وفاقت غيرها من امارات كبيرة أو دول شغلها عن الأمر الأهم ما شغل من آمال خسيسة قضتها في حروب ، أو ألهتها الاضطرابات من جراء سوء التدبير ، ومن المغامرات التي لا طائل تحتها .

وهذه الامارة لا تزال آثارها شاخصة للعيان ، جليلة في ماهيتها وفي أثرها وتأثيرها ، وصلت الى أقصى ما استطاعت ، فكانت في كل صفحة من صفحاتها تدعو للالتفات ، وتستوقف النظار ، وتستحق التدوين في عامة أمورها حتى في علاقاتها الخارجية بل ان هذه العلاقات مدونة اكثر مما هو خاص بأصل الامارة وداخليتها . لا سيما أيام آخر امرائها (مظفر الدين كوكبري) سارت من أول نشأتها في طريقة مثلى التزمتها . واستمرت في تكامل وعظمة حتى أيامها الأخيرة . لم تدع لتطرق الفساد اثراً ، ولا لسوء الادارة مجالاً ولم تتسرب اليها الأهواء ، ولم يداخلها الغرور وأمل الاستيلاء . وانما اعتبرت استثمار المملكة واستغلالها من خير الوسائل وأجلها مقرونة بحسن الادارة ، وجليل العمران ، فأخذت بنصيب وافر مما غفل عنه كثيرون أعماهم الجهل أو الحرص والطمع ...

ويهمنا ان نعلم عن هذه الامارة ما كان من أمرها مجموعاً ، وندوّن ما عرف من حياة ، ومن اتقان عمل بقدر ما أمكن العثور عليه من الوثائق ، وما سمحت به النصوص التاريخية . وكأنّ امراءها تعاهدوا على الصلاح والتزموا الاصلاح ، وتعاقدوا على الخير فضربوا رقماً قياسياً للادارة الحقة ، والسياسة القوية حتى جاءت أيام (كوكبري) ، فظهرت اكثر ، وبدت أوضح .

ولم يكن خيرهم مقصوراً على أعمالهم لأنفسهم أو لمدينتهم ، بل تجاوزوها لخدموا الاسلام في جهادهم ، ورعوا الثقافة ببذلهم للمدارس ، وبالصرف بسخاء لاتصال العلوم والآداب ، فنالت هذه الامارة الفخر والأجر ، وعاشت بهناء واطمئنان

مرغوباً فيها من الأهلين ومن الخارج ، فكانوا في ارتباط بالعلماء لمختلف الاقطار .

كانت هذه الامارة في الأصل إقطاعاً كأمثالها من امارات عديدة ، تولت إربل أيام الأتابك عماد الدين زنكي في رمضان سنة ٥٢٢ هـ — ١١٢٨ م ، ودامت على الولاء والموالاة للأتابكة من أسرته الى ١٤ جمادى الآخرة سنة ٥٨٠ هـ — ١١٨٤ م وفي التاريخ المذكور مالت الى (الدولة الأيوبية) . وبقيت على الولاء لها مخلصة الاخلاص كله ، لم تلعب بها الأهواء الى سنة ٦٢٧ هـ . ولما رأت من حكم الملك الأشرف[1] ما رأت من جفاء وصدود ، بل من اتفاق بينه وبين بدر الدين لؤلؤ على الوقيعة بها وعزم بدر الدين على أخذ اربل منها مالت الى الخلافة العباسية ، وذهب مظفر الدين كوكبري في المحرم سنة ٦٢٨ هـ — ١٢٣٠ م الى بغداد بعد أن استنجد بالخليفة المستنصر بالله ، فنهى عن التدخل في أمره ، ومن ثم انتمى اليه .

وفي خلال ادارة هذه الامارة لم تدع مجالاً للاطماع ان تتحكم ، بل كانت في يقظة تامة وانتباه زائد لما كان يجري في العلن أو الخفاء فلم تقصر في إعداد العدّة للطوارئ وانما كانت على استعداد لكل ما يتوقع . وفي أيام انقيادها لحكم الأتابكة وتوسع اداراتهم كانت تستخدم قوة جيشها لمصلحة الأتابكة ، ولغاية التمكن من القضاء على حكم المجاورين فكان عملها كبيراً ، فالارتباط مشهود في السياسة العامة ، وملحوظ دوماً في عهد الأتابكة ، ونعرف درجة ذلك في الاتصال بدولة بني أيوب ، ثم بالخلافة العباسية .

من الضروري معرفة ذلك ، وادراك علاقته بالدولة السلجوقية ، وبالخلافة العباسية والا كنا بعيدين عن الاطلاع على كنه هذه الامارة والاحاطة بموقعها ، أو غافلين عن مجرى الأمور في التاريخ العراقي والاسلامي وسياسته الخارجية .

وهذه المعرفة لا تؤدي الى الهدف المطلوب حتى نعلم سياسة اربل الداخلية وادارتها

(١) تملك الرها سنة ٥٩٨ هـ ـ ١٢٠١ م وكذا حران ، وانتمى اليه بدر الدين لؤلؤ مما دعا الى أن يميل كوكبري الى المعظم والظافر غازي : وهكذا توترت العلاقات .

المحلية ودرجة علاقتها بالاهلين عسكرياً وادارياً وثقافياً، ومقدار ما أسدى أمراؤها من خدمات متصلة باربل مباشرة .

تحتاج كل هذه الى استعراض الوقائع وتثبيتها، وهي مبعثرة هنا وهناك في طيات كتب التاريخ، فمن المحتم علينا أن نثيرها، ولا نبالي بالصعوبات ونبذل المستطاع في تنظيم هذه الجهود، ونقدم ما يتجدد عندنا من المعرفة ليضاف، فتنجلي الحالة بأمثلة لا تستغني بالموجود بل تتطلب الاكمل والكمال .

واذا كان مجرى الحوادث لا يدرك الا من الوقائع الثابتة والاستعانة بها ليؤدي الأغراض المطلوبة اشارة أو صراحة فان الاستكثار منها، ومراعاة الحالة المشهودة والوضع الجغرافي مما يؤدي الى معرفة القدرة التي كسبتها هذه الامارة من ضبط الأمور فتظهر الادارة الحكيمة والسياسة المستقيمة التي بلغتها .

ولا يكفي هذا وحده، وانما نحتاج أكثر الى ما يعين أوضاع الدول الاسلامية في حالاتها السياسية نحو الامارات، ونحو بعضها . وليس لدينا الا ما يلهمه التاريخ مقروناً بالوضع المشهود، فنرى الصعوبة كبيرة والمهمة شاقة . وربما كان التصدي لها تعرضاً لما يعد عملاً متعباً جداً .

واننا في هذه الحالة استنطقنا نواحي عديدة أمثال ما ذكر . ومن أهم ما هنالك العشائر وما فيها من طاعة، وما يبدو من أوضاع جغرافية تفسر الحوادث ومثل هذه لا تدرك بسهولة، فلا تفي الوقائع بالحاجة اذ قد تأتي من جهة واحدة، ويتخللها اعلانات وتهويلات تتعلق ظاهراً بالخدمة العامة وينطوي باطنها على آمال ونيات تنزع الى الاستيلاء والتحكم، أو اختلاق معاذير لا أصل لها، فتظهر في العلاقات الخارجية . وهنا الانتباه واليقظة .

نرى المثبطات كثيرة في الوقوف على مثل هذه الأحوال وادراك كنهها، والخذلان بين، تكاد تكون القدرة مفقودة . ولعل في هذه النبذة ما يكون أصلاً للتوسع فيضاف ما أغفل أو أهمل فيتوالى التتبع العلمي ليكمل الغرض التاريخي .

وهذه الكلمة نتيجة إلهام وقائع، ومجاري تاريخية تعين ما جال في الخاطر،

وما رغبنا في بيانه من خلاصة المطالعات في تكون هذه الامارة ، ودوامها ، وانقراضها ، أو معرفة سياستها الداخلية والخارجية حتى صارت في طيات التاريخ ، ففي حياتها هذه غرابة وفي ادارتها قدرة التمكن من ناصية الأمور ، ودوام حياتها من أغرب الغرائب بين دول عديدة لها آمالها وأمانيها ، وقد ندرك نياتها من اتفاقاتها ومعاهداتها وما طرأ على هذه الامارة من جرائها ، وللمجاورة دخل في الايضاح ، وللعداء طريقة في الاظهار والاعلان . والنزعات لا تحصى ، والتقصير في التدوين لاينكر . والعلوم والآداب نالت مكانة ونجحت نجاحاً باهراً لا يقل عما سبقه ، زادت في المصانع الخيرية وأعمال البر ، وفوت ما استطاعت من علاقات ثقافية .

نحن في حاجة عظيمة الى التنظيم والاظهار لتاريخنا هذا وأمثاله . جعلت (التاريخ السياسي) قسماً ، و (التاريخي العلمي والأدبي) قسماً يتلوهما مايتعلق بالحضارة والعمران جعلناه قسماً آخر بعنوان (تاريخ المجتمع) وبعد ذلك كله أنهينا القول بكلمة ختامية .

٢ — التاريخ السياسي

١ — السياسة الدولية

عاشت الدولة العباسية بصولة وقوة من سنة ١٣٢هـ — ٧٤٩ م ودامت مدة بلغت بها أوج الكمال ، ثم تناوبتها أحداث فلت من غربها وخضدت من شوكتها بحيث اضطرب فيها حبل الأمن داخلاً وخارجاً واستمرت على ذلك حتى قضي على استقلالها بتغلب (البويهيين) ودخولهم بغداد في ١٢ جمادى الاولى سنة ٣٣٤هـ — ٩٤٥ م . وأزيل حكم هؤلاء من بغداد بعد مضي أكثر من مائة سنة في ٢٥ رمضان سنة ٤٤٧هـ — ١٠٥٥ م بتغلب (دولة آل سلجوق) ، فحلت محلهم . وهذه الدولة ظهرت بقوة فائقة سيطرت بها على الخلافة وعلى أقطار عديدة . ولم تقنع بالطاعة وحدها ، ولا اكتفت بالاذعان بل أرادت ان تكون هذه الامارات خالصة لها فأبدلت اماراتها بمماليك من الترك أو امراء منهم وبينهم من تسمى بـ (الأتابكة) مثل (الخوارزمشاهية) ، و (أتابكة الموصل) ، و وأتابكة آخرين ، فنجوا الامارات

الأولى وأقصوها عن الحكم ، وصار أمر البلاد بأيديهم رأساً فلم يقنعوا بالسلطة العامة ، بل انتزعوا الممالك، وقضوا على اماراتها، فصارت في حكم أمرائها اقطاعاً لهم .

جروا على ذلك . وكادوا ينجحون في التسلط على الممالك واماراتها ويسيطرون على البلاد وأن يكونوا بمأمن من الغوائل لو لا ان الأمور لم تجر دائماً طبق المراد ، وانما تولد الشقاق في نفس الأسرة المالكة فداخل أفرادها الطمع ، وامراءها الاثرة ، فتطرق اليها الخلاف مما ادى الى التطاحن والخصام ، والهى عن السيطرة المنشودة أو التمكن من الادارة بتلك الهمة .

وشعر أهل الاقطاع من الاتابكة بقوة ، وجل ماعملوا انهم ناصروا بعض الأمراء للتمكن واستعان هؤلاء الأمراء بهم لصد غائلة المطالبين بالسلطنة ، أو الميل الى الثائرين من الأسرة المالكة ، فولد ذلك نخوة في نفوس الأتابكة ، فأضمروا الانفصال عن أصل الدولة . شعروا بأن الضعف استولى عليها ، وكان هؤلاء الأتابكة قوة بيدها زمام الأمر ، فتظاهروا بالتابعية ، ولكنهم انسلوا منها ، وهكذا مضوا في طريق الاستقلال ، ومن أشهر هؤلاء (اتابكة الموصل) ، وان امارة اربل كانت تابعة لها .

والخلافة العباسية حاولت الاستفادة من ضعف الدولة السلجوقية وانشقاقها على نفسها ، وهي تحرق الارم على هؤلاء المتغلبة الذين سلبوها استقلالها ، ولكنها كانت عاجزة لا تملك من القوة ما تستطيع عمله ، وبغداد وحدها لا تكفي ، وهي أيضاً في تشتت آراء ، واضطراب أوضاع ، وليس في وسعها رفع التغلب ، وقد حرمت الوسائل . واذا كانت قد استطاعت في أيام المقتفي رفع التسلط عن بغداد سنة ٥٤٧ هـ ١١٦٢ م فلم تقدر أن تقاوم الأتابكة ، ولا ان تسترد ما تغلبوا عليه ، ولم تتمكن حتى من اربل ، أو من دقوقا ، أو تكريت ، أو شهرزور ، أو الحلة . . . ولم تقدر ان تمس الأتابكة في الموصل ، ولا الأيوبيين في الشام وانما تمكنت من بعض الأطراف .

وفي هذه الحالة من ضعف آل سلجوق ، ومن الخلافة تيسر للأتابكة أن يعيشوا فيهددوا الامارات الصغيرة المجاورة والخلافة معاً حتى بعد انقراض الدولة السلجوقية

سنة ٥٩٠ هـ — ١١٩٤ م . ولم يكن في مقدور الخلافة أن تخضع أتابكة الموصل ولا أتابكة اربل ، بل كانت مهددة بالخوارزميين ، فصار هؤلاء يحاولون ان يحلوا منها محل الدولة السلجوقية ابان تغلبها مما ولد لها مشاكل بسبب هذه المشادة التي نهكت الدولة العباسية ، ونفرت الأهلين منها أيام الخليفة الناصر خاصة .

عاشت دولة الأتابكة ولم تخش الدولة العباسية ، ومثلها دولة الأيوبيين . وهكذا كانت الامارات المشتقة من الاتابكة و (امارة اربل) إحداها .

وموضوع بحثنا (امارة اربل) ، وهذه لم تتمكن الخلافة من اخضاعها ، ولا دولة الاتابكة في الموصل استطاعت القبض على قيادها . ولا الدولة الايوبية قدرت أن تتسلط عليها ، بل كل واحدة كانت تخطب ودّها ، وترغب في أن تميل اليها لتعديل الكفة ، والاحتفاظ بالموازنة . وكانت سياستها التهديد للواحدة بالأخرى على الرغم من ضعفها بل برهنت مراراً على قدرة في جيشها في واقعة (حطين) ، وفي حادث هجوم أتابكة الموصل عليها أيام مجاهد الدين قايماز وانفصاله من اربل ، وفي حادث قطعها العلاقات من الدولة الأيوبية ...

ويصح أن تعتبر أدوارها التاريخية :

١ — تابعيتها لأتابكة الموصل . من سنة ٥٢٢ هـ الى سنة ٥٧٨ هـ .

٢ — انقيادها لآل أيوب . من هذا التاريخ الى سنه ٦٢٧ هـ .

٣ — طاعتها للخلافة العباسية . من ذلك العهد الى سنة ٦٣٠ هـ .

والنصوص التاريخية تعين أوضاعها . كانت تحسب بعيداً وتفكر في أمرها تفكيراً عميقاً ، ولم تترك شؤونها للمقدرات ، أو لتلاعب الأهواء بل كانت المسيطرة على الحالة . الحاكمة على الموقف .

وفي هذه كلها ما يعين وضعها السياسي بين (الدول الاسلامية) ويلتمس في حسن التدبير ، والالتفات الى تنظيم الحالة المالية في ميزانيتها . وفرت مبالغ مهمة للطوارئ ، وأخرى للجيش ، وهكذا للمشاريع الخيرية وسائر الأمور . ولم تقف في حالاتها عند ذلك بل راعت أمر المسلمين ، وقامت بالمصالح العامة من مساعدات

حربية ، وفلك أسرى ، ومشاريع ثقافية ، وصلات علمية ، ومعاهد دينية . ولعل في إلمام الوقائع ما يصير اكثر من هذا الاجمال فتنجلي أمورها التاريخية واضحة لا خفاء فيها ولا ابهام .

ولا شك ان تاريخ هذه الامارة يستحق البحث من وجوه ، وأرجو ان يكون هذا نواة صالحة للتوسع .

٢ — آل بكتكين

(امراء هذه الأسرة)

ان السياسة الخارجية تظهر جلياً في هذه الامارة وعلاقاتها بالدول ، وكذا الارتباط بالأهلين وأمر ادارتهم داخلياً وهذه كلها لا تتعين الا في وقائعها المعروفة وما قامت به من أعمال . وكل ما نعلمه ان هذه الامارة كانت إقطاعاً من أتابكة الموصل في شهر رمضان سنة ٥٢٢ هـ — ١١٢٨ م فقامت أعمال حربية وسياسية وثقافية .

ظهرت قدرتها فيما حكته من أرض ما بين الزابين المسماة بـ (صهران) أو (صوران) من مملكة اربل . وفي اقطاعها ، ومتابعتها للموصل ، ثم انقيادها للدولة الأيوبية فالخلافة العباسية مما توضحه الحوادث التاريخية والشؤون السياسية في تفسير هذا الميل ، ويتخلل ذلك بعض الأوضاع الخارجية والداخلية معاً .

وفي امارتهم هذه أرضوا الأهلين ، فلم يكونوا عتاة جبارين ، ولا أرهقوا اربل اكثر مما تطيق ، وانما عاملوها بالحسنى ، وراعوا رغبتها ، وولدوا فيها ثقافة بلغت من الشهرة مبلغاً عظيماً ، فصارت مطمح أنظار العلماء ، ومحط رحال أهل الثقافة ، وآثار هذه الامارة في اربل لا تحصى . ويتعين ذلك بالكلام على كل واحد من امرائهم حتى نختمها بكبير هذه الأسرة وآخرهم مظفر الدين كوكبري ...

وهذه قائمة امرائهم .

١ — زين الدين علي كوچك بن بكتكين ولي اربل سنة ٥٢٢ هـ .

٢ — مظفر الدين كوكبري · حكمها من سنة ٥٦٣ هـ حين وفاة والده ·

٣ — زين الدين يوسف بن التكين بن علي كوچك · صار أميراً مكان اخيه سنة ٥٦٧ هـ ·

٤ — مظفر الدين كوكبري للمرة الثانية والأخيرة · وليها بعد وفاة أخيه سنة ٥٨٦ هـ ودام حكمه الى ان توفي في رمضان سنة ٦٣٠ هـ ·

وتهمنا معرفة تاريخ هذه الامارة باعتبارها جزءاً من تاريخ العراق لا سيما وقد حصلت على مكانة ذائعة · وكان ابن المستوفي وضع تاريخاً لها سماه (نباهة البلد الخامل بمن ورده من الأماثل) لم يصل الينا منه إلاّ ما علم اخيراً من وجود جزء منه في لندن · وعرف بعض النقل منه مفرقاً هنا وهناك · وآخرون لخصوه أو كتبوا تاريخ اربل ممن لم تصل الينا تواريخهم [1] ·

وغالب المراجع الأخرى تتعلق بالموصل ، أو بالشام وأنحائها ، وبالخلافة العباسية وصلتها بمؤرخيها ويغلب على هذه الشمول ، أو الخصوصية بدولة الأتابكة ، أو بدولة آل أيوب · وفي هذه تعرض لبعض المطالب · وقلما نرى من الحوادث ماوله شهرة عامة · لم تصل الينا الا نتف من هذا التاريخ مبددة · وغاية ما يقال فيها انها (تاريخ علاقات) ، فالنقص فيها ظاهر ، وقد رجعنا اليها ، والى النقود المضروبة ، والمدونات العديدة · مزجناها بمشاهدات الأوضاع الطبيعية أو الجغرافية ، والعشائر والأهلين · والآثار الأدبية ، والعلمية · فجمعنا ما يصلح من تاريخ هذه الامارة بالرجوع الى الأتابكة وتاريخهم في العهد الأول ، والى الدولة الأيوبية في العهد الثاني ، والى الخلافة العباسية ومدوناتها في الزمن الثالث من أدوار حياتها · فتكونت جملة صالحة مما يأتي النقل منه في حينه · وعلى كل حال كانت هذه الامارة جديرة بالبحث ·

٢ — زين الدين علي كوچك

هو ابن بكتكين ، أول أمراء هذه الأسرة باربل · كان استولى على اربل

(١) كشف الظنون ـ تاريخ اربل · والاعلان بالتوبيخ ص ١٢١ ·

عماد الدين زنكي في رمضان سنة ٥٢٢ هـ[1] فجعلها اقطاعه . وعرف بـ (كوچك) لأنه كان صغير الجسم . أصله من التركمان من مماليك قسيم الدولة والد عماد الدين .

وفي الغالب لم يعرف عن الامارات الصغيرة مثل اربل ، ولا ذكر عن أمرائها ما يشفي غلة . فاذا علمنا بعض اسماء أمراء اربل مثل أبي الهيجاء ، وابنه الأمير فضل[2] فلا نعرف اكثر من ذلك . ولما قتل قسيم الدولة سنة ٤٨٧ هـ — ١٠٩٤ م ما كان عماد الدين بلغ العشر سنوات . وكذا كان زين الدين علي كوچك صغيراً . فتقلبت الأحوال بعماد الدين زنكي ، واجتمع اليه اعوان والده حتى دخل الموصل والياً في ١٠ شهر رمضان سنة ٥٢١ هـ — ١١٢٧ م فأسس امارة الأتابكة في الموصل وفي رمضان سنة ٥٢٢ هـ — ١١٢٨ م استولى على اربل ، فصارت اقطاعاً لزين الدين وأصبح تابعاً لامارة الموصل .

تحولت الأحوال بهذه الامارة وتغير وضعها فمالت للأيوبيين وتم الاتفاق بينهما في ذي الحجة سنة ٥٧٩ هـ - ١١٨٤ م وبعدها في سنة ٦٢٧ هـ انحرفت عن الدولة الأيوبية ، وفي المحرم سنة ٦٢٨ هـ — ١٢٥٠ م ألحقت بالخلافة العباسية حتى انقرضت هذه الامارة في رمضان سنة ٦٣٠ هـ بوفاة مظفر الدين كوكبري .

وزين الدين علي كوچك أرضى دولة الأتابكة لما قام به من خدمات فحصل منها على اقطاع اخرى مثل الهكارية (العمادية وأنحائها) ، وعقر الحميدية وحران وتكريت وشهرزور . وتقدر مكانة هذا الاقطاع في الخدمات التي أسداها بل اعتقد ان دوام ملك الأتابكة وتوسعه مدين لاربل وحسن ادارة المترجم فيها ، والجيش الذي استخدمه في القضاء على الامارات الصغيرة .

وكان رجال عماد الدين زنكي أصحاب مواهب لم يتهيأ مثلهم في دولة الا قويت ادارتها ونشطت في حروبها ، واكتسبت سياسة مكينة في قوام حكم ،

(١) كتاب الروضتين طبعة سنة ١٢٨٧ وادي النيل بمصر القاهرة ج ١ ص ٣٠
(٢) الاعتبار لأسامة بن منقذ ص ٨٧ طبعة جامعة برنستون الولايات المتحدة .

وتجلت قدرتها . ومن أبرز رجالها نصير الدين جقر بن يعقوب ، كان نائب عماد الدين زنكي . ولما قتل في ذي القعدة سنة ٥٣٩ هـ — ١١٤٥ م استقر رأي الأتابك في ان يكون (زين الدين علي كوچك) نائبه على الموصل ، ولم يتعرض لاقطاعه في اربل وغيرها ، وبقيت هذه الاقطاعات في أيدي نوابه .

قال ابن الأثير في أتابكة الموصل :

« استقر زين الدين وتمكن ، وسلك بالناس غير الطريق التي سلكها نصير الدين ، فاطمأن الناس وأمنوا ، وازدادت البلاد معه عمارة . » اهـ

وقال الفارقي في تاريخه :

« كان قد قتله غلمانه في ٨ ذي القعدة من السنة ورتب في الموصل زين الدين علي كوچك وكان لقي الناس من نصير الدين شدة من الجور والظلم والقتل والمصادرات والأقساط فلما ولي زين الدين أزال ذلك جميعه فأحسن الى الناس والرعايا وجميع البلاد ورأى الناس منه كل خير الى ان مات » اهـ [1] ومدح ابن القلانسي سيرته على خلاف ما جاء في تاريخ الفارقي .

دام استقرار زين الدين علي كوچك مدة حياة عماد الدين زنكي ، وبعد ان قتل زنكي في ٥ ربيع الآخر سنة ٥٤١ هـ ١١٤٦ م تمكن زين الدين في الدولة الأتابكية تمكنا عظيماً [2] . أقره الأتابك سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي (٥٤١ هـ — ٥٤٤ هـ) في نيابة الموصل ، وزاد في اقطاعه كما كان ذلك ايام والده ، ولم يتغير شيء من الوضع . وكيف يتغير وكان قد أزال كل تذمر كان في نيابة سابقه ولو تجنب كل صاحب سلطة مما يتذمر منه من سلف لبلغت الادارة عندنا حداً لائقاً . فلم يختل أمر في الادارة ، ولا طرأ فساد .

ولا يهمنا التوسع في ادارة دولة الأتابكة ، وانما المقصود أن نعرف ادارة اربل في أيام هذه الامارة والا فان أعمال المترجم الخيرية في الموصل لا تنكر ،

(١) تاريخ أبي يعلى حمزة ابن القلانسي ـ هامش ص ٢٨١ وفصل ابن القلانسي قتله نصير الدين جقر .

(٢) تاريخ الأتابكة في الموصل ص ١٤٧ وفي ابن خلكان توفي عماد الدين زنكي في ١٥ ربيع الآخر .

واعماله مشهودة ، وهي مشرّفة له وقدوة لمن جاء بعده ومن أهمها مدرسته ، كما انه قبض على زمام الأمور ، وأبدى قدرة تضاءلت دونها غيرها ، فاكتسب الثقة التامة من الأهلين والأتابكة معاً . ورافقه التوفيق في ادارته ونال التوجه بكل معناه .

وهذه لم تمنع ان يلتفت زين الدين علي كوچك نحو اربل ، ومراقبة نوابه فيها . فكلّ منهم أراد ارضاءه في نيابته في الطريقة التي مشى عليها في الموصل ، فحاول هؤلاء النواب ان يتخذوا هذا الأمير قدوتهم في ادارة اربل ، أو رسم لهم ما أراد فنفذوا حرفياً ، وقاموا بمثل ما قام به هذا الرجل الكامل من اعتدال وتبصر وعمل نافع .

دام في الخلاصة لسيف الدين غازي الى ان توفي في آخر جمادى الآخرة سنة ٥٤٤ هـ – ١١٤٩ م ، فولي أمر الأتابكة بعده اخوه قطب الدين مودود (٥٤٤ هـ – ٥٦٠ هـ) فأبقاه على ما كان عليه ، وزين الدين مدبر دولته وصاحب رأيه ، فكان نعم المدبر والمشير لصلاحه وخيره وحسن مقاصده مع شجاعة تامة وفروسية مشهورة[1] .

وهنا نقول ان ادارة اربل ظهرت في نوابه وحوادثه الأخرى البارزة .

١ – انه سار بجيش على بغداد لمناصرة السلطان محمد بن السلطان محمود من رجال الدولة السلجوقية . وكان هذا الحادث سنة ٥٥١ هـ – ٥٥٢ . وفي حربه هذه كان يميل الى الدولة العباسية ، ويناصرها باطناً ، ولم يقصد الوقيعة بها ، وجرت مراسلات بينه وبين الدولة العباسية أظهر فيها ميله اليها[2] .

يدل على ذلك ما جرى من الاحتفال به عندما قصد حج بيت الله الحرام سنة ٥٥٨ هـ ، فمر ببغداد وكان قد نهاه كثيرون من جراء ما وقع من حرب

(١) ابن خلكان : طبعة سنة ١٢٧٥ هـ ببولاق مصر . (٢) التفصيل في الكامل لابن الأثير ج ١١ ص ٨٦ طبعة بولاق وابن القلانسي ص ٣٤٣ وفي أخبار الدولة السلجوقية المسمى (زبدة التواريخ أخبار الأمراء والملوك السلجوقية) لصدر الدين الحسيني بتصحيح محمد اقبال مدرس اللغة الفارسية في فنجاب طبعه في لاهور سنة ١٩٣٣ م .

بغداد ، حذره اصحابه من جراء مناصرته الملك محمد السلجوقي . فلما وصل الى بغداد أكرمه الخليفة المستنجد بالله العباسي ، واجتمع به وأمر بالخلع عليه . وفي هذا الاحتفال أبدى أموراً كانت محل التفات الخليفة والزيادة في انعامه .

وذلك انه لما لبس الخلعة وكانت طويلة عليه لقصره مدّ يده الى كمّانه واخرج ما شدّ به وسطه ، وقصر الجبة ، فنظر الخليفة المستنجد اليه ، فاستحسن ذلك منه وقال لمن عنده مثل هذا يكون الأمير والجندي لا مثلكم . فلما دخل قبل يده ثم خرج من عنده بعد ان حادثه بالتركية وكان المستنجد يتكلم بها جيداً ، فلما خرج نظر اليه المستنجد من شباك وقد اخرج شيئاً من السيف الذي انعم به عليه من الديوان فلم يره جيداً ، وهو يومي برأسه يعني انه غير جيد ، فأرسل اليه سيفاً آخر ، وقال للرسول :— يقول لك أمير المؤمنين ذاك السيف يترك ، وهذا تقاتل به اعداء امير المؤمنين واعداء المسلمين .

فرد وجهه وقبّل الأرض ، وتقلده . ثم مضى في طريقه الى الحج ، فأحسن الى الناس في الطريق وكثر الصدقات [١] .

٢ — في سنة ٥٥٥ هـ كان قد سار سليمان شاه من الموصل الى همذان ، وكان زين الدين معه ليتولى السلطنة ، فرأى في طريقه ما رأى من خلل في ادارة الجيش وتسلط الأمراء ، فأبدى حكمة وعقلاً في الانسلال والرجوع لما عرف من نتائج تؤدي اليها الحالة [٢] .

٣ — في سنة ٥٥٩ هـ ارسله قطب الدين مودود منجداً الملك العادل نور الدين وكان قد كاتب نور الدين الأطراف ، وكاتب العباد والزهاد المنقطعين فذكر لهم ما يلقي المسلمون من الافرنج ، وما ينالهم من القتل والأسر والنهب ويستمد منهم الدعاء ، ويطلب منهم ان يحثوا المسلمين على الغزاة ، فأمدوه للهياج الحاصل في الممالك الاسلامية من جراء ما قام به هؤلاء الزهاد والعباد من دعوة ، فحذر

(١) الدولة الاتابكية ص ٢٠٧ . (٢) الكامل لابن الأثير ج ١١ ص ١٠٣ .

الملوك والأمراء ان يفسد عليهم الأمر في ادارتهم ، فكانت (واقعة حارم) [١] .

٤ — في سنة ٥٦٣ هـ سار زين الدين الى اربل ، وسلم جميع ما كان بيده من البلاد والقلاع الى الاتابك قطب الدين ، فمن ذلك سنجار وحران ، وقلعة عقر الحميدية ، وقلاع الهكارية جميعها ، وتكريت وشهرزور .

وسبب ذلك انه طعن في السن واصابه عمى وصمم ، فتنازل عن كل ما في يده من اقطاعات وأبقى اربل وحدها بيده .

٥ — في السنة التي ذهب بها الى اربل توفي في ١١ ذي القعدة سنة ٥٦٣ هـ — ١١٦٨ م . وكان استولى عليه الهرم ، وضعفت قوته . وكان في اربل مرقده الأخير [٢] . ولا يزال معروفاً .

٦ — حياته الخاصة : كان خيراً عادلاً ، حسن السيرة جواداً ، محافظاً على حسن العهد ، واداء الامانة ، قليل الغدر بل عديمه . وكان اذا وعد بشيء لا بدّ له من ان يفعله وان كان فعله خطيراً . وكان حاله من أعجب الأحوال بينما يبدو منه مايدل على سلامة صدره وغفلته حتى يظهر منه مايدل على افراط الذكاء وغلبة الدهاء .

قال ابن الأثير : « بلغني انه اتاه بعض اصحابه بذنب فرس ذكر انه نفق له فأمر له بفرس فتداول ذلك الذنب ١٣ رجلاً كلهم يأخذ فرساً ، فلما احضره آخرهم قال له : اما تستحيون مني كما استحي منكم قد احضر هذا الذنب عندي ١٣ رجلاً وانا اتغافل لئلا يخجل احدكم اتظنون انني لا اعرفه بلى والله انما اردت ان يصلكم عطائي بغير منّ ولا تكدير فلم تتركوني وامر له بفرس آخر ... » اهـ

وكان يعطي كثيراً ويخلع عظيماً ، وكانت له البلاد الكثيرة ، فلم يخلف شيئاً بل نفد جميعه في العطاء والانعام على الناس فكان يلبس الغليظ ويشد على وسطه كل ما يحتاج الجندي اليه من سكين ودرفش ومطرقة ومسلة وخيوط ودسترك وغير ذلك .

(١) الدولة الأتابكية ص ٢٢٠ [وكتاب الروضتين ج ١ ص ١٣٣] والتفصيل هناك .
(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٦٢٠ والكامل لابن الأثير ج ١١ ص ١٣٤

وكان من أشجع الناس ميمون النقيبة لم تهزم له راية وكان يقوم المقام الخطير فيسلم منه بحسن نيته . وكان تركياً أسمر اللون خفيف العارضين قصيراً جداً ، وبنى مدارس وربطاً بالموصل وغيرها . بلغني انه مدحه الحيص بيص[1] فلما أراد الإنشاد قال له انا لا أدري ما تقول لكنني اعلم انك تريد شيئاً وامر له بخمسمائة دينار واعطاه فرساً وخلعاً وثياباً يكون مجموع ذلك نحو الف دينار . ومكارمه كثيرة نقتصر على بعضها ولما توفي كان الحاكم باربل خادمه مجاهد بن قايماز وهو المتولي لأمورها[2] .

وجاء في اوراق قديمة لمؤلف مجهول : « كان قصيراً جداً ، عادلاً ، حسن السيرة ، كثير الأمانة ... ميمون النقيبة ، لم يكسر جيش هو فيه ، وكان بخيلاً ، ثم انه جاد في آخر عمره ، وبنى المدارس والربط والقناطر والجسور ... » اه[3] .

يتبع : (بغداد) عباس العزاوي

(١) ترجمته في ابن خلكان ج ١ ص ٣٨٢ (٢) تاريخ أتابكة الموصل ص ٣٤٤

(٣) الظاهر أن هذه الأوراق من تاريخ الذهبي ولم أتمكن من المقابلة .

عقدا نكاح

كُتبا في أواسط القرن الثامن

أعثرني الاتفاق بعقدي نكاح كتب أولها في ٢٢ رمضان سنة ٧٠٤ الهجرية الموافق لسنة ١٣٠٤ الميلادية وكلاهما أجريا بثغر اسوان أحد الثغور المصرية القائمة على شاطئ نهر النيل وهما يتعلقان بأميرة تدعى أم الخير ابنة الأمير ركن الدين الحسين بن شجاع الدين بن فخر الدين مالك الى ان يتصل نسبها بمعد بن عدنان ·

فالأول اكتتبه الأمير علم الدين علي بن سراج الدين عمر بن جمال الدين حامد ابن رحال بن عمار بن حامد بن عمار الكاهلي ·

والثاني اكتتبه الأمير عز الدين أفرون (كذا) بن تاج الدين متوح (كذا) ابن شرف الدين محمود بن فخر الدين مالك الى ان يتصل نسبه بمعد بن عدنان أيضاً · والظاهر من هذا النسب ان افرون المذكور من بني عمومتها ·

وجاء في العقد الأول عن المعقود عليها الأميرة الجليلة المصونة والدرة المكنونة البكر البالغ وفي العقد الثاني الأوصاف ذاتها يتبعها المرأة المالكة أمر نفسها ·

وهذان العقدان لم يدوّنا بالرّق المصنوع من الجلد المدبوغ كعادة ذلك الزمان في تحرير الصكوك أو بالكاغد الصقيل الذي كانت تكتب به الكتب والدفاتر بل ان كل واحد منها مكتوب على قطعة نسيج من الحرير الأخضر الذي لم يتخرّق ولم يتشقق الى الآن ولذلك فان اللذين كتبا العقدين أو الذين شهدوا عليهما من الشهود قد عانوا بعض المشقة في كتابتهم لأن القلم لا يجري على الحرير كجريانه على المواد الأخرى المعدّة للكتابة · ولذلك فقد عانى كاتب هذه السطور أيضاً بعض النصب في قراءة العقدين المذكورين عن النسيج الذي أتعب من كتبوا عليه ·

وهذه نسخة العقد الأول :

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد النبي الأمي وعلى آله واصحابه وسلم تسليماً كثيراً .

الحمد لله الذي شرّف الأنساب وفضلها ، وعظم الأحساب وكملها ، وأوضح الأحكام وبينها ، الذي هدانا بملة الاسلام التي هي أفضل الملل ، وجعلها ميزان عدل معتدل ، وجاوز من الأشياء ما دقّ وجلّ ، وتفرد بوحدانيته عزّ وجلّ ، هادي الألباب ، ومرشد النظر الى الصواب ، وحافظ الذراري والأعقاب ، الذي خلق أبا البشر من تراب ، واجرى النطف من الأصلاب ، الحاكم بعدله ، والهادي إلى الخير وسبله ، ومعمر البسيطة بآدم ونسله ، الذي جعل النكاح عصمة من الشيطان وحبله ، فهو ما أمرت الشريعة باعتياد فعله ، وأباحه الله على لسان رسله ، فقال عز من قائل في محكم منزله ، : « وانكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله » أحمده على ما يسره وأظهره وأشكره على ما قضى به من التواصل وقدّره ، وسهله من التصاهر ويسره ، وأشهد ان لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تدرأ العذاب ، وتستنزل رحمة العزيز الوهاب ، وأشهد ان محمداً عبده ورسوله الذي اصطفاه من خلقه وآتاه الحكم وفصل الخطاب ، صلى الله عليه وعلى آله صلاة دائمة الى يوم المآب ، قادرة بالعلم والعمل حاكمة بالأمان عند الفزع والوجل .

وبعد فان النكاح مما دعا الله اليه كافة الأنام وأباحه ليستغني بالحلال عن الحرام وقال جلّ ثناؤه في حق من خشي العيلة من كثرة أهله « وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله » وقد ورد عن سيد ولد بني تهامة : « تناكحوا تكثروا فاني مباهٍ بكم الأمم يوم القيامة » وسيرفع حجاب ما سبق في هذا الكتاب .

فنسأل الله العظيم ان يجعل التوفيق مما حضرنا لأجله ، ويحوط هذا الأمر بالخير بعده وقبله ، وان يعضد هذا العقد بالدوام ويحسن له الفاتحة والختام .

وكان مما سورع اليه ووقع التعويل عليه وهو ما يُقرأ عليكم في كتاب أوله

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى

هذا كتاب صداق ، وعقد توفيق واتفاق ، وبركة تسمو على أصحابها ، وسعادة تنمو الى خطابها ونعمة قد منّ الله سبحانه بها ، اكتتبه الامير الأجل المحترم علم الدين علي بن سراج الدين عمر بن جمال الدين حامد بن رحال بن عمار بن حامد ابن عمار الكاهلي لمخطوبته الأميرة الجليلة المصونة والدرّة المكنونة البكر البالغ المدعوّة أمّ الخير ابنة الأمير الأجل المرحوم ركن الدين الحسين ابن الأمير الأجل الكبير المحترم المرحوم شجاع الدين ابن الجناب العالي المولوي الكبيري الأجلي المجتبي المختار عضد الدولة ناصر الجيوش فخر الدين مالك بن الأمير الأجل المجاهد صارم الدولة وكنزها ابي عبد الله محمد ابن الأمير الأجل المجاهد سيف الدولة وعمدتها ابي الفتح نصر ابن الأمير الأجل عضد الخلافة كنز الدولة حسام أمير المؤمنين ابي الفتح ابراهيم ابن الأمير الأجل ابي عبد الله محمد بن علي ابن محمد بن يوسف ابن معدي كرب بن الحارث بن مسلمة بن عبيد بن ثعلبة ابن يربوع بن الدول (١) بن حنيفة بن أقصى بن دعمي بن جديلة بن ربيعة بن نزار ابن معدّ بن عدنان ويريد تزوجها أصدقها على بركة الله وعونه وحسن توفيقه من الذهب العين المصري المثاقيل المسكوك الجيد خمسمائة دينار الحالّ من ذلك مائة دينار واحدة وباقي ذلك وهو من عين الذهب اربعمائة دينار بالصفة المذكورة يقوم بها الزوج المذكور للزوجة المذكورة مقسطاً لها عليه الى تقضي عشر حجج من تاريخه وهو ثاني عشري شهر رمضان سنة أربع وثلاثين وسبعمائة وذلك بالمجاب من ضياء الدين احمد بن طاهر بن سيدهم النقيب بباب الشرع الشريف بثغر أسوان المحروس وكيل أخيها شقيقها جمال الدين محمد وذلك بشهادة من يذكر كل منهم رسم شهادته آخره وعلى الزوج المذكور ان يتقي الله عزّ وجلّ

(١) هكذا في الأصل وقد وردت في عقد الذي الدئل والصواب الدول رجل من بني حنيفة ابن لجيم وحيّ من بكر بن وائل كما جاء في القاموس . بيد أن المبرد في كتاب نسب عدنان وقحطان ذكره المؤثل .

فيها ويحسن صحبتها ويعاشرهـا بالمعروف ، وبالخلق الرضي المألوف كما أمر الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم وسنة نبيه محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم وله عليها مثل الذى لها عليه ودرجته زائدة عليها بقوله تعالى في محكم كتابه العزيز « وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم »

ولما وضح لسيدنا الفقيه الأجل الامام العالم العبد الكامل المدرّس الفاضل القاضي العدل الرضي نجم الدين أبي عبد الله محمد بن الشيخ الصالح العالم الورع الزاهد العدل الرضي ضياء الدين أبو العباس أحمد القرشي نسباً الاسنائي بلداً المستخلف في الحكم العزيز بمدينة أسوان عن حضرة سيدنا ومولانا أقضى القضاة حاكم الحكام بقية السلف الكرام شرف الدين أبي مدين شعيب ابن سيدنا العبد الفقير الى الله تعالى القاضي الأجل الفقيه الامام العالم العلامة جمال الحكام خلاّل الأحكام جمال الدين حاكم المسلمين أبي التقي يوسف القرشي الشافعي الحاكم يومئذ بمدينتي أسنا وأدفو وثغر أسوان المحروس وما مع ذلك من الوجه القبلي من الأعمال القوصية عن الناظر في الحكم العزيز بالديار المصرية الشافعي أدام الله اقبالهم وختم بالصالحات أعمالهم ان الزوجة المذكورة حرّة مسلمة صحيحة العقل والبدن خالية من الموانع الشرعية فحينئذ أمر بكتبه فكتب وزوجت من الزوج المذكور بالصداق المسطر أعاليه حاله ومؤجله قبل الزوج لنفسه ذلك قبولاً صحيحاً شرعياً فورياً خار الله لكل منهما في صاحبه وبلغه أقصى مآربه .

وبجميعه شهد على من سمي فيه بما نسب اليهم في التاريخ المقيد أعلاه بتاريخ الثاني والعشرين من شهر رمضان المعظم سنة أربع وثلاثين وسبعمائة .

حضرت العقد المذكور
وشهدت على من
تسمى بما نسب اليهم
فيه وكتبه
محمد بن عبد العزيز

شهدت على الأمير علم الدين الزوج
المذكور بمعلوم الصداق المذكور
وعلى الزوجة المذكورة بقبض
الحال المذكور وكتبه
محمد بن الحسين بن محمد بن عبد العزيز

شهدتُ على الأمير علم الدين	حضرتُ عقد النكاح وشهدتُ
الزوج المذكور على الصداق المذكور	على المذكورين بما نسب اليهم
وعلى الزوجة بقبض الحال	وأشهد على الزوجة
المذكور علنًا وكتبه	بقبض الحال
علي بن نعمة الله	وكتبه محمد بن احمد بن عبدالعزيز

وهذه نسخة العقد الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ·

الحمد لله الذي تعبدنا بطاعته ، وشرّفنا بعبادته ، وأنالنا من احسانه وفضله ورحمته ، الذي جعل النكاح من شريعته ، وحثّ عليه في كتابه وسنته ، وجمع بين شمل المتباعدين بلطفه وحكمته ، والف بين الزوجين فسكن اليها فصرف كلّ منهما الى الآخر غاية مودته ومحبته ، أحمده على ما أولى من نعمته ، وأشكره على آلائه ومنته ، وأشهد ان لا إله الا الله وحده لا شريك له شهادة معترف بربوبيته ، مقرّ بوحدانيته ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المبعوث الى كافة الأمم برسالته ، والمخصوص في المؤمنين بشفاعته ، صلى الله عليه وآله وصحابته ، ما أعقب ليل صباح بكرته ·

وبعد فهذا عقد شمله التوفيق بكليته ، واكتنفه اليمن بجملته ، الزوج فيه من ذوي الأقدار المشهورة ، ومن ارباب البيوت المذكورة ، قد نشأ على قدم الخير والاصلاح ، وتعاطى أسباب التقوى والصلاح ، والزوجة بالدين والعفاف موصوفة وأبوتها بالأوصاف الجميلة معروفة ، فالله يقرن عقدهما بالتوفيق ، ويجريه على أبهج طريق ، وكان مما أراده الله عزّ وجل في القدم ، وجرى به في اللوح المحفوظ بالقلم ، نكاح لأمير الكبير المجاهد عزّ الدين الذي هو عالماً [1] بأن النكاح مندوباً [2] اليه ، ومحثوث من الشارع عليه ، وانه محصل لأسباب التحصين والعصمة ، وجامع لأسباب المودّة والرحمة ، وسبب التعاصر والتناصر ، ومقصود به التناسل

(١) و (٢) هكذا في الأصل والصواب عالم ومندوب

والتكاثر ، رأى المصلحة في تحصيل هذا المندوب ، ويحوز لنفسه هذا المطلوب ، وعزم على تزويج من ندب الشرع الى تزويجها ، والاتصال بها ودوام مصاحبتها ، وهي عقيلة ذات الدين والعقل والجمال ووُصفت بكمال الأحوال ونشأت في السعادة الكاملة ، وربيت في حجر النعمة الشاملة ، والدها من أكبر الأمراء ندراً وأسخاهم كفاً ، وأكملهم وصفاً ، وهو الأمير الكبير ركن الدين الحسين صاحب الصدقات والمعروف ، ومن هو بمكارم الأخلاق الدينية موصوف ، فالله يقرن هذا العقد بالسعادة والتوفيق ، ويجريه على أحسن طريق ، وكان مما سورع اليه ، ووقع التعويل عليه وهو مما يقرأ عليكم في كتاب أوله :

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله وسلامه على عباده الذين اصطفى خصوصاً ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وحسبنا الله ونعم الوكيل .

هذا كتاب عقد ، وسمة ود ، وتجديد عهد ، وعزم مبارك ، وساعة سعد ، واتفاق في الأمور ، وائتلاف في الصدور ، اكتتبه الأمير الأجل الكبير الأخص الأعز المجتبى المختار الموفق السعيد عز الدين أفرون ابن الأمير الأجل الكبير المجاهد المرابط الموفق السعيد تاج الدين متوح ابن الأمير الأجل الأكمل المجتبي المختار شرف الدين محمود ابن الأمير الأجل الكبير المجتبى المختار المجاهد المرابط الثاغر الأخص الأعز الأكمل المؤيد كنز العشائر فخر الدين أبي المنصور مالك ابن الأمير الكبير المجاهد المرابط المجتبى المختار تاج الأمراء فخر العرب صارم الدولة وعسكرها أبي عبد الله محمد بن الأمير الكبير الهمام كنز الدولة وفخرها سيف الدولة أبي الفتح نصر ابن الأمير المخلص المنصور المؤيد عصر الخلافة عز الملك تاج الدولة فخر العرب كنز الدولة وعهدتها ابي اسحاق ابراهيم ابن صارم الدولة أبي الحسن علي ابن الأمير حسام الدولة أبي العز متوح ابن الأمير كنز الدولة ابي المنصور محمد ابن الأمير كنز الدولة ابي المكارم هبة الله بن محمد بن علي ابن يوسف بن اسحاق بن ابراهيم بن مسروق بن مسمع[1] بن معدي كرب بن الحارث

(١) في الأصل تقرأ مِسمع ومُسمع وكلاهما باضافة أداة التعريف أبو قبيلة .

ابن مسلمة بن عبيد بن ثعلبة بن الدئل[1] بن حنيفة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل ابن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعما[2] بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن معد بن عدنان بخطوبته الأميرة الجليلة المصونة والدرّة المكنونة المرأة المالكة أمر نفسها المدعوة امّ الخير ابنــة الأمير الأجل المرحوم ركن الدين الحسين ابن الأمير الأجل الكبير المحترم شجاع الدين ابن الجناب المولوي الآمري الأجلي المجتبى المختار عضد الدولة ناصر الجيوش فخر الدين مالك النسب المذكور ويريد تزوجها أصدقها على بركة الله سبحانه وتعالى وعونه ، وحسن توفيقه وظنه ، وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم صداقاً جملته من الذهب العين المثاقيل الوازن المصري مائتا دينار حالاً ومؤجلاً فالحال من ذلك خمسون ديناراً أقرّت الزوجة المذكورة بقبضها من الزوج المذكور وبقية ذلك مقسطًا لها عليه في سلخ كل سنة تمضي من تاريخ العقد بينهما وهو الخامس من شهر جمادى الآخرة من شهور سنة اثنتي واربعين وسبعمائة عشرة دنانير والله ولي المتقين .

وولي تزويجها والقيام بعقد نكاحها عليه سيدنا العبد الفقير الى الله تعالى الفقيه الامام العالم الكامل صدر المدرّسين مفيد الطالبين القاضي العدل الرضي نجم الدين أبي عبد الله محمد ابن سيدنا العبد الفقير الى الله تعالى الشيخ الصالح الورع الزاهد العدل الرضيّ ضياء الدين أحمد بن نجم الدين عبد القوي القرشي الحاكم يومئذ بثغر أسوان عن الناظر في الحكم العزيز بالأعمال القوصية أدام الله سعادته باذنها له في ذلك نسبها الأنسب سيضع خطه فيه في ذلك انْ وضح خلو الزوجة المذكورة من موانع النكاح الشرعية أجمع وان الزوجة المذكورة يومئذ حرة مسلمة صحيحة العقل والبدن فحينئذ أمر بكتب هذا الصداق فكتب وزُوجت من وكيله أحمد بن منبه بن عبد الله على الصداق المذكور قبل الوكيل المذكور

(١) هكذا في الأصل وفي العقد الذي قبل هذا الدؤل

(٢) هكذا في الأصل وفي العقد الذي قبله دُعميّ

هذا النكاح لموكله قبولاً شرعياً بثغر أسوان المحروس بتاريخ الخامس من شهر جمادى الآخرة من شهور سنة أربعين وسبعمائة .

حضرت العقد المذكور وشهدت
على سيدنا ومولانا أقضى القضاة
حاكم المسلمين زين المدرسين
علم العلماء المعتبرين نجم الدين
الحاكم المزوّج والوكيل القائل
بما نسب اليها فيه في تاريخه
كتبه خليل بن عيسى عريس
عفا الله عنهم

حضرت العقد المذكور وشهدت على
سيدنا ومولانا أقضى القضاة
رئيس المدرسين مفيد الطالبين
أبي عبد الله محمد الحاكم المنعوت
اعلاه والمزوج والوكيل القائل
بما نسب اليها فيه في تاريخه
محمد بن عمر بن علي القرشي

حضرت العقد المذكور وشهدت على
سيدنا ومولانا أقضى القضاة
صدر المدرسين مفيد الطالبين
ابي عبد الله محمد الحاكم المنعوت
اعلاه المزوّج والوكيل القائل
بذلك والزوجة بما نسب اليها فيه
في تاريخه المذكور اعلاه
كتبه صالح بن احمد بن محمد بن علي.

عبد الله مخلص

الطرافة والابتذال

في الأدب العربي

(توطئة)

ليس كل ما كان جديداً في الأدب يستحق ان يحسب طرفة أو تحفة فقد يكون الجديد قبيحاً إما لخطأ فيه واما لنبو الطبع والذوق عنه واما لمخالفته الطابع العربي في كيفية الاداء والترتيب . ومما تلجأ اليه طائفة من أدباء العرب في نهضتنا الحديثة اتباع اوزان شعرية جديدة تشبه بعض الشبه نوعاً من الموشحات ولكنها ليست اياها ومن العسير ضبطها تحت أحكام معينة . هذا النهج الجديد يولع به انصاره بقصد الاغراب وادخال الدهشة على الآذان والأذهان آملين ان تجر الدهشة الى اعجاب واستحسان وهو امل يحققونه في نفوس ضعفاء القراء ولكن هيهات ان ينال منالاً من نفوس اقويائهم . لأن القوي لا تهمه هذه الظواهر والزخارف بل يغربل ما يقرؤه ثم ينخله وينظر الى ما فيه من لباب لا من قشور متكاثفة وعلى هذه الصورة يصدر حكمه بجودة هذا الشعر الجديد أو برداءته . فمن أراد من أدباء العصر مواراة عجزه وتقصيره بهذه المستحدثات فاهمسوا في أذنه قائلين انها لا تحول دون نظر اهل الحصافة والخبرة . وحكم كل خبير يصدر عليه يفوق عشرة آلاف حكم من غير الخبراء الذين يحكمون له .

ثم ليس كل ما كان مطروقاً في الأدب يستحق ان يحسب مبتذلاً مستهجناً فقد يكون المطروق ضرورياً لايضاح ما اكتنفه من الكلام . وقد يكون مقبولاً محتملاً مماشاةً لسياق الحديث في سذاجته وصراحته . وهذا المطروق الساذج مغتفر بشرط ان لا يزيد على خمس القصيدة فان زاد فالقصيدة ليست بذات درجة عالية .

هذه تنبيهات اجمالية يجب ان لا يغفل عنها العاقل المنصف - ولكن ليس من حق هذه التنبيهات ان تتجاوز حدودها فتخدع اذواقنا وبصائرنا وتخلط علينا بين المحاسن والمساوئ ٠

ومن اسرار البلاغة ومعادنها الفياضة تناول المعنى التافه وتزيينه من بعض نواحيه او تناول الفكرة المجملة وتفصيل شيء من زواياها ٠ او الخاطر الناقص وتكميل نقصه ٠ الى ما يشبه هذه التعديلات مما سميته توليداً في كتابي « كفيل البيان والشعر » وأوردت عليه مثلاً جمة مقتلعاً المعنى الأصلي من جذوره فإذا به مبتذل حقير في اصله حتى اذا عولج بأحد هذه القوالب أصبح مبتكراً باهي الجمال أو قريباً من قمة الابتكار ٠ فالتوليد اذن منجم عميق رحب من مناجم حسن القول وأسرار البلغاء ٠ ولا يليق بي ان أعيد هنا ولو باختصار ما تناولته هناك ٠ بل أنوي الساعة ان أدل القارئ على منجم ثانٍ يتاخم طريقه طريق المنجم الأول وقد يتشابك الطريقان ٠ ويمكنني ان اسمي هذا المنجم الجديد تنزهاً كما سميت ذاك توليداً وهو خير مرآة لوجوه الطرافة واختلافها عن وجوه الابتذال مما جعلته عنواناً للبحث الحاضر ٠

التنزه الأدبي اجمالاً

الذي أريده بالتنزه الأدبي الترفع عن مستوى منخفض الى مستوى أعلى مما ينطبق على الوضع اللغوي من لفظ التنزه ومعناه التباعد كما ينطبق على معنى له آخر شائع بين العامة والخاصة اي طلب النزهة في بستان او روضة أو رابية جميلة أو وادٍ ظليل او حقل ناضر او مرج بهيج الى ما شاكل ذلك ٠ فكلا المعنيين من لفظ التنزه يلائم التشبيه المقصود بالانتقال من معنى مبتذل الى معنى طريف مستعذب ٠ وللمجيدين من شعراء العرب في هذا الميدان قدم راسخة وباع طويل وأدل الدلائل على قدرتهم الشعرية واتساع مدى تصورهم وتفكيرهم انهم لم يقنعوا بالمعاني والتشبيهات التي طرقها كثيرون قبلهم عند ذكر ما كثرت إلفتهم

له من شمس وقمر وغيث وجبل وهواء وبحر ونحوها · بل تجاوزوا ذلك القديم المعتاد المطروق الى معانٍ جديدة ومناسبات لطيفة لا يتنبه لها الا امثالهم من فحول الشعراء وهم قليلو العدد في كل عصر وكل مصر · وهذا الذي انوي التصريح عليه في ما يلي من الشواهد الشعرية متعلقة بالشمس والقمر والنجم والغيم والمطر والطل والهواء والأرض والبحر والغدير والبئر والجبل والوادي والليل والتراب والناس وحديثهم ودموعهم وتبادلهم التحيات والسيف والرمح والسهم والحياة والموت · فان جميع هذه المحسوسات المشاهدات وجدنا لها في قرائح الشعراء المفلقين حيزاً جديداً جميلاً لا عهد لنا بمثله عند غيرهم · فقلما يرضى احدهم بالاقتصار على هداية النجم وبهاء القمر وعلو الشمس واتساع البحر ومضاء السيف الى آخر ما هنالك من المعاني المتداولة بل يستخرج لكل منها معنىً آخر طريفاً ومناسبة لطيفة · وقد حان لنا ان نسرد ذلك سرداً قريب المأخذ سهل المنال ·

شواهد التنزه الأدبي في المحسوسات العلوية

اراد ابو تمام وهو حبيب بن اوس الطائي ان ينزه قريحته ويدفعها عن الالمام بضياء الشمس او رفعتها او تأجج نارها او تعميم فضلها على المخلوقات فالتفت الى ناحية جديدة ورأى ان الشمس تستحبها النفوس وان لم تحاول هي احراز هذه المحبة فقال في وصف حبيبته الحسناء :

هي الشمس يغنيها تودد وجهها الى كل من لاقت وان لم تَوَدَّدِ

تودد بفتح التاء وأصلها تتودد · وحذف احدى التاءين بقصد التخفيف قياسي في مثل هذا الموضع وقد وفق ابو تمام الى نهج جديد آخر في التشبيه بالشمس حين أراد حض الناس على الهجرة والاغتراب استزادةً لأرزاقهم وقوتهم المعنوية فقال :

وطولُ مقام المرء في الحي مخلق لديباجتيه فاغترب تتجددِ
فاني رأيتُ الشمس زيدت محبةً الى الناس أن ليست عليهم بسرمدِ

ولم تطب نفس ابي بكر الخوارزمي حين تصدى للتنويه بفضل احد اصدقائه

في ان يجعله عالي المقام كالقمر او مشرق الخصال والمبادئ مثل نور القمر مما هو رث قديم بال بل تنزه عن ذلك الى معنى جديد ابتكره في ايجاد وجه شبه بين ممدوحه والقمر فقال ان صديقه يتفقد اخوانه في اكثر الأحيان عندما يكون على سعة من العيش فان اعتراه عسر وضيق قلل من مخالطتهم والاجتماع بهم شأن القمر في طول مدة بروزه للبشر عندما يقوى نوره فان ضعف نوره وهو في أوائل الشهر القمري او اواخره لم يبرز لعيون الناس الا مدة قصيرة ٠ وهذا الذي قاله الخوارزمي :

رأيتك ان ايسرتَ خيمت عندنا لزاماً وان اعسرت زرت لماما
فما انت الا البدر ان قل ضوؤه ألمَّ وان زاد الضياء اقاما

ولم يقصر عن هذه الطرافة شاعر آخر اراد معاتبة صديق له ارتفع منصبه فأخذ يظاهر له جفاءً وفتوراً فقال فيه الشاعر المجفو :

سألت الله ان تسمو وتعلو علوَّ النجم في كبد السماء
فلما أن علوت بعدتَ عني فكان اذنْ على نفسي دعائي

ومعلوم ان علو النجم في كبد السماء معنى مبتذل لم يكن لذلك الناظم فضل في الاشارة اليه وانما ظهر فضله وذكاؤه في كيفية الانتفاع بهذه الناحية المبتذلة حين شبه ابتعاد خليله عنه بعد ارتفاع منصبه بابتعاد النجم عن عيون الناس ٠ وازداد شعره حسناً بما ذكره من سابق دعائه الصالح وكيفية انقلابه عليه شؤماً وحرماناً ٠

وقال كمال الدين بن النبيه في وصف كوكب الصبح :

وكوكب الصبح نجابٌ على يده مخلَّق تملأ الدنيا بشائره

وهو وصف جديد جيد للكوكب المذكور لا يتعب الذهن في استحضار صورته ٠ وقد قصرت عن ذلك همة غيره من الشعراء فاكتفوا بما ألفوه وتوارثوه من التشبيهات ٠ وأراد بقوله مخلق طرساً مخلقاً او كتاباً مخلقاً أي مضمخاً بالخلوق بفتح الخاء وهو نوع من الطيب يكثر فيه الزعفران ٠

وقال مروان بن أبي حفصة في رثاء الأمير الشيباني معن بن زائدة ذاكراً وجه شبه للمطر :

فتى عيش في معروفه بعد موته　　كما كان بعد النيث مجراه مرتعا

وقد تعودنا ان نرى الشعراء يشبهون ممدوحهم بالمطر في غزارة هطله وضمانه للخصب والخير · فانتقل ابن ابي حفصة من هذه الناحية الى ناحية جديدة قائلاً ان الأمطار قد تزول وتبقى آثار خيرها في المغارس والمزروعات وهكذا كان الأمير المرثي معن بن زائدة ·

وقد عهدنا الشعراء يذكرون أوجه شبه متعدد للغام من تبشيره بهطول الغيث أو من علوه في الجو او من اطراد سيره بين البطء والسرعة الى غير ذلك مما قرع الاسماع كثيراً ولكن شاعرية كثير عزة لم تقنع بهذه المعاني المبتذلة بل التفت الى ظل الغمامة ورأى خيبة من يعول عليه ويحاول ان يقبل ان ينام نومة الظهيرة في هذا الظل فقال متصدياً لذكر مقاطعة بينه وبين محبوبته عزة مما كان يحز في صدره :

واني وتهيامي بعزة بعدما　　تخليت عما بيننا وتخلت

لكالمرتجي ظل الغمامة كلما　　تبوأ منها للمقيل اضمحلت

وذكر احد قدماء الشعراء الرياح مشيراً الى حالة دقيقة من حالاتها اذ قال ان الرياح اذا تناوحت اي هبت من نواح مختلفة الصقت بجسم حبيبته الحسناء اجزاء ثوبها بحيث تظهر محاسن جسمها في تركيبه الطبيعي الجميل فتستثير حسد النساء لها وغيرة العاشقين عليها · وهذا الذي قاله الشاعر والشاهد في البيت الثاني · وفي البيتين رشاقة اداء وبلاغة ايجاز :

ابت الروادف والثدي لقمصها　　مس البطون وان تمس ظهورا

واذا الرياح مع العشي تناوحت　　نبهن حاسدة وهجن غيورا

شواهد التنزه الادبي في المحسوسات الارضية

من المعاني المستحدثة قول بعضهم في الأرض :

سألت الأرض لِمْ كانت مهاداً ولِمْ جعلت لنا طهراً وطيبا
فقالت غير ناطقة لأني حويتُ لكل انسان حبيبا

وقال الأمير ابو فراس الحمداني في التراب . والشاهد في البيت الثالث :

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضابُ
وليت الذي بيني وبينك عامر وبيني وبين العالمين خرابُ
اذا صح منك الود ياغاية المنى فكل الذي فوق التراب ترابُ

واستخرج بعضهم معنىً شعرياً علمياً قائلاً ان السحاب لا فضل له على البحر لأنه اتخذ قطراته من قطرات البحر المتبخرة . فشبه بهذه الحالة حالته باهدائه الشكر الى المتفضلين عليه حيث قال :

أهدي له حسن الثناء وانما أهدي له ما حزتُ من نعمائه
كالبحر يمطره السحاب وما له فضل عليه لأنه من مائه

واشار احد الشعراء ضمناً الى البئر — وأظنه ابا الأسود الدؤلي واضع علم النحو — فقال ان البئر قد تملأ الدلو ماء زلالاً صافياً وقد تملأها وحلاً يخالطه شيء يسير من الماء بحيث يمكن تصفيته والانتفاع به . مشبهاً بهذا المعنى الطريف سعي الانسان لمعيشته فيكون نصيبه الفلاح التام تارة ، وشيء زهيد من الفلاح تارةً أخرى ، قال :

وما طلب المعيشة بالتمني ولكن الق دلوك في الدلاء
تجيء بملئها طوراً وطوراً تجيء بحمأةٍ وقليل ماء

وفي ذكر الجبل قال أحد الشعراء :

ويا جبلي نعمان بالله خليا نسيم الصبا يخلص اليّ نسيمها

وقال آخر ذاكراً الليل وما فيه من حيرة وعجز عن دفع الضيم :

كالسيل في الليل لا يدري به احد   من اين جاء ولا من اين يأتيه

وأحسن من هذه الاشارة الى الليل ماقاله ابو الطيب المتنبي في معرض تغزل وتشبيب :

وكم لسواد الليل عندي من يدٍ   تخبر ان المانوية تكذب

أراد بالمانوية الملة المانوية نسبة الى مؤسسها ماني الفارسي ومن عقائدها الجوهرية ان الظلام هو إله الشر .

وقد ذكر النابغة الذبياني الليل أيضاً اعتذاراته الى ابي قابوس النعمان فقال :

فانك كالليل الذي هو مدركي   وان خلت ان المنتأى عنك واسع

وعدل بعضهم عن وصف السيف بالمضاء والافناء الى ذكر حالة أخرى من أحواله قائلاً :

كذا السيف ان لابنته لان متنه   وحدّاه ان خاشنته خشنان

وفي ذكر السهم قال الأمير ابو فراس الحمداني واصفاً احدى المعارك :

ولما سار سيف الدين ثرنا   كما هيجت آساداً غضابا

وكنا كالسهام اذا اصابت   مراميها فراميها اصابا

ان هذا البيت الأخير من أدل الأبيات على قوة شاعرية الناظم وجودة تصوره . فقد عهدنا الشعراء يشبهون صاحب العزم بالسهم جاعلين المضاء والنفاذ وجه شبه . وهو وجه حسن لا بأس فيه . ولكن همة ابي فراس لم تقنع به لكثرة ما استعمل حتى ابتذل وسئمته الاسماع او كادت تسأمه بل التفت الى وجه جديد ادق وابعد غوراً فقد قصد في بيته المذكور انه لم يكن شيء يعوقهم عن الظفر بالأعداء الا عدم لقائهم فلما لقوهم أصبح النصر محققاً وكان مثلهم مثل السهام فبمجرد وصولها الى هدفها تفعل فيه فعلها الرهيب ويكون راميها قد أصاب . فالبيت يحسب من معجزات الايجاز .

شواهد التنزه الأدبي

في الناس وبعض شؤونهم

لقد حلق في الطبقة العليا من جو الفضيلة والانسانية من أوصى الانسان ان يعد البشر كلهم احباءه والأرض على رحب أقطارها داراً له ومأوى وملجأ أمينًا من قال :

تصوَّر الناس كلهم سكنًا ومثل الأرض كلها دارا

والسكن بفتح الكاف هو الحبيب الذي تسكن اليه نفسك اي ترتاح اليه ·

وقال أبو الطيب المتنبي في دموع الحب :

أينكر خدي دموعي وقد جرت منه في سلك سابلِ
أأول دمع جرى فوقه وأول حزن على راحلِ
ولو زلتم ثم لم ابككم بكيتُ على حبي الزائل

وقال أحدهم في العيش :

ما العيش الا ان تحـــب وان يحبك من تحبه

وقال المتنبي في الموت :

ألف هذا الهواء اوقع في الأنفس ان المات مرُّ المذاق

وقال فيه أيضاً :

واذا لم يكن من الموت بدٌّ فمن العجز ان تموتَ جبانا

كلمة ختام

ان هذه النماذج الشعرية فضلاً عما اشتملت عليه من طائفة طيبة تنبطن فائدة جليلة لكل أديب ومتأدب اذ تنبه ذهنه وتدله على كثير من الطرق في اجتناب المبتذلات والارتقاء الى سدة الطريف المستعذب في المعاني وأساليب الاداء وقد لا يقل الأسلوب مقاماً عن جوهر المعنى المقصود · ومعلوم ان

ناحية واسعة من منثور القول وهي الناحية الحاوية لموضوعات ألفها الشعر والشعراء تدخل تحت هذا الحكم وهذه النظرية ٠

خري بحزب الأدب واعوانه وخدامه العاملين في حقله ان يناقش كل منهم نفسه ادق مناقشة حين يؤدي قولاً منظوماً أو منثوراً لكي يتجافى به عن مواضع الرثاثة والابتذال ويسير قاصداً ردهة الاجادة فان لم يبلغ صدرها ولم يتوسطها فالأرجح انه لا تفوته عتبتها ومن ثم ينصف نفسه ويصون كرامته ويرضي القراء والسامعين اذ يعفيهم من السآمة والملل في الاصغاء الى قناطير من الكلام ليس تحتها شيء من الفائدة واللذة او تحت تلك القناطير درهم منها أو درهمان ٠ ولعمري لا أدري لماذا لا يتحمل الأديب من الوقت والعناء في نظم أبيات يسيرة ما تعود ان يتحمله في نظم خمسين او ستين بيتاً ٠ فلو اتخذ أولئك المكثرون المقصرون هذه الخطة في الاقلال من النظم مع زيادة اجتهاد فيه وعناية به لرأينا المجيدين من الناظمين حوالينا يزيدون على خمسين في المئة مع انهم في حالتهم الحاضرة يقلون عن عشرة في المئة ٠ ويارحم الله القائل :

والناس مثل بيوت الشعر كم رجلٍ منهم بألف وكم بيت بديوانِ

(اللاذقية) ادوار مرقص

على هامش النثر الفني

الاعجاب بالنفس أخطر ما يصيب الباحث المفكر لأنه يخيل اليه التفوق والنبوغ ، ويزين له الغرور بما يكون منه من عمل ، والفتون بما يرى من رأي أو يلفظ من قول . وكلما تتابعت الأيام تمكن منه ، وغلبه على عقله ، وران على فكره ، وغطى على بصره ؛ فلا يبصر الا محاسنه ، ولا يفكر إلا في عظمته ، ولا يعقل إلا ما يتصل بهذه المحاسن وتلك العظمة من قريب أو بعيد . ومن هنا كانت خطورته على المفكر لأنه ليس كغيره من الناس يفكر لنفسه ويحبس عليها تفكيرها أو يذيعه في تلك البيئة اليسيرة القصيرة التي تحيط به من المعارف والأصدقاء ؛ وانما هو مولع بالتفكير للناس لا يكاد ينتهي الى رأي في العلم ، أو نظرية في الفن ، أو نظرة عابرة فيما دون ذلك إلا وهو آخذ بأسباب اذاعتها ، عامل على نشرها بين الناس جميعاً ، لا يهدأ له بال ، ولا يطمئن له خاطر حتى يعرض فكره وعقله وقلبه ويظهر الناس على ما كان يعتلج فيها من أسرار ، ويختلج من آراء ، ويضطرب من مشاعر . فاذا لم يأخذ الباحث حذره من شيطان الاعجاب ويتهم نفسه في رغائبها ، ويجادلها عن منازعها ؛ ويفاتش ضميره جاهداً ، ويراجع عقله ، ويقايس بين أفكاره حتى يميز الخبيث من الطيب أهلكه الاعجاب ، وأخمل ذكره ، وعرّضه لألوان من النقد اللاذع ، وفنون من التهكم المرير لا قبل له بتحملها ، ولا صبر له على بأسها ، وان بأسها لشديد ، والحق الذي لا مرية فيه ان الوان الخطأ التي يدفع اليها الاعجاب على عظمها وغرابتها ما كانت لتقع لو لا تلك الحجب الكثيفة التي يضربها على العقل ، ويحول بها بين المرء

وقلبه . لا تكاد الفكرة تطرق ذهن المعجب بنفسه حتى تستحيل الى رأي ، ولا يلبث الرأي حتى يستحيل الى عقيدة تملأ مسارب النفس ، وتأخذ بمسالك الوجدان فيعتنقها ويجادل عنها ما وسعته المجادلة وأمده البيان ، وان كان خطؤها بادياً للعيان لأنها وليدة الاعجاب الفتان .

ومن هذا القبيل تلك الفكرة التي اعتقدها الدكتور زكي مبارك في أبي حيان التوحيدي ، وكانت مبعث خطئه في احكامه عليه . اعتقد انه رجل أنشأه الحقد على الموهوبين من أهل العلم والأدب والجاه ، وأديب متشرد أفاق يرجع نبوغه الى حسده وحقده وثورته على الحياة والأحياء . وهو فوق هذا وذاك مفتر كذاب . أنطق معاصريه بما شاء من الأقوال والآراء ، وسجلها في كتبه معزوة لهم زوراً وبهتاناً . وانه لصاحبها ومختلقها فعليه وحده تقع تبعتها ، واليه يرجع نقد الناقدين ، وطعن الطاعنين وفي ضوء تلك الفكرة أو في ظلامها كتب الدكتور ما كتب عن أبي حيان ، وحكم عليه بما حكم فجاءت أحكامه بعيدة عن الصواب بعد الفكرة التي صدرت عنها حكم الدكتور على التوحيدي بأنه متحامل على معاصريه وضرب لذلك أمثالاً لا تؤيد حكمه ، وانما تؤيد ظلمه العنيف له وقسوته عليه . ومن ذلك ما كتبه في ترجمة أبي عبد الله المرزباني (٢/ ١٢) : « كان معروفاً بسعة المعرفة وكثرة السماع ، وكان معاصروه يرونه من محاسن الدنيا ، ومنهم من يقدمه على الجاحظ . ولعل ذلك هو السبب في تحامل بعض المغرضين عليه كأبي حيان التوحيدي الذي كان يقارنه بابن شاذان وابن الخلال ممن كان لهم جمع ورواية وليس لهم فيما جمعوه نقط ولا إعجام ، ولا إسراج ولا إلجام » ومن المدهش حقاً ان الدكتور ينقم على التوحيدي هذا الرأي ويتهمه من أجله بالتحامل ، ثم لا يلبث الا قليلاً حتى يعرضه علينا على انه رأيه الذي ارتآه بعد طول البحث وكثرة المراجعة كتب في (ص ١٢٣) في نقد بعض كتب المرزباني يقول : « وبعد المراجعة المتعددة لم نظفر بما يميزه عن غيره من مصنفي الروايات والأخبار » .

وليس بين الرأيين من فرق إلا ان الثاني نفس الأول وقائله الدكتور فهو وليد الانصاف وحسن النية . وصاحب الأول ابو حيان فهو إذاً دليل التحامل وسوء الطوية . ومن ذلك ما كتبه الدكتور في ترجمة ابن مسكويه (٢/١٤٦) :

« قد أولع التوحيدي بمهاجمة ابن مسكويه . ورماه بمدح الجود باللسان ، وايثار الشح بالفعل ، وادعاء الحكمة ، والتكلف في الأخلاق . ولننظر كيف يقول : قال لي مسكويه مرة : أما ترى الى خطأ صاحبنا ابن العميد في اعطائه فلاناً ألف دينار ضربة واحدة ! لقد أضاع هذا المال الخطير فيمن لا يستحق . فقلت بعد ما أطال الحديث وتقطع بالأسف : أيها الشيخ ، اني أسألك عن شيء واحد فاصدق فانه لا مدب للكذب بيني وبينك : لو غلط صاحبك فيك بهذا العطاء وبأضعافه وأضعاف أضعافه أكنت تخيله في نفسك مخطئاً ومبذراً و مفسداً أو جاهلاً بحق المال؟ أو كنت تقول : ما أحسن ما فعل ، وليته أربى عليه ! فان كان الذي تسمع على حقيقته فاعلم ان الذي يرد ورد مقالك إنما هو الحسد أو شيء آخر من جنسه ، وأنت تدعي الحكمة وتتكلف في الأخلاق ، وتزيف الزائف وتختار المختار ، فافطن لأمرك ، واطلع على سرك وشرك » طار الدكتور فرحاً بهذا الحديث ونقله مرتين (في ص ١٣٧ وفي ص ١٤٧) وعقب عليه في الأولى بقوله : « ولو انه حاسب نفسه بمثل ما حاسب به ابن مسكويه لرأى ثورته على أهل زمانه تأخذ وقودها من قلب حاسد حقود » وعقب في الثانية بقوله :

« ونحن نعرف سر هذا التحامل من جانب التوحيدي ، فقد كان شديد الحقد على المجدودين من أهل زمانه وخاصة من اتصلوا بالملوك والرؤساء . ولنا أن نضيف الى ذلك نجاح ابن مسكويه في حياته العملية فقد كان الرجل فيما يظهر متين الأخلاق ، ومتانة الخلق قوة مرعبة يرعد لها الأدباء المساكين الذين ابتلوا بالطمع في هدايا الملوك والوزراء وألفوا التزلف والتودد الى أقطاب المال والجاه . والأديب الذي يعتمد على نفسه وعلى خلقه وعلى كفايته الذاتية يعيش

في الأغلب غريباً بين معاصريه من الأدباء ، فليس عجيباً أن يتحامل أديب متشرد أفاق كالتوحيدي على أديب موفق مطمئن يعيش كابن مسكويه . ولو شئنا لأضفنا نزعة ابن مسكويه الفلسفية فهي كذلك من أسباب حقد التوحيدي عليه فقد كان التوحيدي واسع الثقافة إلى حد مدهش ، وكان يطمع في التفرد بالسمعة العلمية والأدبية والفلسفية بين رجال ذلك العهد » . ليس فيما قاله أبو حيان لابن مسكويه وهو يحاوره في جائزة ابن العميد تحامل دفعه اليه الحسد والحقد كما يقول الدكتور ، وانما فيه الصدق والانصاف اللذان يحمد عليهما أجل الحمد . أما الصدق فلأنه صارح ابن مسكويه برأيه ، وأبان له خطأه في لوم ابن العميد على إجزال عطيته لمن رآه أهلاً لها وأما الانصاف ففي دفاعه عن تصرف ابن العميد مع ما بينهما من ألوان العداء وصنوف الشحناء وان كان هناك حسد وحقد فيجب ان يوصف بهما ابن مسكويه الذي حسد صاحب الجائزة على جائزته ، وثارت ثائرته على صاحبه ابن العميد ونال منه على ما بينهما من صفاء وولاء . ومع هذا يصفه الدكتور بأنه متين لا خلاق ! ويصف التوحيدي بالحسد والحقد والتحامل ! وهذا تحامل عنيف واسراف في اختلاق المحاسن والمساوئ وتوزيعها وفق ما تشتهيه النفس المغرضة ، ويمليه الهوى الجموح . وقد دفعه تحامله الى ان يصف التوحيدي بأنه أديب متشرد أفاق ألف التزلف والتودد الى أقطاب المال والجاه قد تحامل على ابن مسكويه لأنه أديب مطمئن العيش قد اعتمد على نفسه وعلى خلقه وعلى كفايته الذاتية ولم يطمع في هدايا الملوك والوزراء . وليس ذلك من الحق في شيء فقد تزلف ابن مسكويه وتودد الى أقطاب المال والجاه ، وعاش ما عاش على مال الأمراء والوزراء الذين صحبهم وعمل لهم : خدم الوزير المهلبي ولما توفي سافر الى ابن العميد وظل في خدمته حتى قضى نحبه فاتصل من بعده بابنه أبي الفتح ابن العميد ، ولما دالت دولته سارع الى عضد الدولة بن بويه . وهكذا كانت حياته سلسلة متصلة الحلقات

في خدمة الأمراء والوزراء . فلا يَفْضُل أبا حيان من تلك الناحية ولكن الهوى الغلاب يسبغ على من يشاء ما شاء من الصفات والميزات وان لم تثبت للنقد إلا بمقدار ما يلقفها . ولعل أعظم دليل على إغراق الدكتور في التحامل على ابي حيان وإسرافه في ظلمه ما عقب به على رأي ابن خلكان الذي نقله عنه (١٩٦/٢) روى ابن خلكان ان ابن نباتة السعدي مدح ابن العميد بقصيدة مطلعها :

برح اشتياق وادكار   ولهيب أنفاس حرار

ولما تأخرت صلته عنه شفعها بأخرى ، وأتبعها برقعة فلم يزده على الاهمال فضاق بذلك ذرعاً ودخل عليه فأغلظ له القول حتى قال له : إن الغني إذا مطل لئيم فغضب ابن العميد وقال : ما استقدمتك بكتاب ، ولا استدعيتك برسول ، ولا سألتك مدحي ، ولا كلفتك تقريظي . فقال : صدقت أيها الرئيس ، ولكن جلست في صدر ديوانك بأبهتك وقلت : لا يخاطبني أحد الا بالرياسة ، ولا ينازعني خلق في أحكام السياسة ... فكأنك دعوتني بلسان الحال ولم تدعني بلسان المقال . فثار ابن العميد مغضباً ، ولما سكت عنه الغضب التمسه ليعتذر اليه فكأنما غاص في سمع الأرض وبصرها . قال ابن خلكان بعد ذلك : « ثم إني وجدت هذه القصيدة وصورة هذا المجلس منسوبين الى غير ابن نباته ، وكشفت في ديوانه فلم أر هذه القصيدة فيه ، ثم وجدت في كتاب مثالب الوزيرين لأبي حيان التوحيدي هذه القصيدة لأبي محمد عبد الرزاق بن الحسن المعروف بابن السياب اللغوي المنطقي الشاعر ، وهذه المخاطبة لشاعر من أهل الكرخ يعرف بوته والله أعلم » وعقب الدكتور على هذا بقوله : « ونحن نأسف على أن لم نتمكن من الاطلاع على مثالب الوزيرين ولو أتيح لنا الاطلاع عليه لاستطعنا تخطئة ابن خلكان فاننا نجزم جزماً قاطعاً أن هذا المجلس من صنع التوحيدي ، ولا يضيرنا أن النسبة لم تصح بطريقة علمية فانا نعرف التوحيدي معرفة قوية لطول ما صاحبناه وعاشرناه . ولو ألقيت جملة من كلامه في أكداس من الورق لميّزناها

لأول نظرة ، فليكن الشاعر من يكون ، وليكن المخاطب من يكون فان واضع المجلس هو التوحيدي على كل حال . ولا يبقى الا أن نرجح أنه أداره على ابن العميد لا على غيره لان هذه الحفيظة ما كانت لتثور في هذه القوة على رئيس غير ابن العميد الذي شغل بثلبه وتجريحه حيناً من الزمان » ولست أدري ما الذي يستفيده الدكتور من الاطلاع على هذا الكتاب في تخطئة ابن خلكان ولا في ماذا يخطئه ؟ أيكذبه في أنه رأى القصيدة فيه منسوبة لابن السياب اللغوي والمخاطبة للشاعر الكرخي ؟ لا سبيل الى تكذيبه في ذلك ففي ماذا يخطئه إذن ؟ لست أدري وأعتقد ان الدكتور نفسه لا يدري ! ثم يجزم الدكتور جزماً قاطعاً بأن المجلس من صنع التوحيدي مع اعترافه الصريح بأن نسبته إليه لم تصح بطريقة علمية ! وهذا دليل وهاج على ان الدكتور لا يقيم للعلم وزناً ولا يسلك سبيله إلا إذا وافق ما يزينه شيطان الاعجاب ، أما إذا خالف عن أمره ، ولم يؤيد منطق الهوى فانه يتنكبه فخوراً ، ويتبع الظن الذي يغني — عنده — عن العلم والحق كل الغناء . ولا تثريب عليه من متابعة هذا الظن الذي يناهضه العلم ولا يقره بحال من الأحوال فانه — بزعمه — يعرف التوحيدي معرفة قوية لطول ما صاحبه وعاشره ، ومن أدرى بالصاحب من صاحبه ، وأعرف بالعشير من معاشره . ولو كان لهذا الادعاء العريض نصيب من الصدق لما أسرف في ثلب أبي حيان ووقف منه موقف العدو الذي لا يرقب في عدوه إلا ولا ذمة ، ولو راجع عقله ، وفاتش ضميره ، ونهى النفس عن الهوى لقضى في أمره بالحق والعدل كما يصنع العلماء المنصفون .

(القاهرة) السيد أحمد صقر

المدرس بمدرسة الليسيه الفرنسية — بمصر الجديدة

مخطوطات ومطبوعات

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة

تأليف ابي الحسن علي بن بسام الشنتريني المتوفى سنة ٥٤٢ ﻫ

القسم الرابع — المجلد الأول طبع في مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

في القاهرة سنة ١٣٦٤ ﻫ ١٩٤٥ م في ٢٣٨ صفحة

لا تزال كلية الآداب في جامعة فؤاد الأول توالي نشر أجزاء كتاب الذخيرة بعناية لا يصدر مثلها عن غير أساتذة محنكين . ويحتوي هذا الجزء على سيرة أبي العلاء صاعد بن الحسن البغدادي ونثره وشعره وأخباره مع المنصور بن ابي عامر واخبار ابي مروان عبد الملك بن شهيد وأخبار دولة ابن ابي عامر وابنه بعده واخبار محمد بن عبد الواحد البغدادي الدارمي وسليمان بن محمد الصقلي وثابت بن محمد الجرجاني وعبد العزيز بن محمد السنوسي الى امثالهم من العلماء الطارئين على الاندلس من المشرق وغيره وفي هذا الجزء أيضاً جملة من أخبار بني ذي النون وسيرة محمد بن شرف ومنثوره ومنظومه وأخبار ابن السقاء القرطبي وشعره وأبي الحسن علي بن عبد الغني الكفيف المعروف بالحصري .

وفي هذا الجزء وصف إعذار (ختان) حفيد المأمون يحيى بن ذي النون ومما جاء فيه في اكرام الطبقات في هذا الحفل : « ولما فرغت تلك الطائفة جيء بهم الى المجلس المرسوم لوضوئهم ، وقد فرش ايضاً بوطاء الوشي المرقوم بالذهب وعلقت فيه ستور مثقلة مماثلة فأخذوا مجالسهم منه وناولهم الوصفاء الطائفون بهم رفيع النقاوات والذرائر المطيبات في الأقداح والاشناندانات الفضيات المحكمة الصناعات كادت تغنيهم بطيبها عن الغسل ثم أدني اليهم إثر ذلك الوضوء في

أباريق الفضة المحكمة الصنعة يصبون على أيديهم في طسوس الفضة المائلة لأباريقها في الحسن والجلالة فاستوعبوا الوضوء وأوفيت من أيديهم مناديل تتضاءل لها ما عليهم من سنيّ الكسوة ثم نقلوا الى مجلس التطيب افخم تلك المجالس وهو المجلس المطل على النهر العالي البناء السامي السناء فشرع في تطييبهم في مجامر الفضة البديعة بفلق العود الهندي المشوبة بقطع العنبر الفستقي بعد ان نُدّيت اعراض ثيابهم بشآبيب ماء الورد الجوري يُصب فوق رؤوسهم من أواني الزجاج المجدود، وفيّاشات البلور المحفورة ثم أدني اليهم قوارير المها المحكمة الصنعة الرائعة الهيئة قد أترعت بالغوالي الذكية، التامة بسرها قبل الخبرة، المتخذة من خالص المسك التبتيّ ومحض العنبر المغربيّ، لاءم بينهما رشح البان البرمكي فتناولوا من ذلك حتى لاقطر سبالهم ذوبانا، واعادت شيبهم شبانا فلما استتم هؤلاء الخلة نعم يومهم من طعمهم وطيبهم أقيموا للدخول على المأمون ... ثم وصف القصر والأبهاء، ومافيها من صور ونقوش. قال ابن حيان (مؤرخ الأندلس) : وذهب المأمون الى تتميم تكريم زواره من رجال الأمراء الذين استحضرهم يومئذ لشهود فرحته، بمشاهدة مجلس خلوته، وتنعيم اسماعهم بلذات اغانيه، وقد علم ان فيهم من يُرخص في النبيذ ولا يسوغ لهم نعيم دونه، فاحتمل حرج ذلك مبالغة في تأنيسهم، فاحتفل لهم في مجلس قد نُضد وأُحضر فيه جميع آلات الأنس، فلما استوى بالقوم مجالسهم واشرأبوا الى الأخذ في شأنهم، قرّب اليهم أطعمة تنورية، جوامد وباردة، وصنوفاً من المصوص والأشربة والطباهج، موائد مترعة اتخذوها بسطاً لنبيذهم، ثم انثنوا الى الشراب ونفوسهم به صبة، وقد مدت ستارة الغناء لأهل الحجاب، ونظمت نوبة المغنين زمراً فهاجوا الإطراب واستخفوا الألباب ونقلوا الطباع فجاءوا بأمر عجاب ...

محمد كرد علي

يوسف شلحت : علم الاجتماع الديني

قد يكون من الصعب جداً في الوقت الحاضر ان يؤلف العلماء كتاباً في علم الاجتماع العام مستوفياً جميع الشروط العلمية الصحيحة . وقد يكون أصعب من ذلك ايضاً ان يضعوا كتاباً صحيحاً مضبوطاً في علم الاجتماع الديني .

والسبب في ذلك ان حقائق علم الاجتماع لم تصبح بعد نهائية كحقائق العلوم الرياضية والطبيعية . فاذا اراد العالم ان يعرض مسائلها بأسلوب علمي واضح ، ويرتب مبادئها وقوانينها . لقي في ذلك عناء كبيراً لفقدان كثير من الحلقات المتوسطة ، ولعدم استقرار الحقائق الاجتماعية على شكل نهائي ثابت . ان علم الاجتماع حديث النشأة ، وموضوعه كما قال (اوغوست كونت) اكثر موضوعات العلوم تعقداً واشتباكاً . والموضوعات المعقدة تحتاج الى طريقة علمية مضبوطة وقواعد ثابتة دقيقة . فاذا أخلّ العالم بأصل من أصولها ، او اهمل شرطاً من شروطها ، تاه في بيداء الوهم وضل سواء السبيل . وقد يظن انه ادرك ضالته المنشودة وبلغ العلم اليقيني ، وهو في الحقيقة لم يدرك الا البرق الخلب . ان السيارة المفككة المحاور تكفي للسير بسرعة في الطريق المعبدة ، اما الطريق الوعرة فتحتاج الى سيارة محكمة التركيب قوية المحرك . لذلك كانت المباحث الاجتماعية أحوج الموضوعات العلمية الى طريقة مضبوطة واستقصاء تام ، ولذلك ايضاً كان أقل خطأ في الاستقرار والتحليل باعثاً على التعليل الفاسد والتضليل .

وما يصدق على علم الاجتماع العام ينطبق ايضاً على علم الاجتماع الديني ، لا بل هو في هذا العلم اظهر وابين . لأن موضوع علم الاجتماع الديني كما قال (دوركهايم) ، انما هو البحث في العقائد والفرائض والأفعال المتعلقة بالأشياء المقدسة . فيه يميز الحرام من الحلال ، والمقدس من غير المقدس ، والطاهر من النجس . وهي امور منقولة الينا بالتربية والتقليد والتلقين . لا حيلة لنا في الأخذ بها أو في ردها . فقد ننشأ على العقائد الدينية الموروثة كما قال الغزالي بتقليد

الوالدين والمعلمين . ثم قد يحرك باطننا الى طلب اليقين فتتكشف لعقولنا حقيقة الدين انكشافاً لا ريب فيه فنرضى بها ونطمئن اليها . وقد يتسرب الشك الى قلوبنا فنردها ، وتقاوم الرأي العام بخروجنا عليها ، الا انها في جميع هذه الأحوال لا تخلو من صفة الجبر . بل تفرض علينا فرضاً ، وتضغطنا ، وتضطرنا الى اتباعها . وهذا يدل على ان الأمور الدينية ليست من الأمور الخارجية المستقلة عن نفوسنا بل هي خارجية وداخلية معاً . ومتى كانت الأشياء الخارجية ممازجة للارادات والعواطف كان اتباع الطريقة العلمية فيها اصعب وادق .

ومع ذلك فان علماء الاجتماع لم يعجزوا عن السير في طريقهم الذي انتهجوه فقرروا اولاً أن الظواهر الاجتماعية اشياء خارجية غير مسيرة بارادة الانسان ، وانه لا يجوز الاقتصار في تعليلها على العوامل النفسية الفردية ، وانها خاضعة لقوانين طبيعية ضرورية كغيرها من الظواهر . ثم انهم سلكوا في بحثهم عن هذه القوانين طريقة علمية صحيحة ، مبنية على الاستقراء والتحليل ، والاستقصاء والمقارنة . وساروا في ذلك قدماً حتى بلغوا بعلم الاجتماع ، خلال نصف قرن ، درجة من الضبط ، قلما بلغها علم من العلوم في نشأته الأولى . وهذا يبشر علم الاجتماع بمستقبل عظيم ، قد يكون له في اصلاح الحياة الانسانية اثر عميق ، لأن نطاقه سيكون واسعاً ، تدخل فيه الحياة المنزلية ، والاقتصادية ، والسياسية ، والحقوقية ، والدولية ، والدينية ، والفنية .

لقد اثارت آراء (دور كهايم) في علم الاجتماع بصورة عامة ، وفي علم الاجتماع الديني بصورة خاصة ، ضجة عظيمة فانتقده بعضهم لقوله بروح اجتماعية كلية مختلفة عن النفس الفردية ، وزعمه ان لهذه الروح وجوداً حقيقياً شبيهاً بوجود الذوات الروحانية والعقول المفارقة . وانتقدوه ايضاً لزعمه ان العقائد الدينية والفرائض والأخلاق هي أشياء خارجية ليس غير . ولكن علم الاجتماع قد صحح بعد ذلك كثيراً من هذه الآراء ، فأخذ بمبدأ التقيد الطبيعي ، واعتمد على الملاحظة ، والاحصاء ،

والتاريخ ، والمقارنة . ومهما يكن من أمر فان علم الاجتماع لا ينكر وجود الديانة ، بل يعتبرها اصلاً ضرورياً من أصول الحياة الاجتماعية . وغاية ما يرجوه علماء الاجتماع ان يعللوا نشأة الديانات المختلفة ، ويبينوا مراحل تطورها ، بطريقة علمية وضعية ، من غير ان يتعرضوا للبحث في أصلها السماوي بالنفي او الاثبات . وفي الكتاب الذي جمعه السيد يوسف شلحت دليل واضح على ذلك . وهو فيما نعلم اول محاولة باللغة بالعربية للبحث في نشأة الديانات بطريقة علمية . الا ان هذه المحاولة كغيرها من المحاولات في اللغات الأجنبية ، لم تبلغ بعد درجة العلم اليقيني . ففيها كثير من الآراء والنظريات ، وفيها كثير من التردد والالتواء ، وهي ستثير ، كما قال (دور كهايم) نفسه عن آرائه ، دهشة القراء . وهذا لا ينقص من قيمتها ، بل انه سيدفع الباحثين عن حقيقة الديانة الى الاقتباس منها ، او الى نقدها ، وبيان نقاط الضعف فيها ، للوصول الى ما هو اتم واكمل . ان العلم اليقيني لا يخلق كاملاً كما خلقت (فينوس) ، بل يتكامل شيئاً فشيئاً ، ويتبع في نشوئه مراحل كثيرة منها ما هو تقدم وارتقاء ، ومنها ما هو تأخر والتواء ، ان الأنهار الكبيرة لا تتكون الا من اجتماع الجداول الصغيرة . وحسب مؤلف هذا الكتاب ان يكون احد هذه الجداول .

جميل صليبا

الدكتور وليم ستكل ، أقنعة الحب

نقله الى العربية وشرحه الاستاذ أحمد سامح الخالدي ونشرته مكتبة فلسطين العلمية
طبع بمطبعة بيت المقدس في القدس عام ١٩٤٦ ، وعدد صفحاته ١٦٤ من القطع الوسط

ليس في الكتب النفسية كتاب هو أمتع ولا أنفع من الكتب المشتملة على وصف الحياة الباطنية . تقرأ الكتاب في ليلة واحدة او ليلتين فيخيل اليك انك في عالم غير هذا العالم ، تطل منه على العواطف المكبوتة والغرائز المكنونة والأحلام المرموقة .. ثم إنك اذا اطلعت على ذلك كله أدركت ان كثيراً من أفعالنا وانفعالاتنا

وارادتنا إنما يرجع الى ميل مكبوت أو نزعة مخنوقة دفناها في القلب ثم حلنا بينها وبين العالم الخارجي بحجاب التربية وقيود المجتمع . ولكن هذه الرغبات المدفونة وراء حجاب الشعور لا تموت ، بل تتجمع بعضها فوق بعض ، ثم تمزّق أكفانها وتحاول الظهور على مسرح الشعور بمظهر جديد . وقد تطالب بحقها أكثر من ذلك فتثور على الحياة الواعية ، ويبتدئ اذ ذاك نزاع شديد بينهما قد يؤدي في النهاية الى الجنون .

وفي الكتاب الذي بين أيدينا وصف للأقنعة التي نغطي بها نزعاتنا ورغائبنا المدفونة كقناع العمى الارادي وقناع الحساسية الشديدة ، وقناع الباعث الجنسي ، وقناع التردد ، وقناع الخوف من طبيب الأسنان ، وارادة المرض والقبح ، وضعف الارادة واختيار المهنة وغيرها سلك المؤلف في تعليلها طريقة أستاذه (فرويد) الذي أرجع كل شيء الى الغريزة الجنسية .

فمن الأمثلة الدالة على العمى الارادي ضيق المجال البصري عند بعضهم وتعاميهم الارادي عن رؤية الأشياء ، وانصرافهم الى التحديق في فكرة محدودة راسخة ، ورغبة بعضهم الآخر في كل شيء حتى يشبهوا دوامة الماء التي لا تعرف الوقوف . فهم ابداً في شغل شاغل يخشون ان تمر بهم ساعة فراغ ، ويشغلون انفسهم ليمنعوها من التفكير فيما لا يريدون أن يفكروا فيه .

ومن الأمثلة الدالة على الحساسية الشديدة حال الذين تتوتر أعصابهم فيتألمون من أقل ضجة ولا ينامون الا اذا سكن كل شيء وقد يفرّون الى القرى طلباً للراحة فلا تعرف الراحة سبيلاً الى قلوبهم ، لأن آلامهم ناشئة عن سبب داخلي ، يخشون تمتمة صدورهم ويفرقون من سماع أصوات غريبة تدوي في آذانهم « بل من رنين او طنين او دق مستديم يشبه دق الأجراس » (ص — ٤٢) .

ومن الأمثلة الدالة على اقنعة الباعث الجنسي وقوع بعض الناس في امراض نعجز عن تعليل اسبابها ، وتكون امراضهم هذه بمثابة قناع يغطون به حبهم .

وأقنعة الحب ثلاثة : الحياء ، والشوق ، والاحتقار . اما الحياء فهو اعتراف بالغريزة الجنسية واخفاء لباعث الحب . واما الشوق فهو دليل على الخوف من الذات . وله أشكال مختلفة ترجع جميعها الى اصل نفسي يحوله المريض الى إحساس . فالسيدة التعسة بحبها تتكر أسباب شقائها فتحولها الى ضيق في الصدر ، وأوجاع في القلب . والسيدة التي تكره زوجها وترغب في موته من نوبة صرع قد تصاب في نفسها بخوف مرضي يشبه هذه النوبة . ومثل هذا كثير فهناك فتيات كن يعشقن رؤساءهن ، وطالبات كن يعشقن اساتذتهن ، ونساء كن يحببن اصدقاء رجالهن ؛ أخفين اسرارهن حتى عن أنفسهن فأصبن بآلام القلب وضيق التنفس العصبي او الربو او ببعض الاضطرابات العضوية الأخرى . واما الاحتقار فهو رغبة نعبر عنها تعبيراً سلبياً فكم من أوجاع في المعدة ليست سوى اضطرابات عصبية يمكن ارجاعها الى احتقار لا شعوري . ان بعض الفتيات اللواتي يمتنعن فجأة عن أكل اللحوم يحتقرن كل ما يمت الى الجسد بصلة ، فينقلب احتقارهن للجسد الى احتقار للغذاء . وأكثر النباتيين المتعصبين انما يرجع تعصبهم الى مثل ذلك . وقد وصف المؤلف كثيراً من أقنعة اله الحب كالأرق ، وجنون السرقة ، وجنون الحريق وغيرها . قال انه عرف طبيباً عنيناً أسس جمعية لمقاومة الأمراض التناسلية ، واستاذاً فاضلاً كان قد اخذ على نفسه ان يفتش جميع المخازن التي تبيع رسوماً مخلة بالآداب جاءه يوماً وهو يرتعش من شدة القلق لسلوكه سلوكاً شائناً مع إحدى الفتيات ، وقاضياً كان عديم الشفقة على الذين يخلون بالآداب العامة عثر عليه يوماً مقتولاً في مكتبه لارتكابه حادثة مخالفة للشرف .

وفي الكتاب أمثلة كثيرة غير هذه الا انها لا تخلو من المبالغة والتعميم . فمن هذه المبالغات الأدبية قول المؤلف ان الطبيب الجراح ليس سوى قاتل أعد نفسه لمطالب المدنية ثم صعد بواعثه الوحشية الى ميول سامية . وكذلك المتهالك في حب النساء يصبح طبيباً مولداً . أن المغرم بالأقدام الصغيرة يصبح صانع

أحذية ، كما ان عاشق الأنامل الجميلة يختار لنفسه مهنة قص الأظافر ، واذا كان رساماً قصر عمله على رسم الأيدي ، وقد يصبح ايضاً صانع قفازات الى غير ذلك من الأمور التي تصدق على بعض الأشخاص ولا يجوز تعميمها واطلاقها على كل انسان . فالغريزة الجنسية عامل قوي مؤثر في سلوكنا ، الا انها لا تنفرد وحدها بالتأثير .

وقد نقل الأستاذ سامح الخالدي هذا الكتاب الى اللغة العربية بأسلوب واضح وشرح بعض رموزه شرحاً مقتضباً ثم صدره بمقدمة وافية في التحليل النفسي . ولكن أسلوبه في الترجمة لا يخلو في بعض الأحيان من التردد ، وشرحه المقتضب لا يخلو من التكرار .

ج . ص

مجمع البيان في تفسير القرآن

ما أشد حاجتنا نحن معشر أهل السنة الى أمثال هذه التفاسير المعول عليها عند اخواننا علماء الشيعة الامامية ولا سيما ما ألف منها قبل العهد الصفوي . فكم يكون زميلنا الاستاذ عارف الزين صاحب مجلة العرفان موفقاً في طبع هذا التفسير ونشره .

مؤلف التفسير من اكابر علماء الشيعة الامامية في القرن السادس (توفي سنة ٥٤٨ هـ) واسمه (ابو علي الفضل بن الحسن الطبرسي) نسبة الى بلاد طبرستان . والتفسير يقع في عشر مجلدات غير ان الناشر اصدره في خمس جاعلاً كل جزئين في جلد واحد . مجموع صفحاتها ٣٠٠٠ من القطع الكبير . وقد وقف على تصحيحها فئة من الأفاضل . وطبعت سنة ١٣٣٣ هـ في مطبعة العرفان بصيدا . وللكتاب ثلاث مقدمات (١) في ترجمة المؤلف بقلم العلامة محسن الأمين (٢) بعنوان كلمة في التفسير بقلم زميلنا الشيخ احمد رضا العاملي (٣) مقدمة المؤلف الطبرسي في القرآن وآياته وقرائه وأساميه وعلومه وفضله وما يستحب من تزيين الصوت بقراءته - وقد تضمنت هذه المقدمات ما لا يحصى من الفوائد . والمؤلف اذا ذكر الآية فصّل القول فيها تفصيلاً حسناً

مميزاً بين المطالب التفسيرية بعنوانات خاصة : (القراآت) (اللغة) (الاعراب) (الحجة) (المعنى) . ويريد بالحجة بيان حجج القراآت المختلفة . وقد اعجبنا من المفسر توسعه في تحليل الكلمات اللغوية وسرد الشواهد عليها . كما اعجبنا إيراده معنى الآية إيراداً وسطاً لا هو بالمسهب الممل ، ولا بالمقتضب المخل ، بعبارة سهلة متينة لا تكلف فيها كما هو شأن الفحول من علمائنا الأقدمين رضي الله عنهم . وقد قال العلامة محسن في مقدمته :

اتفقت الأئمة على توثيق المؤلف وتبحره وغزارة مادته وقد جمع في تفسيره أنواع العلوم وما تشتت من الأقوال مع الاعتدال وحسن الاختيار في تلك الأقوال والتأدب وحفظ اللسان مع من يخالفه في الرأي بحيث لا يوجد في كلامه شيء ينفر الخصم أو يشتمل على التهجين والتقبيح . وقل ما يوجد في المصنفين من يسلم كلامه من ذلك . وانظر الى ما قاله في مقدمة كتابه (الكاف الشاف في مختصر الكشاف) في حق صاحب الكشاف وما فيه من التعظيم له والثناء البليغ على علمه وفضله — تعلم ان المفسر الطبرسي من الفضل والانصاف وطهارة النفس في مرتبة عالية انتهى)

وبالجملة فان هذا التفسير من امتع التفاسير واجمعها لفنون العلم واحسنها ترتيباً لها ، وأيراداً لمسائلها ، ووصفُ الشيخ محسن للمؤلف (بالاعتدال والتأدب وحفظ اللسان مع من يخالفه في الرأي) حق وهو من أجل الأوصاف التي يجب ان يتحلى بها رجال الفرق الاسلامية . وقد شاهدنا اثر اعتدال المؤلف وتأدبه في ص ٣٢ من الجزء الخامس عند تفسيره لقوله تعالى (إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين اذ هما في الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها) وقد أرجع المؤلف ضمير (عليه) الى النبي ﷺ ثم قال ما نصه (وقد ذكرت الشيعة في تخصيص النبي في هذه الآية بالسكينة — (اي دون ابي بكر) — كلا ما رأينا الاضراب عن ذكره أحرى لئلا ينسبنا ناسب الى شيء) اقول ولعمري ان الاضراب عن ذكره حسن . وأحسن منه عندي ان لا يضرب عنه بل يأتي عليه ثم يخاطب الفريقين الأخوين بتهجين هذه الأبحاث المتكلفة في تفسير القرآن الذي ألف بين قلوب المسلمين

فقام المسلمون وخالفوا القرآن: ففرقوا ذات بينهم . وجزّوا انفسهم بأيديهم الى حينهم .

وقال المؤلف في تفسير الآية نفسها قولاً نوافقه عليه كل الموافقة . وهو ان بعضهم جوز ان تكون الهاء في (عليه) راجعة الى ابي بكر (رضي الله عنه) على معنى ان الله ألقى في قلب ابي بكر ما جعله يسكن ويهدأ بعد الجزع . قال المفسر الطبرسي (وهذا بعيد لأن الضمائر المذكورة قبل (عليه) وبعده تعود كلها الى النبي بلا خلاف : (الا تنصروه فقد نصره) (إذ أخرجه) (لصاحبه) — وأيده) فكيف يتخلل هذه الضمائر ضمير (عليه) العائد الى غير النبي انتهى ما قاله المؤلف وقد اصاب فيه كل الاصابة : لأن كلام الله اذا ذاك يبقى حسن الرتّل . متلائم الأجزاء . لا تشاخس فيه ولا تفكك ولا خروج عن الصدد . والخروج عن الصدد معيب اذا وقع في كلام الخطباء . وحديث الجلساء . فكيف نقرّه في كلام رب الأرض والسماء .

ويا ليت المؤلف مذ قال هذا القول هنا اي في آية (فأنزل الله سكينته عليه) قاله في آيات (يا نساء النبي لستن كأحد من النساء ... فلا تخضعن (أي يانساء النبي) وقُلن (اي يا نساء النبي) وقرن (اي يا نساء النبي) ولا تبرّجن (اي يا نساء النبي) وأقمن الصلاة (اي يا نساء النبي) وآتين الزكاة (اي يا نساء النبي) وأطعن الله (اي يا نساء النبي) انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً (اي يا محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين) واذكرن ما يتلى في بيوتكن (اي يا نساء النبي) : فقد قال المؤلف اختلفوا في مراد الآية (بأهل البيت) : فقال عكرمة أراد أزواج النبي (ﷺ) لأن اول الآية متوجه اليهن . وقال ابو سعيد الخدري وانس بن مالك وواثلة ابن الاسقع وعائشة (إحدى الأزواج المخاطبات اولاً !) وام سلمة (إحدى الازواج المخاطبات أيضاً !) ان الآية (اي آية انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس المتخللة في الآيات) مختصة برسول الله (ﷺ) وعلى فاطمة والحسن والحسين) ثم ذكر المصنف أحاديث ذكر فيها ان المراد بالآية سادتنا الخمسة المذكورين وختمها بقوله :

(فثبت ان الآية مختصة بهم لبطلان ! تعلقها بغيرهم . ومتى اعترض بأن صدر الآية وما بعدها في الأزواج فالقول فيه : إن هذا لا ينكره من عرف عادة الفصحاء في كلامهم ، فانهم يذهبون من خطاب الى غيره ويعودون اليه ، والقرآن من ذلك مملوء . وكذلك كلام العرب وأشعارهم اه قول المؤلف .

المغربي

عبد الله فكري (عصره) ، (حياته) ، (أدبه)

تأليف محمد عبد الغني حسن بمقدمة كتبها عبد الحميد العبادي بك

وقد طبع في مصر سنة ٩٤٦ م

أهدي الى مجمعنا هذا الكتاب في ترجمة حياة زعيم من كبار زعماء النهضة الأدبية المصرية . وقد شعرت وانا اتصفحه بعاطفة هزت نفسي وهاجت مسرتي واذكرتني ايام الحداثة والاهتمام بالطلب والتحصيل : ذلك ان صديقاً لي في ذلك العهد يعرف مني الحرص على مطالعة ما ينشر من الآثار الجديدة في العلم والأدب أطلعني على كتاب صغير لا يزيد على حجم الكف طبع حديثاً في مصر (أى في سنة ١٣٠٦) باسم (الرحلة البعلبكية) لمنشئها (سعادة عبد الله فكري باشا) فلم اكتف بمطالعة هذه الرحلة إعجاباً بها وحرصاً عليها بل اسرعت الى نسخها وما زالت نسختها الى اليوم بين أوراقي . وكنت اقرؤها على الاخوان المرة بعد المرة واستثير اعجابهم بما تضمنته من براعة في الأسلوب . وحذق في السجع . ولطف اشارة الى الملح العلمية والنكت الأدبية . وكنا في ذلك العهد ندرس الأدب القديم ونرى الحاجة ماسة الى تطوره والتجديد فيه . كما تنبهت عقولنا الى شيء يقال له الأدب الحديث أو العلوم العصرية ووجوب الاهتمام بها لتتم لنا نهضة صحيحة . فرأينا في تلك الرحلة ما دلنا على ان صاحبها من أولئك الذين يعملون على التجديد والنهوض : فهو يحاول تفكيك قيود الأدب القديم والأخذ به نحو طريقة حديثة

تجمع بين متانة اللغة العربية • وصحة أسلوبها — وبين استعمالها في الفنون العصرية والمطالب الاجتماعية الحديثة • غير انه لم يتح لعبد الله فكري التملص بتاتاً من السجع الموروث • وكان يشايعه على هذا التجديد في الأدب زعيم آخر من وزراء مصر هو (علي باشا مبارك) مؤلف كتاب (علم الدين) الذي لم يصدر منه سوى اربعة أجزاء • وقد كنت قرأته لأول ما صدرت طبعته في الاسكندرية • فكنت اجد فيه وفي صاحبه ما وجدته في الرحلة البعلبكية ومنشئها من حيث محاولتها التجديد في الأدب العربي وسلوك منحى عصري فيه وكان في الأستانة لذلك العهد أناس آخرون من أبناء العرب ينحون نحاهما ويعملون على شاكلتها وهما (الطويراني) و (السلاوي) واشياعهما •

وقد بقي هذا الأدب الجديد المسجع موضع اهتمام القراء حتى ظهرت جريدة العروة الوثقى التي كان ينشؤها استاذنا (محمد عبده) في باريس على عين من السيد (جمال الدين الأفغاني) فكان هذا مبدأ عهد جديد في أساليب الانشاء العربي وتوجيه الأدب عامة الى خدمة الاجتماع الاسلامي والسياسة القومية وانعاش الاخلاق الدينية والدعوة الى الاصلاح في هذه المطالب الثلاث • فلا جرم ان كان هؤلاء المنشئون من كتاب العرب هم زعماؤنا في هذا الفتح الجديد وتمهيد الطريق اليه • والكتاب الذي أمامنا في ترجمة حياة عبد الله فكري فيه الشواهد الكثيرة على ما قلناه من أنه كان مجدداً في (عصره) و (حياته) و (أدبه) وقد فصل هذا كله الفاضل (محمد عبد الغني حسن) مؤلف الكتاب احسن تفصيل • وابرزه في اجمل أسلوب • والطف تعبير : والكلام في ترجمة المترجم يتصل بالكلام في حالة الجيل الماضي الذي عاش المترجم بينهم • وكانوا تلاميذ مدرستين : مدرسة التعليم الديني • ومدرسة التعليم المدني • ولكل من المدرستين كتب وطرائق واساليب • فوصف المؤلف كل هذا وحدد موقف المترجم من تعاليم المدرستين • ورجال المدرستين • ثم وصف اخلاق المترجم وعصاميته وشعره ونثره وآثاره الأدبية • رحلاته الى اوربا وسورية • وذكر اصدقائه

هنا وهناك وهنالك ولا سيما علاقته بالشيخ محمد عبده وشهادة الشيخ فيه وتعلق الأمير شكيب بصداقته منذ حداثته . قال الأمير (وكان الشيخ عبده شديد الحب لعبد الله باشا فكري لا يفتأ يذكر محامده .... وكان يعجبه من شعره قوله مخاطباً للخديوي توفيق :

(ولو شئت كانت لي زروع وأنعم ... ومال به الآمال أقتادها قسرا)

(ولكنها نفس فدتك أبية ... تعاف الدنايا ان تمر بها مرا)

والكتاب بمجموعه طرفة أدبية لا تُمل قراءته . ولا تنتهي فرائده . وللقارئ هذا النموذج منه وقد وصف المؤلف فيه (الرحلة البعلبكية) التي أشرت اليها في صدر الكلام . ولعل ما في هذه الرحلة أظرف مداعبات المترجم ومضاحكاته . وقد كان بينه وبين (الشيخ عبد المجيد الخاني) (وهو المخاطب في الرحلة) مكاتبات تدل على ما كان بين المترجم وبين أعيان دمشق من الحب وخلوص الود . وكان للسيد الخاني (لازمة) يستعملها في الحديث هي لفظة (المدهش والمدهشات والمنعش والمنعشات) فكان اصدقاؤه المصريون يتندرون بها عليه . ويودعونها رسائلهم اليه . حتى ان الأستاذ الشيخ محمد عبده كتب اليه من رسالة فقال : (ويهدي الى حضرتكم التحيات المدهشات والتسليمات المنعشات حضرات الأساتذة (فلان وفلان) .

وافتتح عبد الله باشا فكري خطابه الى السيد الخاني في (الرحلة البعلبكية) بقوله (اهدي اليك من منعشات التحية والسلام ، وأتلو عليك من مدهشات الشوق والغرام ما يجمل إجماله لواصفه ولا يلزم تفصيله لعارفه) .

وفي هذه (الرحلة البعلبكية) ما فيها من ظرف عبد الله فكري وأدبه وخفة روحه حتى لقد أرسل نفسه على سجيتها مع الشيخ الخاني (ينتقل به من دمشق الى دمر الى الفيجة . ويصف المكاري الذي حمله على حصانه وقد ضلت به السبل . وتشعبت أمامه الطرق . ولعن الحصان الذي تحته وسبه . وألحق به دينه ومذهبه . ومن باعه وركبه . وامواته واحياءه . وعشائره واحباءه . فلما وصل الى رأس السوق (سوق وادي بردى) التمس داراً للمقام والتمس غذاء فلم يجد غير دجاجات اضلتهن

أيدي الحدثان . وافلتتهن مخالب أنسر لقمان قد وعين الطوفان . وتطاول عليهن تقادم الزمان . فما زلن يصاولن الأيام ويواصلن الصيام . حتى يبسن وسمجن . وفني عليهن الحطب ولم ينضجن) ثم عاد فشكا في الرحلة تيبس المداد في بعلبك بقوله (أشكو من هذا المداد الجامد . مالا اشكوه من المكاري البارد) ووصف توقف القلم عن الجري على القرطاس بقوله (فيقف عن جولانه . وقفة الحمار في المدار . ويثبت في مكانه . ثبوت المسمار في الجدار الخ

أقول وللشيخ عبد الغني النابلسي في رحلته الى طرابلس المسماة التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية) وصف للصعوبات والمشاق التي قاساها في تلك الجبال وعقابها والأودية ووهادها تشبه في الجملة ما قاله عبد الله باشا فكري في رحلته البعلبكية وبين الرحلتين ٨٠ سنة .

(ملاحظة) قرأنا في احدى الصحف المصرية بالأمس ان كتاباً في ترجمة (عبدالله باشا فكري) ألفه الأستاذ السيد العناني وقدم له الشاعر خليل بك مطران .

المغربي

(من عبقريات نساء القرن ١٩)

جزؤه الأول تأليف السيد يوسف يعقوب مسكوني

طبع في بغداد سنة ١٩٢٦ م

عُني بوضع هذا الكتاب الأستاذ الموما اليه وقد أراد ان يجمع شتات ما تفرق من تراجم شهيرات النساء المعاصرات فضمن جزءه الأول ثلاثاً منهن . وكأنه أراد ان يشير بهذا الجمع الى ان نهضة المرأة العربية لم تكن مقتصرة على طائفة واحدة من أقوام الأمة العربية وانما النهضة كانت عامة شاملة نساء الطوائف كلها فترجم للسيدة عائشة التيمورية (المتوفاة سنة ٩٠٣) رامزاً بها الى المرأة العربية السنية ثم للسيدة وردة اليازجي (المتوفاة سنة ١٩٢٤ م) رامزاً بها الى المرأة العربية المسيحية ثم للسيدة زينب فواز (المتوفاة سنة ١٩٢٤ م) رامزاً بها الى المرأة العربية الشيعية

والكتاب في ٢٣٦ صفحة وزع المؤلف الكلام فيها على الثلاث توزيعاً يكاد يكون متساوياً . وقد بسط القول فيهن وفي آثارهن وأخبارهن بسطاً شافياً مزيناً بصورتين للمترجمتين الأوليين عدا مقدمة بقلمه أوجز فيها القول عن نهضة المرأة من حيث هي امرأة: ماهيتها وأخلاقها وطباعها والمقارنة بينها وبين الرجل وزواجها وأخيراً (هي تاج الرجل ولكن أين هي ؟ ؟)

وانا لشاكرون له سعيه الجميل في وضع هذا التصنيف المفيد وهو موفق الى إتمامه إن شاء الله .

المغربي

ضوء في تاريخ التوحيد

البحث الأول

التصوف في نظر الاسلام

تأليف الأستاذ احمد صبري شويمان

أهدى الينا صديقنا الأستاذ محمد افندي نصيف كتاب « الضوء » ورغب إليّ أن انشر في مجلة مجمعنا العلمي الكريم رأيي فيه ، والذي يمعن النظر في هذا الكتاب ويسير على ضيائه ، يرى أن عنوانه جزء من أجزائه ، فهو لم يقصر بحثه على التصوف في نظر الإسلام كما يؤخذ من عنوانه ، بل جاوزه إلى النظر في حقيقة التصوف العامة في العالم كله ، وعمد إلى تفسيرها وتجلية غوامضها ، وتعقب عواملها ، وأغراضها بين مختلف الشعوب كما أشار إلى ذلك في طليعة كتابه .

وقد رتب المؤلف هذا الكتاب على ستة أبواب كبرى أدخل في كل باب منها فصولاً تناسبه ، وجعل بعض تلك الفصول أصولاً لمباحث اشتقها منها وبناها عليها . والكتاب في جملته يقع في ثلاثمائة وسبعين صفحة بقطع الربع ، وها هي ذي عناوين أبوابه الستة :

(١) نشأة التصوف مع الانسان (٢) فطرة الإنسان واحدة وسلوكه مختلف

(٣) منابع الفطرة في الجزيرة العربية (٤) البيت العربي (٥) العقل العربي (٦) الدين العربي .

وأما الفصول التي جعلت أصولاً لغيرها فمنها فصل أصل العالم، وفطرة البدن السليم، وفطرة النفس المطمئنة، وهذه الفصول الثلاثة داخلة في الباب الثالث (منابع الفطرة) .

ومن مباحثه الخلقية ما كتبه تحت عنوان : أمم مريضة بطبيعتها ، الضعف العقلي أساس المرض التناسلي ، الفسق من عوامل الانقراض ، مصارع المراهقة ، الشذوذ الجنسي ، الصوفية والشذوذ الجنسي » .

هذه مجملات من أبواب الكتاب وفصوله ، وهو في جملته ذم للتصوف عند جميع الأمم ، ورمي لأهله بالفسوق والمروق والضعة والخمول ، وهذا التعميم غير جار على سنة القرآن الحكيم ، الذي يزن بالقسطاس المستقيم ، فالتصوف في أول نشأته بين المسلمين كان زهداً في الدنيا وعرضها الأدنى وايثاراً للآخرة عليها وجهاداً في سبيل الله واقامة لميزان الحق والعدل بين الناس ؛ وعلى ذلك مضى السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ومن تبعهم باحسان ، ولم يكن اسم التصوف معروفاً لهم ، ثم حدث له هذا الاسم ، ومن بعد أن كان مسماه نسكاً وزهداً وبعداً عن مظاهر الترف والنعيم ، صار آراء فلسفية تنقل فيها أهلها الى القول بالحلول والاتحاد . ثم انقلب إلى شعبذة وشعوذة وتغرير بالبسطاء وتزلف للحكام ، وأكل لأموال الناس بالباطل .

وكان على المؤلف — وهو يستعرض التصوف القديم والحديث عند جميع طبقات البشر — أن ينوه بمتصوفة الوطن الذين جردوا أنفسهم لخدمته ، واستنفدوا جهودهم في سبيله ، كزعيم مصر سعد ، وكغاندي الهند ، وأن يتناول بذمه من اتخذوا لتصوفهم مواسم ومراسم يطلعون فيها على الناس بأزياء وألوان وهيئات غريبة تشبه في مظاهرها عيد المساخر عند بعض الأمم ! وكان من حق الحكومة الإسلامية التي تدعى اليها وتشارك فيها أن تمنعها لأنها تقام باسم الدين الذي يبرأ منها ، ويعد أهلها من الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعبا .

وقد وقع المؤلف في أغلاط دينية كبرى ما ندري ما الذي جرّه اليها أوجرّأه عليها ! ، فمنها تعريفه للدين بأنه « تجنب السلوك بما يخالف الفطرة » « أو هو الكيفية التي توحي بها الفطرة السليمة حلّ المشاكل الانسانية اﻫ ص ٤٣ » وهذا دين غير اسلامي ولا سماوي ، لأنه يستمد الإلهام والنظام من الفطرة الإنسانية لا من الشرائع السماوية التي أنزلها الله على أنبيائه وأرسلهم بها الى الناس ، وليس منبع الدين النفس ولا مصدره الإلهام ، ولكنه وضع إلهي ، ووحي سماوي ينير للفطر السليمة طريق السعادة العظمى .

(ومنها) تفسيره للسبع المثاني بقوله :

« السبع المثاني — على خلاف رأي الأعاجم من المفسرين — هي الأربعة عشر حرفاً التي أقسم بها الله في أوائل السور في مثل قوله « الم » الخ « ثم قال » : وقد غلط المفسرون بطبيعة عجمتهم حين زعموا أن السبع المثاني هي سبع سور أوسبع آيات الخ .

أعلمت أيها القارئ الكريم من هؤلاء الأعاجم الذين فسروا السبع المثاني بأنها سبع سور أو سبع آيات ؟ إنهم أجلاء الصحابة والتابعين كعمر وعلي وابن مسعود وابن عمر وابن عباس ، وكمجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وغيرهم ، واختاره ابن جرير واحتج بالأحاديث الواردة في ذلك ، [راجع تفسير الآية : ولقد آتيناك سبعاً من المثاني ، والقرآن العظيم ، من سورة الحجر ، في تفسيري الحافظين ابن جرير وابن كثير] ثم من أين له العلم بأن الله تعالى أقسم بهذه الحروف الأربعة عشر ، وهي ليست إلا حروفاً مفردة ، وحروف القسم الثلاثة ليست منها ؟

حسبي بما أوردت شاهداً على جزمه بما ليس له به علم ، أو بما يعلم خلافه !!

ومن الأغلاط اللغوية إتيانه بكلمة « فقط » في غير موضعها كقوله ص ٥٤ تقوم فقط على غير الفطرة وص ٨٣ لا يؤدي فقط إلى إنهاك قوى الجسم وإضعافه و ص ٧ ـ ٣ ولكننا نفسر فقط ما اشتهر من رأي العرب في الجن » والصواب أن تكون « فقط » في آخر هذه الجمل الثلاث ، فيقال : تقوم على صورة الفطرة فقط الخ كما هو ظاهر وجملة القول : انا نرجو أن يكون هذا الكتاب داعياً الى الأخذ بمعالي الأمور ، وترك سفسافها .

محمد بهجة البيطار

مختصر تاريخ الحضارة العربية

تصنيف الأستاذين راتب الحسامي وجورج حداد ، في (٥٤١) صفحة من القطع المتوسط يتخللها بعض الصور . وهو من منشورات دار اليقظة العربية بدمشق .

حاول الأستاذان في هذا الكتاب اختصار تاريخ الحضارة العربية في مختلف نواحيها . فبحثا في ادارة الدولة الاسلامية وحياتها الاجتماعية والاقتصادية وحركاتها الفكرية والفنية . وقد ادركا : « بأن وضع مثل هذا الكتاب ليس بالأمر السهل نظراً لاتساع موضوعه ووفرة مادته ، خصوصاً والايجاز والاختصار اصعب في مثل هذه الأبحاث من التطويل والاسهاب » . ويلمس القارئ في كل فصل من فصول هـذا الكتاب أثراً لهذه الصعوبات ، ويتبين له ما بذله المصنفان من جهد للتوفيق بين حاجة الطالب في أفقه المحدود ورغبة المطالع الطامع في زيادة المعرفة والاستفادة .

وهذا الكتاب هو غني بمادته ، واسع بأبحاثه . والذي كنا نرجوه لو تجنب الأستاذان في أبحاثهما بعض المسائل الخلافية والتوسع فيها — لا سيما فيما جاء في فصلي الحياة الفنية والحياة الفكرية — لأمنا العثار وسلم الكتاب من الزلات والأخطاء والجدل التي تشوش على التلميذ ولا ينتفع بها . ولا ننسى ان ما يصح بحثه ومعالجته خارج النطاق المدرسي يحسن ان لا نتسامح به في الكتب المدرسية .

وقد عثرنا على أخطاء نشير الى اهمها . فقد جاء في :

ص ٢٣ شاب من العباسيين اسمه عبد الرحمن الخ . وصوابه شاب من الامويين

« ٨٦ محمود الزنكي المعروف بالملك العادل . وصوابه محمود بن زنكي والمعروف بالملك العادل هو سيف الدين ابو بكر بن ايوب وليس نور الدين

« ١٤١ بجاية في الأندلس وصوابه على ساحل افريقية .

« ٢٥٩ زعما ان قصر المشتى من بناء الغساسنة والصواب انه من بناء الأمويين .

« ٢٧٠ قصر الخزنة . لا يعرف قصر بهذا الاسم ولعله قصر خرانة الموجود في البلقاء .

ص ٣٢٢ زعما ان زرياب او الكندي قد زادا الوتر الخامس في العود . والحقيقة
ان الوتر الخامس كان موجوداً في زمن هشام بن عبد الملك اي
قبل زرياب والكندي بزمن طويل كما هو ظاهر في الصور التي عثر عليها
في قصر الحير الأموي .

« ٣٢٦ البرونز . هي كلمة أعجمية وتعريبها الشبه .

« ٣٣٢ مدينة ليون باسبانيا ، وصوابه في فرنسا .

« ٣٤٠ قالا : « ويظهر انهم لم يذكروا اسم البلد الذي ضربت فيه النقود حتى
اوائل القرن الثاني للهجرة » وهذا لا يتفق مع الحقيقة لأن اسم البلد
قد ذكر على الدراهم الاسلامية منذ الوليد بن عبد الملك .

« ٣٤٦ قالا : « ليس العصر الذي سبق الاسلام عصراً جاهلياً لأن التاريخ
ثبت ان الفكر العربي كان آنذاك نامياً ... الخ » وهذا تفسير مغلوط
لأن اطلاق اسم العصر الجاهلي على العصر الذي سبق الاسلام يقصد
منه الناحية الدينية فقط ولا يشمل الثقافة والفكر .

« ٤٣١ Monophysites وصوابه Monophysisme

« « Monothelites وصوابه Monothéisme

« « وكان مؤتمر خلقدونيا في سنة ٤٥١ لا في سنة ٤٤٨ .

« ٤٣٦ قالا عن مكتبة الاسكندرية « التي اتهم العرب باحراقها » وكان من
من أولى واجبات الاستاذين ان يدفعا هذه التهمة الباطلة عن العرب لأن المكتبة
حرقت قبل دخول العرب مصر بزمن طويل كما حققه وأثبته عدد كبير من
مؤرخي الغرب حتى اصبحت اليوم حقيقة لا تقبل الجدل وبعد ان عرف بأنها
فرية لفقها اعداء المسلمين .

وما نعيبه على هذا الكتاب المدرسي الاسراف في بحث منشأ الحضارة العربية
حتى يكاد القارئ ان يتخيلها حضارة ملفقة من انقاض حضارات بائدة انتحلها العرب

لأنفسهم . ولا ننكر بأن العرب قد أخذوا عن سواهم كثيراً من معالم حضارتهم – شأن جميع الأمم في قديمها وحديثها ولكن العرب قد امتازوا عن سواهم في صهر ما أخذوه في بوتقتهم فألبسوه حلة جديدة ضاع معها الأصل ، وكونوا منها حضارة لها شخصية واضحة مستقلة كأنها حضارة مبتكرة تتفق مع روحهم وعقليتهم ودينهم الجديد ، وهذا ابرز ما في الحضارة العربية واروع ما حققه العرب وهي الحضارة الوحيدة من نوعها التي تتجلى فيها العبقرية في كل نواحيها .

جعفر الحسني

الدليل البريطاني لعام ١٩٤٥

تصنيف جوزيف هويتيكر لندن ١٠٥٢ صفحة

Whitaker's Alinanack

اعتادت دور النشر الكبرى وأحياناً بعض الصحف ان تصدر دليلاً أو تقويماً في كل عام يحتوي على مختلف المعلومات المفصلة المتعلقة بحياة البلاد التي يصدر فيها ، وعلى معلومات اجمالية عن سائر بلاد العالم . والدليل البريطاني الذي نبحث عنه هو المجلد السابع والسبعون من مجموعة تصدر منذ ١٨٦٨ بادارة اسرة هويتيكر . ويمكن القول ان هذا الدليل هو موسوعة صغيرة عن الامبراطورية البريطانية ويتألف من ١٠٥٢ صفحة مطبوعة بالحرف الصغير . وهو يبدأ بمعلومات فلكية مفيدة تتعلق بالأبراج والنجوم والمجموعة الشمسية والأرض والزمن وحساب الأوقات والروزنامات وكذلك يحتوي على معلومات عملية مفيدة تتعلق بالأوزان والمكاييل وبالرموز والاختصارات المختلفة . ولكن القسم الأكبر منه يتناول بريطانيا العظمى وحكومتها وأنظمتها الادارية . وفيه جداول كثيرة بأسماء ملوك انكلترا ونوابها ، ولورداتها ، والقاب الشرف فيها وحامليها ، واسماء الدوائر

الحربية المختلفة وموظفيها وجداول بالمحاكم وموظفيها ، والاسقفيات واساقفتها ، وباسماء الجامعات والمدارس الكبرى وموظفيها ، واسماء الصحف والمصارف والنوادي .

والدليل يحوي زيادة على ذلك معلومات عن مختلف أجزاء الامبراطورية البريطانية من الوجهة التاريخية ثم من الوجهتين الجغرافية والادارية فيصف حكومة كل من هذه الأجزاء واسماء موظفيها ورواتبهم كما انه يصف حاصلاتها وتجارتها . واهم الأبحاث في هذا القسم تتناول امبراطورية الهند . وهنالك قسم في الدليل يبحث عن البلاد الأجنبية فتتناولها بلمحة تاريخية موجزة وبلمحة عن حكومتها ثم جغرافيتها الاقتصادية وتجارتها بشكل خاص ، وكذلك يبحث في علاقة انكلترا بها . واسماء ممثلي انكلترا الدبلوماسيين والقنصليين فيها . ولا يخلو هذا الدليل من وصف حوادث الحرب العالمية الأخيرة ومجهودات انكلترا فيها ، كما ان فيه بعض الجداول التاريخية التي تتعلق باسماء الملوك والرؤساء في مختلف الدول والأمم المالكة .

والمهم في هذا الكتاب انه لا توجد ناحية من نواحي النشاط في حياة انكلترا وامبراطوريتها الا ويصفها ويعطي الاسماء والاحصاءات والتواريخ المتعلقة بها ، فهو من هذه الناحية كتاب جزيل الفائدة . وحبذا لو قامت البلاد العربية — متعاونة او كل قطر بمفرده — بتصنيف دليل مثله فيكون وسيلة عملية للتعارف فيما بينها وللتعرف على تفاصيل الحياة الادارية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية في كل منها ، وعلى اسماء الرجال والهيئات القائمين بأعباء كل من نواحي النشاط فيها ، وللاطلاع على أهم الوثائق والأنظمة والقوانين التي لها علاقة بهذه النواحي .

جورج حداد

آراء وانباء

— ملاحظات لغوية —

نشرت في العدد الاول من المجلد الثامن عشر القسم الخامس من مقالي الذي عنوانه (نظرة في مجلة مجمع فؤاد الأول) . ومما ذكرته في ذلك القسم انه لا يوجد في العربية كلمة تدل على معنى(Ecussonnage) بالفرنسية وهو التطعيم بالبرعم، ويسمونه عندنا التطعيم بالرقعة ، وأنه من الضروري جعل كلمة (البرعمة) تتضمن هذا المعنى .

واذا بالدكتور مصطفى جواد يأتي بعد ثلاث سنين او أكثر فينشر في عدد آب من هذه السنة (ص ٣٨١) تتمة مقال له عنوانه (التنبيه والتوجيه) جاء فيه ان الكلمة الفرنسية المذكورة هي (التطعيم) بالعربية ، وانه لا حاجة الى (البرعمة) ، ثم نراه بعد هذا الفوز بعثوره على كلمة (التطعيم) ينقل لنا عن المسعودي وعن المقريزي جملاً استُعملت فيها هذه الكلمة اي التطعيم . وينهي كلامه بقوله : (وربط الثقافة العربية القديمة بالحديثة واجب راتب) .

قلت ان من أدواء هذه اللغة كون بعض لغوييها يستسهلون البحث عن مصطلحات علوم لا يجيدونها . فالتطعيم بحث واسع من أبحاث زراعة الشجر ، وفيه مؤلفات ، وله اشكال عديدة كالتطعيم بالبرعم (الرقعة) والتطعيم بالغرز (القلم) والتطعيم بالشق والتطعيم بالترصيع والتطعيم بالإدناء والتطعيم بالتصفيح وتطعيم اللحاء الخ . الخ . فكلمة (التطعيم) هي عامة تشمل كل هذه الاشكال . وليس في العربية كلمة واحدة تدل على شكل واحد بعينه من هذه الاشكال . ولا يجوز قصر معنى التطعيم على التطعيم بالبرعم . واستعمال كلمة (التطعيم) مجردة لا يفيد معنى التطعيم بالبرعم وحده بل يفيد أيضاً جميع الأشكال الأخرى مما ذكرته ومما لم اذكره . ولهذا طلبت في مقالي جعل كلمة البرعمة تتضمن معنى

(Ecussonnage) أي التطعيم بالبرعم · ويرى مجمع مصر أيضاً هذا الرأي · لكنه وضع كلمة التبرعم لهذا المعنى · وقلت في مقالي المذكور ان البرعمة اصلح · ويتضح من ذلك انه لو كان حضرة الكاتب الذي ألزم نفسه بالتنبيه والتوجيه عالماً بالعلوم الزراعية لكفى نفسه وقراء مجلة المجمع مثل هذه التوجيهات الخاطئة · أما تنبيهه الى (ربط الثقافة القديمة بالحديثة) فهو كلام يجب ان يوجهه الى نفسه ، لأن الذي يبحث عن التطعيم في كتب السلف لا يستشهد بجمل أوردها المسعودي أو المقريزي ، بل يراجع كتاب الفلاحة النبطية لابن وحشية وكتاب الفلاحة الأندلسية لابن العوام وكتاب الفلاحة الرومية لقسطا بن لوقا وغيرها من كتب السلف الزراعية فيجد فيها أبحاث التطعيم كما يجد الكلمات التي استعملوها مرادفة للتطعيم كالتركيب والإنشاب الخ · ومتى انتهى من تلاوة هذه الأبحاث ، وكان عالماً بالعلوم الزراعية الحديثة ، وعارفاً بمعاني الألفاظ الزراعية العربية ، جاز له بعد معالجة هذه الأمور سنين عديدة ان يدلي برأيه فيها ·

أما الدكتور مصطفى جواد فان له علماً وفضلاً ولكن في غير هذه الناحية فليتجنبها وليكتف بما هو عالم به يفد قراءه والمعجبين به وأنا منهم ·

(حلب) مصطفى الشهابي

غلطتان مطبعيتان

جاء في بحثي عن كتاب « تطور الري في العراق » المنشور في الجزء السابع والثامن من المجلد الحادي والعشرين غلطتان مطبعيتان واليك تصحيحها :

صفحة	غلط	صواب
٣٦٧	الخضروات	الخضراوات
٣٦٨	القرين	القزوين

م · ش

التنبيه والتوجيه

— ٣ —

٨ — وورد في ص ٤٤ « بعض اصطلاحات يونانية » وليس هذا من تعابير الفصحاء لأن « بعضاً » اذا أريد بها الجزء الواحد من كل الأجزاء — وهو المعنى الأصلي الذي وضعت له — فيجب لها ان تضاف الى معرفة · فيقال « بعض الاصطلاحات اي قسم منها وأحدها ، وإذا أريد بها جزء الجزء فيجوز ان تضاف حينذاك الى النكرة فيقال : « كتبت صحيفة أو بعض صحيفة » ومنه قوله تعالى : « قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم[1] » ، ولعل الكاتب الفاضل أراد « ببعض » ما يريد الفرنسيون بكلمة Quelque فالصواب « اصطلاحات يونانية » لأن التنكير يدل على القلة ويفيدها إذا كان الجمع خالياً من وصف يدل على الكثرة كأن يقال « اصطلاحات كثيرة » فمن الأولى قولنا « اشتريت دجاجات ، وشرحت كلمات ، وأقمت أياماً » وما اليه من العبارات · ونقول القول بعينه في العبارة الثانية الواردة في الصفحة المذكورة وهي تتعلق « ببعض نظرات » ·

٩ — وفي ص ٤٨ « فان السلف أخذها مباشرة عن اليونانيين » ومباشرة هذه هي ترجمة Directement الفرنسية ، وأقرب الأقوال العربية الفصيحة أن يقال «أخذوها قصداً » ولا محل هنا للمباشرة ولا وجه لاستعمالها ولو بالتأويل والتخريج ·

١٠ — وجاء في ص ٤٩ أن كلمة « ابليس » على رأي الكاتب الفاضل من Epiaès اليونانية لامن Diasolos · قلت : مابعد هذين اللفظين عن لفظ «ابليس» ! واللفظة القريبة منه هي « Diabolus » اللطينيّة ومنها الفرنسية Diable ·

١١ — وفي ص ٦٠ ما نصه « وقال الحاجب النقيب ابي محمد قل لولدك محمد » والصواب « ابي احمد » وهو والد الشريف الرضي ، والغلط يسير ولكن السكوت عنه على أهل البحث والتحري عسير

(١) سورة الكهف في الآية ١٩ منها

١٢ — وجاء في ص ٦١ ما هذا نصه « هذا ما ساقه ابن ابي الحديد في شرحه على النهج من غير ان يذكر السنة التي كتب فيها المحضر » . أراد محضر طعن العباسيين على نسب الفاطميين الذين اسسوا دولتهم في مصر بعد المغرب ، قلتُ : وليس كتاب شرح نهج البلاغة مقصوراً على التاريخ ولا موضوعاً للحوادث ، فمن مبادئ العلم بتاريخ بني العباس علم انهم كتبوا ذلك المحضر في سنة (٤٠٢) اثنتين واربعمائة للهجرة[1] وأما ابن الطحاوي الوارد ذكره بين الفقهاء في المتن أو البطحاوي — كما جاء في الحاشية — فصوابه « ابن البيضاوي » نسبة الى بيضاء فارس ، وهو محمد بن عبد الله بن احمد بن محمد الفقيه الشافعي قاضي ربع الكرخ ببغداد في زمان كان يسكن درب السلولي ويدرس الفقه ويفتي على مذهب الامام الشافعي ، توفي فجأة ليلة الجمعة الرابع عشر من رجب سنة أربع وعشرين واربعمائة ودُفن صبيحة تلك الليلة في مقبرة باب حرب من غربي بغداد[2]

١٣ — وجاء في ص ١١١ من المجلد انّ القاف شاع لفظها بالهمزة من أرمن حلب ثم عمت المدينة ومنها انبثت في سائر المدن التي ذكرناها » ، قلت : من المستبعد جداً ان تشيع هذا الشيوع وتعمّ هذا العموم وهي لثغة أرمنية يهودية حلبية ، لأن طبيعة الأصوات تستوجب ان تنقلب القاف الى كاف وهذه تكون همزة وهي اللثغة الطبيعية ، وقد نقل ياقوت أنّ احد الفتيان كانت به الكنة شديدة حتى كان لا يجري على لسانه حرفان من حروف المعجم « الراء والكاف » : يكون مكان الراء غيناً ومكان الكاف همزة فكان اذا اراد ان يقول كركي يقول « أغإي » واذا أراد أن يقول كركرة يقول « أغاغة » وينشد للأعشى

---

(١) ابو الفرج ابن الجوزي « المنتظم ج ٧ ص ٢٥٥ » وكرّرت كتابه المحضر سنة ٤٤٤ « المنتظم ج ٨ ص ١٥٤ » وكامل ابن الأثير في حوادث سنة ٤٠٢ والذهبي في دول الاسلام ج ١ ص ١٨٧

(٢) الخطيب البغدادي « ج ٥ ص ٤٧٦ »

«أغى غجلاً في أفه أثف» يريد «قالت أرى رجلاً في كفه كتف[1]» .
فقلب القاف همزة يجب فيه ان يسبقه حتماً قلبا كافاً .

١٤ — وورد في ص ١٢٢ قول كاتب فاضل «وفي الديوان من التشبيه ما لم يعرف مثله لأبي العلاء أو لم يؤلف في عهده كقوله :

ذوائبه مسك ثناياه لؤلؤ وخدّاه تبر والعذار زمرُّدُ

قلتُ أمّا أن ذلك لم يعرف مثله لأبي العلاء فصحيح واما أنه لم يؤلف في عهده فغير صحيح ، قال أبو محمد الحسن بن علي المعروف بابن وكيع التنيسيّ الشاعر المتوفى سنة ٣٩٣ قبل وفاة المعري باثنتين وأربعين سنة :

جوهريّ الأوصاف يقصرعنه كل فهم وكل ذهن دقيق
شارب من زمرّد وثنايا لؤلؤ فوقها فم من عقيق

وذكر ابو اسحق الحصريّ أبياتاً لبعض مشايخ القيروان ورواها عنه ، قال شمس الدين ابن خلكان : غالب ظني أنه [أبو] الحسن علي بن عبد الغني الحصريّ والأبيات . . . رأيتها في بعض المجاميع منسوبة الى ابن الحجاج الشاعر المشهور وهي :

ومعذّرين كأنّ نبت خدودهم أقلامُ مسك تستمدّ خلوقا
قرنوا البنفسج بالشقيق ونضروا تحت الزبرجد لؤلؤاً وعقيقا
فهم الذين اذا الخليّ رآهم وجد الهوى بهم اليه طريقا[2]

فهذه التشبيهات كانت مألوفة في زمان المعرّي ويضعف دليل الكاتب الفاضل من هذا الوجه .

١٥ — وورد في ص ١٣٠ « ذيل النفحة ونيل المنحة لمحمد بن السمان اوله : ربّ أوزعني ان اشكر نعمتك » قلت : وجدت في آخر النسخة التي في خزانتي ما هذا نصه «تمّ بحمد الله تعالى ذيل النفحة ونيل المنحة لمولانا المرحوم المغفور له السيد محمد أمين افندي المحبي ، جمع الأديب البارع الشيخ محمد المعروف بابن السمان

(١) ياقوت في معجم الأدباء «ج ٦ ص ٣٨٦» . . (٢) الوفيات «ج ٢ ص ٥١٢» من طبعة العجم

عُفي عنها[1] » وفي ص ١٣٤ من نسختي أيضاً مانصه « ولجامعه الفقير محمد بن السمان عفا عنه الرحيم الرحمن ... » فالتأليف للمحبّي مؤلف خلاصة الأثر في اعيان القرن الحادي عشر ، والجمع لابن السمان المذكور .

١٦ — وورد في ص ١٤٣ « فوجدناها لا تتفق ونسبة هذه المذكرات » . والصواب « لا تتفق هي ونسبة » لأنَّ الاسم الظاهر اذا عطف مرفوعاً على الضمير المستتر او المتصل ، وجب[2] تحقيق الضمير وتوكيده بلفظه او الفصل بين الفعل والظاهر بفاصل لفظي ، وشذّ من هذه القاعدة ما ينشده النحويون من الأبيات الغريبة منهـا :

زعم الأخطل من سفاهة رأيه ما لم يكن وأبٌ له لينالا

وقولـــ آخر :

قلتُ إذ أقبلتْ وهند تهادى كنعاج الفلا تعسفن رملا

ولا يجوز ان يجعل « نسبة » مفعولاً معه لأن الفعل « تتفق » مشترك لا يستغني بمرفوع واحد .

١٧ — وجاء في ص ١٨٢ « تقويم الأبدان لابن جزلة كتب سنة ٢٩٧ هـ » . قلتُ : لعل في الرقم التاريخي غلطاً مطبعياً فانّ ابا علي يحيى بن عيسى بن جزلة الحكيم الطبيب المستبصر في آخر عمره توفي في أواخر شعبان من سنة ٤٩٣هـ[3] ، فلعلّ تاريخ كتابته سنة ٤٩٧ سبع وتسعين وأربعمائة ، او ما بعدها ، وجاء في الصفحة نفسها « منهاج البيان فيما يستعمله الانسان ليحيى بن عيسى الكاتب ٤٩٣ هـ في الطب» . وهو ابن جزلة نفسه وتاريخ وفاته صحيح .

---

(١) تراجع مجلة المجمع « مج ١٨ ص ٢٧٢ (٢) يجوز على مذهب الكوفيين وليس بشيء لأنه ورد في الشعر نسب ولا عبرة به اذا خالف النثر ولغة القرآن . (٣) شمس الدين ابن خلكان في الوفيات « ج ٢ ص ٢١٠ » من طبعة العجم . وأبو الفرج ابن الجوزي في « المنتظم ج ٩ ص ١١٩ » ووقموه في مختصر الدول لابن العبري «ص ٣٣٩ » طبعة اليسوعيين وتاريخ الحكماء للقفطي « ص ٢٤٠ » بجعل « التسعين » سبعين أي بجعل وفاته سنة ٤٧٣ فليصلح .

١٨ – وجاء في حاشية ص ٢٠٢ ان خلافة الامام المقتفي لأمر الله ابي عبد الله محمد المقتفي لأمر الله العباسي ابتدأت من اليوم الثاني من ذي القعدة سنة ٥٣١ هـ . وفي ص ٢٠٩ من المقالة انّ « اول خلافة المقتفي بالله في سنة ثلاثين وخمسمائة » ، والصحيح انّ بيعته كانت في يوم الأربعاء ثامن عشر ذي القعدة من سنة (٥٣٠) هـ على ما ذكر ابن الجوزي وهو أعرف بها من غيره[1]

١٩ — وفي ص ٢٠٣ س ١ « ولا تعويل لدى معرفة عليه » والصواب « لذي معرفة » بالذال المعجمة لا الدال المهملة ، ومعناه انّ ذا المعرفة لا يعوّل عليه أبداً .

٢٠ — وجاء في ص ٩٩ ذكر لأبي عبد الله محمد بن علي العظيمي المؤرخ الحلبيّ ، وتاريخ ولادته دون وفاته ، قلت : جاء في المجلد السادس من وفيات الأعيان لابن خلكان « ص ٣٢٠ » من طبعة الدكتور فريد الرفاعي سنة ١٩٣٦ م = ١٣٥٥ هـ ما هذا نصه « ذكر ابن العظيمي الحلبيّ في تاريخه ان الأمين ... » وفي الحاشية ما هذه صورته « هو محمد بن علي بن محمد ابو عبد الله التنوخي الحلبي ، ولد بحلب وكان إماماً شاعراً فصيحاً بليغاً ومن شعره : ياقي العدى بجنان ليس يرعبه ... وُلد ابن العظيمي سنة ٤٨٣ وتوفي حوالي سنة ٥٦٠ ، احمد يوسف نجاتي » وقال هذا الفاضل المعلق في المجلد الثاني ص ١٠٧ ما نصه « هو ابو عبد الله محمد بن علي بن محمد التنوخي الحلبي كان إماماً مؤرخاً وشاعراً بليغاً وأديباً داعياً توفي سنة ٤٨٤ » بجعله سنة الولادة تاريخ الوفاة التقريبي الذي ادعاه ، وله فضل السبق على كل حال مع ما أتاه من الاخلال .

٢١ — وورد في ص ٢١٥ سؤال كاتب فاضل عن كتاب « الطرديات » لكشاجم أقائم هو بنفسه ام داخل في حيز كتاب « المصايد والمطارد » ؟ قلت : يستدل مما اورده ابن خلكان في ترجمة ابن شرشير الأنباري انهما كتاب واحد قال « ولابن شرشير أشعار كثيرة في جوارح الصيد وآلاته والصيود وما يتعلق بها كأنه

(١) المنتظم « ج ١٠ ص ٦١ »

كان صاحب صيد وقد استشهد كشاجم بشعره في كتاب المصايد والمطارد في مواضع منها قصائد ومنها طرديّات على أسلوب ابي نواس ومنها مقاطيع وقد أجاد في الكلّ فمن ذلك قوله طردته في وصف باز : لما تفرّى الليل عن أثباجه[1] ...» فدخول الطرديات في المصايد والمطارد واضح في هذا النقل .

٢٢ — وورد في ص ٢٠٨ س ٦ « وهجموا ربعتها » والصواب « ربضها » بالضاد المعجمة ، وربض البلدة او المدينة ما حولها من الأحوية والبساتين ، هذا هو الأصل وورد في تاريخ الخطيب البغدادي ما يدل على انّ أرباض مدينة السلام كانت في حيز سورها ومن محلاتها ، وفي المراصد « قيل الربض اساس المدينة ، بضم الراء وبالتحريك ما حولها وقال بعضهم هما لغتان »

٢٣ — وجاء في ص ٢١٦ « ونشر عن بعضها وصفاً مسهباً » وفي الجملة غلطان اولها استعمال الكاتب الفاضل « عن » مكان اللام . فانه يقال « هذا وصف له » لا وصف عنه والثاني استعماله « مسهباً » من دون صلته « فيه » فانه يقال « أسهب فيه »

٢٤ — وورد في ص ٢١٩ « وأبي طمحان والقنبي » . والصواب « وأبي الطمحان القيني » وهو حنظلة بن الشرقي ، وفيها أيضاً « وذي الرمة محمد » والصواب « وذي الرمة غيلان بن عقبة » وفيها « عبد الصمد بن المعزّل » والصواب « المعذّل »

٢٥ — وفي ص ٢٢١ « ولم يخصّص الكتاب للحيوان وحده » . والتصحيح « بالحيوان » يقال « خصّ الشيء بكذا وخصصته به » أما « خصّ » المتعدي في الظاهر فيحتاج الى مخصوص به مثل « اختصه » يقال « خصه بجائزة واختص فلاناً بجائزة »

٢٦ — وفيها أيضاً « انّ من اسباب ... هو خوفه » وهذا إضمار للظاهر قبل ذكره غير جائز أبداً ، فهو مخالف للفصاحة ، فالصواب « ان من اسباب ... خوفه »

٢٧ — وفي ص ٢٢٢ « في القرون الغابرة » . أراد بالغابرة « السالفة والماضية »

(١) الوفيات « ج ١ ص ٢٨٥ » من طبعة العجم

وهو ضد ما استعملته فيه فصحاء الأمة وعلماء الملة ، فالغابرة للباقية من حاضرة ومستقبلة ، وأما دعوى أنها من الأضداد فلا يعاج عليها ولا يلتفت اليها لأن منشأ ذلك تصحيف حدث في العين المهملة ، فعدّوها غيناً معجمة ، فالسالفة هي « العابرة » بالعين المهملة والباقية بالغين المعجمة أي « الغابرة »

٢٨ وفي ص ٢٤٢ « قلنا فليسمح لنا حضرته أن نخالفه في رأيه هذا » وهذا تعبير كسير لأن المخالف لا يطلب السماح ، ولا سماح في المخالفة ، فلا يقول أحد « ايذن لي في أن أعصيك » و« طبْ نفساً عما أتركُهُ » وليس هذا من باب التهكيس كقوله تعالى « فبشرهم بعذاب اليم »

٢٩ — وورد في ص ٢٥١ ما نصه « أما وجود النون بين القاف والطاء عند الغربيين[1] فمأخوذة[2] من لغة للعرب الذين يقحمون النون في بعض الأحيان فيقولون انجاص في إجاص و ٠٠٠ » قلت : ليس هذا إقحاماً وانما هو إبدال وله قاعدة مطردة القياس في باب الابدال في العربية وهي أنّ العرب تستثقل الحرف الثاني المضعف في الكلمة ، فتبدل من أحد ضعفيه إما حرف علة. وأحرف العلة أخف الحروف ، واما نوناً وهي أخف الحروف بعد أحرف العلة ، واما راءً وهي تلي النون في السهولة ، فالنون في الانجاص والخرنوب والدرنوح والقنبرة والقنطيسة ، عوض من الضعف المبدل منه[3]

٣٠ — وفي ص ٢٥٣ « لأنه لا يبقى نصرانيّ ، الا حضره وتقرب منه » و في الحاشية « يمكن ان تكون (فيه) بمعنى تقرّب الى الله فيه » . قلتُ : هذا صحيح يحتاج الى زيادة فيقال « بمعنى تقرّب الى الله فيه بقربان » لئلا يفهم من التقرّب معناه الحقيقي أو المجازي بغير القربان الذي أريد ها هنا .

٣١ — وجاء في ص ٢٥٧ قول المأمون « لكم على حُرُمي أصحاب اخبار » بضم

(١) Contrée وما يماثلها في الانكليزية واللطينية واليونانية (٢) الصواب « فمأخوذ » لأنّ الوجود مذكر والاخبار عنه لا عن النون ، ولو قال « فأما النون فمأخوذ » لصح قوله ولعله من غلط الطبع . (٣) ويراجع كلامنا على [القوضي] في هذه المجلة مج ١٨ ص ٢٠٥ — ٢

الحاء والراء من «حُرَمي» والصواب «حُرَمي» بفتح الراء جمع حرمه ، أراد «نسائي» قال الفيومي في المصباح «والحرمة» ايضاً المرأة والجمع حُرَم مثل غرفة وغُرَف» وقال ابو سعيد اسحق بن خلف البهراني يرثي ابنة أخته :

قد كنت أخشى عليها ان تقدمني   الى الحمام فيبلى وجهها العدم
فالآن نمت فلا هم يؤرقني   يهدا الغيور اذا ما أودت الحُرَم [1]

٣٢ — وجاء في ص ٢٦٦ «وقال التنوخي حضرتُ ببغداد مجلس الملك عضد الدولة في يوم عيد الفطر سنة سبع وعشرين وثلاثمائة والشعراء ينشدون التهاني» . قلتُ : لعل الأصل «سبع وستين وثلاثمائة» لأن سنة ٣٢٧ لا توافق الحقيقة التاريخية ، وعضد الدولة لم يكن اميراً ببغداد قبل سنة ٣٦٧

٣٣ — وجاء في ص ٢٧٥ «ويسرنا ان نرى الأستاذ الفاضل حريص» . والصواب «حريصاً» ولعلَّ الأصل «نرى أن الأستاذ حريص» فسقطت «أنَّ» في الطبع ، لأن أمر الغلط هذا من البديهيات .

٣٤ — وجاء في ص ٤٠٢ ما نصه «فالعربية الأولى ... لم تعدّ فتش بحرف ما ثم عدّاها الزمان بعن وفي وعلى ولهذا الحرف الأخير من المعاني المذكورة في كتب اللغة والنحو ما يماشي الفعل فتش يمشي معه» قلتُ : ان المعنى هو الباعث على التضمين [2] والتقدير في كلِّ الأفعال ، ومبلغ الدلالة هو الموجب للايجاز أو التطويل ، فليست القضية سماعية بل هي قياسية ، لأن أصل العبارة «فتشت

---

(١) المبرد في الكامل [ج ٣ ص ٢٥٣] من طبعة الدلجوني الأزهري ، ولا تزال العامة في العراق يسمون المرأة حُرمة

(٢) ضمن [فتش] معنى [دوّر] و [دار] عليه وهو مولد أيضاً ، قال أبو زكريا يحيى بن سعيد بن الدهان [٥٦٩ ـ ٦١٦] :

نصرت الآن منحنياً كأني   أفتش في التراب على شبابي

ولذلك وجب ذكر التضلة المحذوفة إذا نقل هذا الفعل الى [فاعل] قال ثمامة بن أشرس النميري يصف الفراء [فجلست اليه ففاتشته عن اللغة فوجدته بحراً وفاتشته عن النحو فشاهدته نسيج وحده ومن الفقه فوجدته رجلاً فقيهاً [الوفيات ج ٢ ص ٢٣٠] من طبعة السجم .

الدار عن الشيء[1] فهي مفتوشة، وفتشتها عنه فهي مفتشة» فاذا دلت إحدى الفضلتين على المعنى المهم فمن البلاغة حذف الثانية، فكذلك قيل «فتشت عن الشيء» والفضلة الثانية مقدرة بحسب طبيعة اللغة، ومن أمثلة ذلك «دافعت عن البلاد وحافظت على المال، وحاميتُ عنه وعليه وذببتُ عن العشيرة» والأصل دافعتُ العدوَّ وحافظت غيري وحاميتُ الناهب وذببتُ الهاجم» وهذا يستوجب ان يكون «فتش عنه» غير فتشه وان كانت المغايرة ناقصةً لا تامة، واما اقسام المعنى في مثل «فتش» فهي «الفاتش» و «المفتوش» و «المفتوش عنه» واذا كان المفتوش ظرف مكان جاز ان يقال «فتش فيه» لأن الظرفية من ضروريات الكلام والأصل فيها الجر بالحرف، أما النصب فهو حادث من حوادث الاختصار والايجاز

٣٥ — وجاء في ص ٤٠٦ «بل النسخة التي اختصها بنفسه» . ومعنى ذلك أنه وهب لها نفسه وهو تعبير عجيب في غرابته، لأن العاقل لا يهب نفسه لنسخة من مخطوط يُباع ويشترى، فالصواب — ولعله مُراد الكاتب الفاضل — اختص نفسه بها»

٣٦ — وورد في ص ٤٠٨ من مقامات فخر الدين الجويني الحموئي «وزملكش وقواد» . وفي الحاشية ما نصه «كذا في الأصل وصوابه زملق ... وترى معناها في المعاجم والكلمة بذيئة» قلت: ومن بحث عن معناها لم يجدها بذيئة وانما هي تعني حالة طبيعية في البدن، أما كون أصل زملكش «زملقا» فبعيد عن الصواب، والظاهر ان أصل زملكش هو «مزكلش» اسم فاعل من زكلش يزكلش أي تبذّل وغنى في الطرقات أو فعل غير ذلك من الأفعال الدنيئة بحسب آراء المسلمين، ونؤيد دعوانا بأن أبا منصور بن ابي بكر بن شجاع المعروف بابن نقطة الحنبلي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ وصفه جماعة من المؤرخين بالمزكلش، قال ابو شامة بعد ذكر اخيه عبد الغني بن أبي بكر الزاهد: واخوه ابو منصور بن نقطة المزكلش، كان ينشد كان وكان في الأسواق ويسحّر الناس في رمضان، قيل له: ما تستحي،

(١) أصول التاريخ والأدب [مج ٦ ص ٣٢٩] من مجاميعنا الخطية .

أخوك زاهد العراق وانت تزكلش في الأسواق فقال مواليا ... » هذا ماورد في ذيل الروضتين لأبي شامة ومثله تقريباً في تاريخ الاسلام للذهبي ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي وله ترجمة مختصرة في الجامع المختصر لابن الساعي الخازن .

٣٧ — وورد في الصفحة عينها « وذهبيّ ومدّاد » فعلق عليه ناشره الفاضل « الذهبي المشتغل بالذهب » وهو تعريف حسير ، وفي انساب السمعاني انّ الذهبي هو الذي يفتن الذهب ويخلصه من الغش ، والذي يعمل خيوطاً من ذهب[1] وبهذا التعريف خرج الصائغ والصيرفي والمستثير الذهب من معدنه واختص به صناع في دار الضرب والمعدّون لغزل السقلاطون وغيره .

٣٨ — وجاء في ص ٤٠٩ « ومتوز ودهّان وندّاف وقطّان » وجاء في الحاشية تعليق عليه نصه كذا وردت في الأصل ولم نعرف الكلمة الأصلية التي صحفت عنها ولعلها « مصوّر » لأن الكلمة التي تليها هي دهان، فيتسق المصور مع الدهان» اه. قلت : بل الظاهر انها « المزوّق » اسم فاعل التزويق ، وهو مشهور معروف المعنى كما في أنساب السمعاني وأساس البلاغة .

٣٩ — وورد في ص ٤٢٣ « كتاب الدر الثمين في سيرة نور الدين : نور الدين زنكي » قلت : والصواب « نور الدين ابن زنكي » لأنه محمود بن زنكي الملقب بنور الدين ولعلّ هذا من غلط الطباعة .

٤٠ — ونشر في ص ٤١٧ وما يليها مقال جامع في كتب الحسبة والنبذ المؤلفة قديماً فيها والمؤلفة حديثاً ، قلت : يجد الباحث في كتاب « تلخيص مجمع الالقاب » لابن الفوطيّ شيئاً من أخبار المحتسبين ونعت الحسبة ومن ذلك قول مؤلفه في أحدهم « علاء الدين أبو عبد الله عبيد الله بن يحيى بن ابي القاسم المذاري المحتسب كان فقيهاً عارفاً بأمور الحسبة ومراعاة العوام في المتاجر والصناعات ومنعهم من الغش والتدليس في سائر المعاملات وامتحان المكاييل والاوزان وحياطتها من

(١) أصول التاريخ والأدب [مج ٦ ص ٢٢٩] من مجاميعنا الخطية

التطفيف والنقصان ومن فعل شيئاً من ذلك كان يناله بغليظ العقوبة وله في ذلك السيرة العادلة [1] . وجاء في هذه المقالة الجامعة (ص ٤٣٦) ذكر لكتاب كتبه رشيد الدين الوطواط في تقليد الحسبة ، وأحال فيه كاتبه على رسائل الوطواط . قلت : ان الكتاب نفسه قد أورده ياقوت الحموي في ترجمة رشيد الدين المذكور قال « ومن انشائه أيضاً تقليد حسبة صدر عن ديوان خوارزم وهو : إنّ أولى الأمور بأن تصرف أعنة العناية الى ترتيب نظامه [1] . . . » وبينهما فروق في الزيادة والنقصان وفي صور الألفاظ ومن الغريب ان الأستاذ مرغليوث المستشرق المشهور لم يكلف نفسه عناء المقابلة بين النصين مع احالته في الحاشية على رسائل الوطواط ، فمن ذلك ما ورد في معجم الأدباء [1] « وتقصر الهمم » وفي الأصل « تقصر غايات الهمم » وفي معجم الأدباء « ويتوقف عليه صلاح » وفي الأصل « يتعطف عليه »

٤١ — وفي ص ٤٢٩ كلمة موسومة بأسماء منتخبة لمسميات حديثة جاء فيها ان الكنف وزان حبر هو الزنفليجة يكون فيها أداة الراعي ومتاعه . قال كاتبها الفاضل « فالكنف على هذا صالح لأن يطلق على محفظة الطبيب (جزدانه) الذي يضع فيه مقصه وشفرته وأداته وما يحتاج اليه احتياجاً قريباً » . قلت : الكنف أداة من أدوات الراعي ، ومثله « الصُفن » بالضم ، ففي مختار الصحاح أنه « خريطة تكون للراعي فيها طعامه وزناده وما يحتاج اليه » . وجاء في الصحاح أن هذا قول ابي عمرو لأن الصفن عند غيره مثل الركوة يتوضأ به أو وعاء من أدم مثل السفرة يستقى به . وفي مثل هذه المصطلحات يجب ان يُرجع الى التاريخ قبل غيره فيسأل أولو العلم به هل كان أطباء الزمن القديم يتخذون جزدانات ؟ وما اسم الواحد منها ؟ قلت إن المؤرخين كانوا يتساهلون في مثل ذلك وقد جاء في رسالة للامام ابي عبد الله محمد بن يحيى بن فضلان الشافعي مدرس النظامية والمستنصرية ودار الذهب والثقتية ببغداد ، بعث بها إلى الخليفة الامام الناصر لدين الله أو الخليفة

(١) معجم الأدباء [ج ٧ ص ٩٣]

الامام المستنصر بالله يشكو فيها اليه اهل الذمة ويقول فيهـا « ومنهم الأطباء أصحاب المكاسب الجزيلة ... يخرج الصبيّ منهم ولم يقرأ غير عشر مسائل حنين وخمس قوانم من تذكرة الكحالين وقد تقمص ولبس العمامة الكبيرة وجلس في مقاعد الأسواق والشوارع على دكة حتى يُعرف وبين يديه المكمة والملحدان يؤذي هذا في بدنه ويجرّب على ذا في عينه فيفتك من أول النهار الى آخره ويمضي آخر النهار الى منزله ومكمته مملوءة رِقراضة ...[1] » فالظاهر ان كيس الطبيب هو « المكمة » ، مأخوذة من مكمة الدابة ، ومن الألفاظ المعربة « الحرمدان » ومعناها الشنطة العصرية وقد استعملت في النجوم الزاهرة قال « وعندما يعزلونه من الوزارة يُصبح يأخذ غلامه الحرمدان خلفه ويروح يقعد في ديوان الانشاء[2] » وجاء في السلوك « واتفق أنّ الأمير طرنطاي النائب وقع على جماعة من أصحاب منكوتمر فأمرهم وفيهم حامل حُرمَدانه فوجد في الحرمدان كتباً من الأمراء[3] »

٤٢ — وجاء في ص ٤٣٠ « فالدنية وان كانت مولدة عراقية مستعملة منذ عصر الحريري » قلت أورد كاتبها الفاضل بيتاً لابن النكك استعمل فيه « الدنية » وهذا الشاعر كان معاصراً للمتنبي وقد هجاه ، فالدنية كانت مستعملة إذن منذ أوائل القرن الرابع والحريري أدرك اوائل القرن السادس .

٤٣ — وورد في ص ٤٣٠ « السوائل الملتهبة التي يقذف بها ايام الحرب » . قلت : الصواب « المائعات والموائع » لأن السيلان ليس بشرط أصلي في التسمية ولأن اكثر تلك الأشياء لا تسيل ، قال الشريف الرضيّ في قول الرسول ﷺ : ويل لأقماع القول . ما صورته « ... فشبه — ع — آذانهم بالأقماع التي يفرغ فيها ضروب القول إفراغ المائعات[4] ولم يقل السائلات ولا السوائل مع ان الأقماع لا يُفرغ فيها إلا ما يسيل ويجري ، وذكر الامام الحافظ ابن عبد الهادي

(١) الحوادث الجامعة [ص٦٦ ـ ٧] من طبعتنا له وهي طبعة رديئة داخلها الخلل من جهة المتفق على طبعها وهو أحد الكتبيين التجاريين ببغداد ، فانه تصرف في نشره وطبعه طبع الجرائد العصرية

(٢) النجوم ج ٨ ص ٥٠ (٣) مج ١ ص ٦٩٧ وقد فسره طابعو النجوم بالاستعانة بمعجم اسقنجاس وشرحه طابع النجوم بما ورد في مستدرك دوزي . (٤) المجازات النبوية ص ٩٣ طبعة مصر

المقدسي" تواليف الامام العلامة الفقيه ابن تيمية ، وقال « وقواعد في المائعات والحياة وأحكامها[1] » فهي في الفقه معروفة بالمائعات أيضاً ، والكتب المدرسية لا يستعمل فيها إلا « السوائل » وهو غلط مبين .

٤٤ — وورد في ص ٤٥٨ أن لباس أهل الأندلس في أيام الحزن هو البياض وفي ذلك يقول الحلواني : « لئن كان البياض لباس حزن ... » ، قلت : ذكر العلامة شمس الدين ابن خلكان البيتين المذكورين في الأصل - اعني ص ٤٥٨ — في ترجمة أبي الحسن علي بن عبد الغني الحصري القيرواني قال « وقال في لباس أهل الأندلس البياض عند الحزن على الميت ويقال انهم استحسنوا ذلك من عهد الأمويين قصداً لمخالفة بني العباس في السواد : إذا كان البياض لباس حزن ... » ، ونود هاهنا ان نذكر أنّ العباسيين جعلوا السواد لباسهم المعتاد واتخذوا البياض لأيام الحزن فقط — كما كان يفعل أهلُ الأندلس ، قال الشيخ المؤرخ المقري أبو عبد الله بن الدبيثي في ترجمة أبي داود سليمان بن ارسلان « ولما افضت الخلافة الى سيدنا ومولانا المفترض الطاعة على كافة الأنام ابي العباس احمد الناصر لدين الله أمير المؤمنين — خلد الله ملكه — شرفه بتوليته النيابة بديوان المجلس ... وخلع عليه بالتاج الشريف جبة ابريسم بيضاء مصمت وبقيار قصب ابيض لأجل العزاء بالامام المستضيء بأمر الله — رض — ...[2] » ، وقال الشيخ الأديب الكبير صلاح الدين الصفدي في ترجمة سلجوقي خاتون بنت قليج ارسلان بن مسعود السلجوقية والأمور التي حدثت لوفاتها « ورُفعت العذر والطرحات ولبسوا الأبيض ورُفعت البسملة ووضعت على رؤس الخدام » ، ذكر ذلك في الوافي بالوفيات ، وهذا يوضح ما ورد في الحوادث الجامعة « ص ١٧٣ » من أنّ الزعماء ركبوا بالأقبية البيض وأرباب الدولة كل واحد منهم بقميص أبيض وبقيار في ليلة الجمعة الحادي عشر من شعبان : ليلة نقل جثة الامام المستنصر بالله العباسي من الدار المثمنة بدار الخلافة من الجانب الشرقي ببغداد الى مقبرة الخلفاء العباسيين في محلة

(١) العقود الدرية في مناقب شيخ الاسلام ابن تيمية ص ٤٥ .

(٢) أصول التاريخ والأدب مج ٢٠ ص ١٨٩ ، من مجموعاتنا المخطوطة .

الرُصافة قرب محلة الامام أبي حنيفة النعمان بن ثابت المعروفة اليوم بالأعظمية وقديماً بمقبرة الخيزران زوج الخليفة المهدي بن المنصور .

٤٥ — وجاء في ص ٤٥٩ « وكلا الناقل والمنقول عنه يُبدع الابداع كله » قلت : والفصيح « والناقل والمنقول كلاهما » و « وكلا الرجلين الناقل والمنقول عنه ... » إذ لم يكن من الفصيح اضافة « كلا » إلى المفرد وكذلك الأمر في « كلتا »

٤٦ — وجاء في ص ٤٧٠ ان بنفشا الرومية جارية الامام المستضيء بأمر الله العباسي توفيت يوم الجمعة في ١٩ ربيع الأول سنة ٣٩٩ هـ . قلت : وفي التاريخ خطأ عظيم صوابه سنة ٥٩٨ هـ قال الامام ابو المظفر سبط ابن الجوزي في وفيات سنة ٥٩٨ هـ « وفيها توفيت بنفشا بنت عبد الله جارية المستضيء كانت كريمة صالحة . ولما توفيت تولت أمرها والدة الخليفة [الناصر لدين الله] وجهزتها احسن جهاز ودفنتها في تربتها المجاورة لمعروف الكرخي وذلك في ربيع الأول[1] » . وكنت ذكرت أن التربة باقية الى اليوم بقيتها المخروطة وتعرف بقبة الست زبيدة ، في الجانب الغربي من بغداد ، وقال ابن الساعي في وفيات سنة ٥٩٨ هـ : « الجهة[2] بنفشا بنت عبد الله التركية الجنس ، عتاقة الامام المستضيء بأمر الله — رض — كان لها بر ومعروف وصدقة جارية ووقفت مدرسة بباب الأزج على دجلة على فقهاء الحنابلة ووقفت عليها قرية وأمرت بعمل جسر على دجلة ، ولها بطريق مكة آثار جميلة توفيت يوم الجمعة تاسع عشري شهر ربيع الأول من سنة ثمان وتسعين المذكورة وصُلي عليها بالجانب الغربي عند التربة المجاورة لقبر معروف الكرخي — رحمة الله عليه — ودفنت بها[3] » .

وذكر وفاتها في التاريخ المذكور شمس الدين الذهبي في تاريخ الاسلام وابوشامة في ذيل الروضتين وابن الأثير في الكامل ، الا أن لفظة « المستضيء » في الطبعة المصرية تصحفت الى « المستنصر » فصارت « جارية المستنصر » وذلك خطأ واضح . ولها ولمدرستها التي درّس فيها ابن الجوزي أخبار جميلة لا محلّ لها ها هنا .

(١) مرآة الزمان مختصر المجلد الثامن ص ٥٣١ — ٣ طبعة شيكاغو . (٢) الجهة هي حرمة الخلفاء والسلاطين والملوك الكبار . (٣) الجامع المختصر ج ٩ ص ٨٨ — ٩ من طبعتنا وهي الأولى

٤٧ – وجاء في ص ٣٢١ « كتاب » روضة البلاغة لأبي الحسن عبد الملك بن محمد ، هو مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقمه ١٤٨ أدب » قلت : الذي أعلمه من اسماء الرجال « أبو الحسن محمد بن عبد الملك بن ابراهيم الهمذاني أحد المؤلفين المشاهير والمؤرخين البارعين ، وله عدة كتب ذكر منها الحاجي خليفة في كشف الظنون ، وتوفي سنة ٥٢١ كما في تاريخ المنتظم لأبي الفرج ابن الجوزي « ج ١٠ ص ٨ » وكامل ابن الأثير في وفيات تلك السنة ، والظاهر لنا أنه مؤلف روضة البلاغة إلا ان اسمه تصحف ، وصعب بذلك تاريخ وفاته

٤٨ – وجاء في ص ٣٢٦ « سمع المأمون يقول كان لي خراساني يوماً عجيباً « كذا » وأولاني الله فيه بلسانه [1] الجميل وذلك ... » قلت : الظاهر أنّ الأصل هو « كان لي بخراسان يوم عجيب واولاني الله فيه بمسائه الجميل » ، أراد ان النهار كان مشؤماً عليه فأولاه الله تعالى الجميل في المساء

٤٩ – وفي ص ٣٢٨ قول هازل متنادر « لا أعرف لك عملاً أولى بك من بريدات البحر وصدقات الوحش » . قلت : الصحيح « بَزندات » جمع بزند على وزن سرَخس وهو الجسر – على ما يظهر لي من الأخبار – ، فمما نقله هلال في تاريخه للوزراء قول أحدهم « وقدّر للنفقة على بزند من بزندات نهر الرفيل ثلاثون ديناراً فلم يُطلقها وقال : نفقة هذا البزند واجبة على صاحب الضيعة [2] » وقد كرّر هذا اللفظ غير مرّة ، وقد جاء في أخبار هلال ما هذا نصه « يا معاشر الناس اجتزتُ الساعة على جسر قارون وهو بزندٌ من البزندات ، وتسمى البزندات بمصر جسوراً [3] » وجاء في أحد الكتب « قال أبو الوفاء البوزجاني : المساحة تنقسم الى ثلاثة أقسام : بسيط وأجسام وأبعاد ... والمجسم مثل الأنهار والبرك والآبار والأحواض والبزندات ... [4] »

يتبع : (بغداد) الدكتور مصطفى جواد

(١) وهذه العبارة تستوجب [كذا] كذلك (٢) تحفة الامراء في تاريخ الوزراء ص ٢٥٧
(٣) المرجع المذكور ص ٣٢٠ (٤) الحاوي في أعمال المتعرفين ، لمؤلف مجهول ، رقمه ٢٤٦٢ من عربيات دار الكتب الوطنية بباريس [الورقة ٢٣٩]

فهرس الجزء التاسع والعاشر من المجلد الحادي والعشرين

مجلة المجمع العلمي العربي

تشرين الثاني وكانون الأول سنة ١٩٤٦　ذو الحجة ١٣٦٥ والمحرم ١٣٦٦

المؤلفون في الشام

كان العصر الماضي من أشأم العصور على العلم العربي ضعفت فيه اعمال العقل وتراجعت حركة التفكير وفسدت اساليب الكلام المنثور منه والمنظوم ، طمست معالم القديم او كادت والناس لا يعرفون كيف يأخذون انفسهم بالنظام الحديث . ولم يبق من ذاك الماضي المجيد سوى بقايا علوم دينية ولسانية حفظت بقوة التسلسل من ذاك العهد الزاهر الذي امتد من القرن الأول الى القرن السادس من الهجرة . وكان عظيماً في كل مظاهره في الأصقاع العربية . وابتدأ عصر الانحطاط العلمي بالمئة التاسعة وانتهى بالمئة الثالثة عشرة ولكنه انحطاط اشبه بنار تحت الرماد تخبو ثم تتقد . ولما انبعثت النهضة الحديثة كانت الشام كسائر الأقطار العربية تغط في جهلها غطيطاً رثى لها منه حتى العدو الشامت . ويكفي في اثبات جهلها ان الطباعة انتشرت في القرن الخامس عشر للميلاد في بلاد الغرب وطبع علماء المشرقيات هناك بعض كتبنا العلمية والأدبية باللغة العربية ونحن لم نعرف شيئاً من الطباعة الا بعد أكثر من مئتي سنة وما علمنا بما طبعه الغربيون من تراثنا العظيم الا بعد أحقاب طويلة .

الجهل يخرب البيوت العامرة . وعجيب من سلطان هذا الجهل الذي خيم على القلوب والأفكار عصاراً واصيبت به جميع أوضاعنا كيف نجا من براثنه الغليظة بعض أفراد احتفظت نفوسهم بشيء من بريق الحقائق وتجلى استعدادهم للاخذ بطرق الرقي واسباب التجدد في عهد بلغ من خمول العقول فيه وفتور الهمم ان كان بعض المنورين يحفظون القرآن كالببغاء ولا يقرأون تفسيره ، ويتعلمون الفقه ولا يبحثون عن اصوله وفروعه ، ويتبركون برواية الحديث ويخلطون سليمه بسقيمه ويدرسون العروض ولا ينظمون الشعر ويقرأون ما يطلقون عليه علم المعاني والبيان والبديع ولا يحسنون كتب خطبة مؤثرة ولا صفحة مفهومة ، وبيانهم سجع مزعج ، وشعرهم سخيف ، ويستظهرون قواعد النحو ولا يتلون جملة صحيحة ويتدارسون دساتير التصريف ولا يصححون الرسم ولا الاملاء . ويعظ الوعاظ ويخطب الخطباء ولا يحسنون قراءة آية على وجه صحيح ولا يجودون القرآن ولا يحسنون ترتيله .

ولقد ادركت قضاة لا يحسنون كتابة سطر صحيح ويعجزون عن أخذ حكم من الاحكام الموجودة في الكتب ، ورأيت الأمية تكسوهم من فرقهم الى قدمهم ، وليس لهم من لوازم مناصبهم الا الشعار والجبة الفضفاضة . وليس هناك اطباء ولا صيادلة ولا مهندسون ولا محامون ولا فلاسفة ولا رياضيون ولا فلكيون دع العلوم الأخرى التي امتاز بها الغرب وكانت سبب تفوقه ، وظلت بلادنا منها صفراً بضعة عصور فأتت على اكثر قواها الحيوية ، وهي راضية عن عمايتها لا تتلمس سبيلاً الى الخروج منها .

وبينا كان المسلمون يتهافتون على تعلم اللغة التركية لتولي اعمال الدولة ويكادون ينسون لغتهم وقوميتهم راضين مختارين كان المرسلون الاميركان واللاتين ينشئون في بيروت وبعض قرى لبنان للدعوة الى البرتستانتية والكثلكة مدارس تعلم اللغة العربية في جملة ما تعلم وذلك منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر على حين كان هذا اللسان في حالة النزع في أمهات البلاد الداخلية ،

وبفضل النهضة التي أحدثها هؤلاء الغرباء الأعاجم في بلادنا وبعوامل أخرى جاء بها الزمن نشأ بين ظهرانينا أفراد تشبعت نفوسهم بحب العلم فعدوا مفخرة للآداب امثال عبد الغني الميداني محمود حمزة احمد فارس يوسف الاسير ابراهيم الأحدب عبد القادر الحسني امين الجندي ناصيف اليازجي ابراهيم اليازجي بطرس البستاني ابراهيم الحوراني عبد الله البستاني سعيد الشرتوني اديب اسحق رزق الله حسون ميخائيل مشاقة يوسف داود يوسف الدبس محمد الطنطاوي ٠

وكثر عدد المؤلفين في بيروت حاضرة لبنان قبل غيرها من الحواضر لأن مدارس الأجانب والمدارس الطائفية الوطنية عنيت بتعليم العربية ، وظهرت الصحف في بيروت وأنشئت المطابع فيها قبل غيرها من المدن وأخذ القوم في الساحل يتلقفون اللغتين الفرنسية والانكليزية ويحتكون بالأجانب ويتقبلون مدنيتهم بصدور رحبة وبدأ الغرام يزيد بقول الشعر وكتابة المقالات والقاء الخطب ٠

وكان من أول الرجال الذين تنبهوا الى اهمال المسلمين لغتهم وحاولوا جبر هذا النقص بكل حيلة عالم عصره الشيخ طاهر الجزائري فانه سعى فأنشأ المدارس الابتدائية الحكومية في ولاية سورية العظيمة ثم عاون معاونة فعلية في انشاء المدرسة الثانوية في دمشق وأسس دار الكتب الظاهرية بدمشق ودار الكتب الخالدية في القدس ٠ وكان يؤلف كتب التدريس للمدارس الابتدائية وبعض الثانوية ولم ينشر كتبه الخاصة التي كان فيها هوى نفسه وآثر ان يضع الأسس للمدارس فيتعلم الناشئة ومنهم يكون العالمون والمؤلفون في المستقبل ٠

ولا أغلو اذا قلت ان معظم من تعلموا وكانوا على نباهة تؤهلهم للأخذ بتعاليم هذا العالم العامل هم الذين يتولون اليوم مناصب التدريس والادارة على اختلاف ضروبها وهم حركة البلاد في علمها وصناعتها وتجارتها وزراعتها ٠ ومن لم يأخذ عن الشيخ الجزائري مباشرة أخذ عنه بالواسطة ، ومن لم يقرأ كتبه ويحضر مجالسه انتفع بكتب تلامذته ومجالسهم ٠ وما بلد في الشام من بحرها الى

باديتها ومن عريشها الى فراتها تخلو من رجل تخرج به واقتبس من نور علمه واخذ عنه ما ساعدته قريحته وذكاؤه .

وللشيخ من الكتب المطبوعة (توجيه النظر الى أصول الأثر) و (التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن) وهذا هو المقدمة الصغرى من مقدمتي تفسيره ، وتفسيره مازال في المخطوطة المحفوظة في دار الكتب الظاهرية في اربعة مجلدات . ومنها (التقريب لأصول التعريب) و (شرح خطبة الكافي) وهو معجمه اللغوي ضاع أكثره و (شرح خطب ابن نباتة) و (رسائل في علم الخط) و (جدول الحروف العربية القديمة والحديثة والهندية واليونانية الخ) . وكان الشيخ يتقن الفارسية والتركية والقبائلية وبلم بالفرنسية والعبرية والسريانية والحبشية . ومن تآليفه (اتمام الانس في عروض الفرس) و (ارشاد الالبا الى تعليم الف با) وهو كتاب في علم التربية . و (بديع التلخيص وتلخيص البديع) و (تسهيل المجاز الى فن المعمى والألغاز) و (التمرين على البيان والتبيين) و (الجواهر الكلامية في العقائد الاسلامية) و (الحكم لمنثورة) و (دائرة في معرفة الاوقات والايام) و (عمدة المغرب وعدة المعرب) و (الفوائد الجسام في معرفة خواص الاجسام) وهو كتاب في الطبيعيات سماه بهذا الاسم لئلا يستريب منه المتزمتون المتعصبون . و (مدخل الطلاب الى علم الحساب) و (مد الراحة لأخذ المساحة) و (التجريد) وهو تدريب اللسان على تجويد البيان ، و (منية الاذكياء في قصص الأنبياء) و (ميزان الافكار شرح معيار الاشعار) و (مختصرات أمثال الميداني) و (مختصر شرح كتاب أمنية الالمعي) و (مختصر أدب الكاتب لابن قتيبة) . ومن اهم الكتب التي ضاعت أكثر اجزائها كنانيشه لما عاد من القاهرة الى دمشق بعد تغيبه في مصر ثلاث عشرة سنة وفي كنانيشه خلاصة ما قرأ من المخطوطات وملاحظاته عليها وله مجموعة في مجلد ضمنها ذكر ما يجب احياؤه بالنشر من المخطوطات العربية الموزعة في خزائن الشرق والغرب . ولا يبعد ان يكون للشيخ تاريخ دون فيه ما سمعه ورآه فانه كان له

في فن السياسة وعلوم الاجتماع ولا سيما ما كان له علاقة بالحضارة الغربية بلد طولي . ومما الفه وبقي مخطوطاً (الالمام بأصول سيرة النبي عليه السلام)و(مقاصد الشرع) . وقد نشر الشيخ كثيراً من كتب البلغاء أمثال كتاب (الحنين الى الاوطان) للجاحظ و (الادب الصغير) لابن المقفع و (روضة العقلاء) لابن حيان البستي وكتاب (الادب والمروءة) لصالح بن جناح . ومنها (ارشاد القاصد) لابن ساعد الانصاري (وتفضيل النشأتين) للراغب الاصفهاني و (الفوز الاصغر) لابن مسكويه . هذا الى ما نشره من هذا القبيل وكله مما علق عليه وشرحه فضلاً عن الكتب القديمة التي نشرت بعنايته وارشاده في مصر والشام وهي كثيرة . وللشيخ فوق هذا مقالات علمية كثيرة نشرها في المجلات المصرية والشامية وأكثرها بدون توقيعه .

أليس هذا الشيخ مثلاً أعلى للمؤلفين المحدثين ، ألا يحق لدمشق ان تفاخر بأن كانت مثابة علمه ومنبعث نبوغه في هذه المئة الرابعة عشرة ، كما كانت في المئة السالفة مباءة نبوغ أعظم فقهاء عصره السيد محمد عابدين صاحب الحاشية المشهورة والفتاوى المحررة الذي نظم علم الفقه بنظام دقيق قرّب مناله على الدارسين كما نظم طاهر الجزائري في هذا الجيل حركة النهضة العلمية وما ذهب من هذا العالم حتى رأى تلاميذه يؤلفون ويشتهرون في العالم العربي والغربي بتآليفهم .

أما في الساحل فقد حاول بعض رجال النهضة فيه ان يلبسوا العلم العربي ثوباً جديداً تخيلوا فيه النفع لفئة مخصوصة اكثر من الطرق القديمة فأنشأوا يحذفون من الكتب الاسلامية ما لا يروقهم ويصوغون الأدب في قالب وقع استحسانهم عليه حتى انهم وضعوا في أوقات مختلفة سبعة معاجم عربية منها (محيط المحيط) (قطر المحيط) لبطرس البستاني و (أقرب الموارد) لسعيد الشرتوني و (البستان وفاكهة البستان) لعبد الله البستاني ومعجم الطالب والمنجد والمعتمد ومنجد الطلاب نقلوها من أمهات المعجمات المشهورة وعرّوها عما استبشعوه من الفاظ زعموا انها نابية عن الادب العصري الحديث .

ومن أهم ما نشره بطرس البستاني وبعض النابهين من أسرته (سليم ونجيب وسليمان) دائرة المعارف العربية وهو عمل عظيم كان له في الاقدام على تأليفه فضل السبق فهو مؤلف اول معلمة عربية وساعد على نشرها الخديوي اسماعيل جد جلالة فاروق الاول ملك مصر ولم يصدر منها سوى احد عشر جزءاً ضخمة . ومهما يكن فهذا الكتاب العظيم عنوان الجد السوري وراموز الولوع بالعلم والغيرة على نشره ولم تتقدم مصر على مثل هذا العمل الى اليوم مع وفرة أسباب التأليف فيها اكثر من سورية قبل ستين سنة . ولا غرو فان لبني البستاني أيادي بيضاً على الآداب في هذه الديار خدموها بأقصى ما وصلت اليه طاقتهم وساعدتهم بيئتهم . وممن اشتهر منهم سليمان مترجم الياذة هوميروس شعراً وضع لها مقدمة ممتعة وكذلك كان شأن نسيبه عبد الله فانه كان اماماً في اللغة الا ان تآليفه ليست على مقدار علمه وممن أخذ عنه تلميذه شكيب ارسلان فبرز في الكتابة والشعر وتآليفه كثيرة ومقالاته اكثر من أسفاره ورسائله تدل على عبقرية نادرة ونشاط عظيم . وتخرج بعبد الله هذا وبالمعلم سعيد الشرتوني وبالشيخ ابراهيم اليازجي والشيخ ابراهيم الحوراني كثير من رجال العصر من المؤلفين المجودين . ومن اشهرهم امين تقي الدين وبشارة الخوري الشاعر وشبلي ملاط ونسيب ارسلان وعادل ارسلان . ونشأ من الشعراء والكتاب والمؤلفين في بيئات أخرى كثيرون امثال قامم الكستي مصباح رمضان عبد الحميد الرافعي شاكر شقير سليم الجندي فؤاد الخطيب خليل مردم بك احمد تقي الدين رشيد تقي الدين سعيد عقل امين ناصر الدين سليم عنحوري سليمان ظاهر ابراهيم طوقان محمد الشريقي خير الدين الزركلي شفيق جبري طانيوس عبده اديب التقي عمر حمد محمد الهلالي محمد الشغال نغري البارودي عمر ابوريشة انور العطار علي الناصر صالح طه حليم دموس الياس ابوشبكة ايليا ابو ماضي عمر الناخوري عمر يحيى بدر الدين الحامد سليم قصاب حسن عبد الرحمن القصار امجد الطرابلسي زكي المحاسني عبد الكريم الكرمي جميل سلطان محمد علي

الخوماني محمد سليمان احمد ، احمد عبد الرؤوف الامين عبد الحسين صادق . ومن هؤلاء الشعراء من كان له ناحية بارزة في الأدب ألف فيها وأفاد وكان في الكتابة آية ومنهم الزركلي وجبري ومردم بك والخاسي والكرمي وسلطان والعطار والتقي

وممن نشأ من المؤلفين في العلوم الطبيعية والطبية والزراعية والكيماوية والرياضية والاقتصادية والفلسفية شبلي شميل بشارة زلزل عبد الرحمن شهبندر منصور جرداق مصطفى الشهابي مرشد خاطر حسني سبح محمد محرم صلاح الدين الكواكبي شوكة الشطي منيف العائدي عاطف المالح جميل صليبا جميل الخاني اسعد الحكيم عبد الوهاب تنواتي احمد حمدي الخياط مصطفى الخالدي جمال الفرا وصفي زكريا سامي الحداد فؤاد غصن منير الشريف قدري حافظ طوقان جمال زريق اسكندر بارودي رئيف ابي اللمع جمال نصار شريف عسيران حكمة المرادي أمين معلوف عمر ترمانيني خليل سعادة خليل سعد حسين سري الدين وغيرهم .

ومن المؤلفين في العلوم الادبية والتاريخية والسياسية لويس شيخو عبد الرحمن كواكبي محمد المبارك احمد رضا فيليب طرازي محسن الأمين سليم البخاري سويريوس افرام جرجس همام داود عمون نعوم لبكي نعوم مكرزل احمد عبيد معروف الارناؤط عيسى اسكندر معلوف اسعد منصور فيليب حتي عبد القادر المغربي خليل بيدس امين الريحاني جبران خليل جبران ابراهيم سليم النجار ادوار مرقص نقولا فياض سليم مركيس عبد القادر القصاب عبد القادر بدران خليل طوطح عمر الاتاسي عجاج نويهض عبد الله مخلص نزيه المؤيد ميخائيل نعيمة كامل الغزي راغب الطباخ قسطاكي حمصي سليمان عز الدين جبر ضومط بدر الدين النعساني بندلي جوزي انيس المقدسي يوسف الخازن عمر فروخ مصطفى الغلاييني محي الدين الخياط احمد الصابوني زكريا النصولي عز الدين التنوخي امين سعيد عبد الرحمن الكيالي طاهر النعسان عبد الحسيب الشيخ سعيد ، عمر كحالة عمر الصالح البرغوثي سعيد ابو حمزة بولس الخولي صلاح الدين السعدي يوسف البستاني أسد رستم

جرجي بني فؤاد افرام البستاني يوسف غصوب احمد الكرمي جعفر الحسني عيسى اسعد جميل العظم احمد نصرت الشلق احمد فوزي الساعاتي ابو اليسر عابدين محمود النحاس محمود النجار محمد خير الطباع عبد الحكيم الافغاني سعيد البحرة فيليكس فارس امين السفرجلاني عبد الحميد الزهراوي جميل نخلة مدور حقي العظم انطون صالحاني نسيب شهاب نعمان قساطلي وجيه الكيلاني محمد الفراتي داود ابو شعر عبد الغني شهبندر اسعد خليل داغر محمد علي الجزائري امين ضاهر خير الله جرجي شاهين عطية زكي مغامز محمد احمد دهمان جميل الشطي فائز الغصين سعيد الأفغاني حنا خباز علي الطنطاوي صلاح الدين المنجد ابراهيم الكيلاني اسعد طلس خلدون الكناني سليم قبعين جرجي باز عيسى بندك امين الغريب امين الكيلاني (وهذا كاتب من الطراز الأول في السخرية) فؤاد حمزة عارف الزين خليل تقي الدين نجيب الريس قسطنطين زريق عادل زعيتر عادل جبر داود قربان يوسف ضياء الدين الخالدي محمد روحي الخالدي فيضي العلمي شكيب الجابري جرجس شلحت بطرس البستاني (الخوري) حبيب الزيات سامي الكيالي محمد الحسيني ياسين الحموي يوسف العش نجيب نصار عمر أبو النصر وجيه بيضون شكري العسلي سعيد حيدر احمد كرد علي نجيب صليبا عبد القادر المؤيد محمد الداوودي عبد المجيد المغربي حسن بيهم سليمان مصوبع عبد القادر الكرماني محمد غروخ وغيرهم .

وفي العلوم الفقهية والحقوقية والادارية والاجتماعية والدينية طاهر الأتاسي عبد المحسن الأسطواني جمال القاسمي حسين الجسر يوسف النبهاني ابو الهدى الصيادي سليم باز جرجس صفا اسماعيل الحافظ بدر الدين الحسني عارف النكدي لمعان النيابتي سعيد النعسان ناجي أديب حسني عبد الهادي بهجة البيطار نجيب ابو صوان مصباح محرم فارس الخوري سعيد المحاسني عثمان سلطان احمد اليمان شاكر الحنبلي احسان الشريف نجيب ارمنازي ابراهيم هاشم سعيد الباني

نجيب خلف محمد علي حشيشو يوسف صادر سامي الميداني محسن البرازي محمد سعيد العرفي فوزي الغزي واصف البارودي محي الدين الخاني عبد المجيد الخاني عبد الحميد الجابري امين عز الدين فائز الخوري صبحي المحمصاني .

ويكثر العلماء في هذه الفروع ولما كان كلامنا لا يتناول الا من ألفوا وصنفوا لم نعرض لذكرهم كما اننا لم نشر الى من ألفوا تآليف مدرسية فهؤلاء كثيرون أيضاً ، وعلى من يعرفهم معرفة احاطة ان يتقدم بالكلام عليهم تنويهاً بفضلهم وحسن بلائهم في خدمة الناشئة .

ومن المؤلفات سلمى صائغ وداد سكاكيني ماري عجمي منيرة علي مليحة سعيد نجلا صعب أدبية فارس فلك طرزي نظيرة زين الدين وغيرهن . ولا بد من الاشارة الى أن تآليف المصريين الحديثة اليوم تكتب بلغة أسلس من كتب المؤلفين الشاميين لعهدنا وكانت كتب هذه الديار منذ نحو نصف قرن اعرق في البلاغة من كتب المصريين يومئذ وعلى كل فقد سبقت مصر والشام جميع الأقطار العربيه الى التأليف ويجيء بعدهما العراق وتونس ثم سائر الأقطار وكل قطر لم يكن فيه حظ للغربيين تقل على ما يظهر حركة العقول في أبنائه وقد لوحظ أن حركة التأليف في بيروت فترت بعض الشيء منذ نحو عشرين سنة وهبت هبة مباركة في دمشق لوجود الجامعة السورية والمجمع العلمي العربي وغيرهما من المعاهد والجمعيات الساهرة على نشر العلم والآداب .

وبعد فان الانصاف يتقاضانا ونحن في آخر هذا الحديث الا نغفل عن التنويه بفضل من كانوا مثال الغيرة على لغتنا وتاريخنا أولئك الأعاجم الذين نزلوا بلادنا واستعربوا وكتبوا تآليفهم بلساننا وأفادونا بعلمهم وبما ألفوا لنا من كتبهم الممتعة فكانوا من أعظم العوامل في نهضتنا ، امثال فانديك وورتبات وبوسط وبورتر ولامنس وعالي سميث وغيرهم فانهم مهما كانت الغاية من تآليفهم قد أسدوا جميلاً الى أدبنا فحق لهم ان يدمجوا في جملتنا ويعدوا من عشيرتنا فعلى أرواحهم الذكية منا السلام .

ونرسل سلاماً ممزوجاً بالحرمة والاعجاب الى أولئك الذين هاجروا من أبناء هذه الديار الى الاميركتين وتوفروا هناك على نشر لغتنا واصدروا صحفاً ومجلات وكتباً ورسائل وعزّ عليهم ان يخرجوا عن العروبة وما زالوا يدأبون ليحتفظ أبناؤهم بعربيتهم فهؤلاء أهلنا ومفخرة العرب حيث حلوا . وقد رأينا تآليفهم نمطاً آخر من أنماط التآليف الشامية لمكان البيئة التي انشأتهم بعد موطنهم الأول نشأة جديدة وطبعتهم بطابع طريف من طوابع العالم الجديد فعلى من يعرفهم أو يعرف جلهم ان يتفضل فيكتب لنا فصلاً في أعمالهم .

واختم هذه العجالة بالاعتذار عما يكون وقع لي من نقص في سرد أسماء المؤلفين فربما فاتني اشخاص لم أذكرهم عند وضع هذا وعلى كل فأنا لا أدعي الاحاطة والاحاطة تتطلب درساً أوفى وأطول .

محمد كرد علي

الأدب العربي في بلاد فارس[1]

(أ)

الساميون والايرانيون قبل الاسلام

ليس من قصدي أن أتكلم في الصلات اللغوية والأدبية التي كانت بين الساميين عامة والعرب خاصة وبين الايرانيين قبل الاسلام . فأجتزئ بأن أقول ان الآشوريين والبابليين كان لهم سلطان سياسي ، وسيطرة أدبية على ايران ، ولا سيما غربيها منذ الف سنة قبل الميلاد ويتبين هذا في الأمور الآتية :

١ — ان آثار الدولة الفارسية الأولى التي نسميها الآثار الفارسية هخامنشى ، ويسميها الأوربيون الاكمينين وتسمى بأسماء أخرى في اساطير الفرس — آثار هذه الدولة كتبت بلغات إحداها سامية ، وكتبت بخط مسماري مشتق منه الخط الآشوري .

٢ — وان لغة ايران ايام الساسانيين ، اللغة التي تسمى الفهلوية كتبت بخط مأخوذ من الخط الارامي ، واشتملت على كثير من الألفاظ السامية ولا سيما الارامية منها .

وكان من أثر هذا الاختلاط هذا الخط العجيب الذي سماه ابن النديم هزوارش . وهو خط تكثر فيه الكلمات الارامية بل تجد فيه ما لا يستعار من لغة الى أخرى من الضمائر واسماء الاشارة والاستفهام والموصولات وحروف العطف والجر ، وعلامات الجمع والأعداد .

وقد فسر هذا تفسيراً عجيباً ذلكم ان الكاتب بالخط الفهلوي الغامض كان

(١) محاضرة ألقيت في المجمع العلمي العربي لـ ١٢ ايلول سنة ١٩٢٦

اذا خشي أن تتبهم الكلمة اذا كتبها باللغة الفارسية وضع مكانها كلمة ارامية تتضح في هذا الخط فإذا أراد أن يكتب «كوشت» مثلاً وهو اللحم بالفهلوية كتب «بسرا» بالارامية وقرأها «كوشت» وان أراد ان يكتب «نان» وهو الخبز بالفهلوية كتب «لحما» بالارامية وقرأها «نان» وهكذا ...

ومعنى هذا ان الكاتب الفهلوي على هذه الطريقة كان يعرف الارامية فيستعين بها في مواضع اللبس .

***

وأما العرب فقد جاوروا الفرس وخالطوهم وكان بين القبائل العربية والدولة الفارسية احداث وغير من سلم وحرب ومودة ومعاداة وسيطر الفرس على أقاليم عربية . وقد روي أن سابور الملك الساساني صالح العرب وأسكن بعض قبائل تغلب وعبد القيس وبكر بن وائل كرمان وتوج والأهواز .

وقد ذكر مؤرخو الفرس أن بهرام كور الملك الساساني نشأ في الحيرة في كفالة المنذر أحد أمرائها وتأدب بآداب العرب وعرف لغتهم ونظم بها الشعر وكان أول من نظم الشعر الفارسي وقد أنكره عليه الموابذة ونهوه عنه .

وكذلك دخلت الفاظ فارسية في العربية وعرف بعض العرب الفارسية ، وكان عدي بن زيد ، وابنه زيد بن عدي يكتبان لكسرى بالعربية والفارسية .

وفي أساطير الفرس صلات كثيرة بين العرب والفرس لها دلالتها .

في العصور الاسلامية

فتح العرب إيران لنشر الدعوة الاسلامية وشمل الفرس عدل المسلمين وإحسانهم ، وسارعوا الى الدخول في الاسلام فعمتهم الأخوة الاسلامية .

قال الطبري : فكانوا كأنما هم في ملكهم الا أن المسلمين أوفى لهم وأعدل عليهم . فاغتبطوا وغبطوا بل أسلم بعض الايرانيين ونصروا العرب في وقائع الفتح . أسلم الديلم بعد القادسية وشاركوا في فتح جلولاء ونزلوا الكوفة ، وشارك أحد

أعيان الفرس في فتح الري وتولاها بعد الفتح . وطلب سياه أحد زعمائهم أن يفرض له كأكثر ما يأخذ عربي ليشارك في الفتح .

وقد انساح العرب في أرجاء ايران منذ عهد عمر ، أذن لهم الخليفة في الانسياح حين ثار أهل فارس والجبال . وقد روى الطبري قول عمر : ألا وان المصرين (البصرة والكوفة) من مساحتهما اليوم كأنتم والمصرين فيما مضى من البعد . وقد وغلوا في البلاد والله بالغ أمره .

وبالفتح صارت لغة القرآن لغة الدولة ولغة العلم والأدب في إيران ، يستعملها العربي والعجمي في علوم الدين وغيرها . وبقيت زهاء مائتين وخمسين عاماً منفردة بالعلوم والآداب لا تشاركها لغة أخرى الا كتب دينية قليلة كتبها المجوس بالفهلوية تبييناً لدينهم ودفاعاً عنه .

وصارت العربية كذلك لغة الخطاب بين المثقفين ، وفي الأمصار الكبيرة ولا سيما في خراسان وغربي ايران .

وفي النصف الثاني من القرن الثالث الهجري شرع الفرس يستقلون عن الخلافة في أرجاء من ايران . وكانت دولهم تعظم على مقدار تأخرها زماناً وبعدها عن دار الخلافة مكاناً :

نشأت امارة الصفاريين في سجستان شرقي ايران وامتدت شطر المغرب حتى قاربت العراق وبدأت عهدها بالثورة على الخلافة . وقد قرنت الأساطير الفارسية نشوء هذه الدولة بنشوء أبيات من الشعر الفارسي .

ثم قامت فيما وراء النهر وشمالي إيران الدولة السامانية وقد انتقل مؤسسوها من ولاة للعباسيين الى ملوك مسلطين يقرون بالطاعة للعباسيين قولاً .

وفي رعاية هذه الدولة التي نشأت في إقليم قصي نشأ الأدب الفارسي وحاولت الفارسية أن تشارك العربية في العلوم والآداب .

فشرع الفرس يترجمون الكتب العربية الى لغتهم كما ترجم العرب من قبل الكتب الفارسية الى العربية فترجم تاريخ الطبري وتفسيره مختصرين .

وشرع الفرس يؤلفون بالفارسية ابتداء · ككتاب ابي منصور الهروي في الطب · وشرع الشعراء ينظمون بالفارسية ونبغ الرودكي السمرقندي أول شعراء الفرس الكبار أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع · وقد ذكرت كتب الأدب الفارسي ثلاثين شاعراً في عهد بني سامان ·

وأما الدولة البويهية التي قامت في غربي ايران سنة ٣٢٠ ﻫ واستولت على بغداد بعد أربعة عشر عاماً ودام لها السلطان على دار الخلافة أكثر من مائة سنة. فكانت في سلطان الأدب العربي ونظم معظم أمرائها بالعربية ، وكان من كتابهم أئمة في الكتابة العربية وحسبكم ابن العميد ، والصاحب بن عباد ، والوزير المهلبي ، وأبو إسحاق الصابي ·

ومما يصح به القياس بين اللغتين في دولة البويهيين أن الصاحب مدحه بالعربية خمسون شاعراً ولم يمدحه بالفارسية إلا شاعران : المنطقي والخسروي ·

والدولة الزيارية التي سيطرت على الاقليم الذي بين جبال البُرز وبحر قزوين، وهو الاقليم الذي احتجز عن سائر أقاليم إيران واستعصى على العرب سنين طوالاً بعد ان فتحوا ايران — اعني اقليم طبرستان فقد تسمى ملوكها وتلقبوا بالأسماء والألقاب الفارسية مثل : قابوس وكيكاوس ·

وقد مدح قابوس صاحب الرسائل العربية المعروفة باسم كمال البلاغة شاعران من شعراء الفارسية : الخسروي والسرخسي · وألف كيكاوس حفيد قابوس كتاب « قابوس نامه » بالفارسية ·

وأما الدولة الغزنوية فهي دولة تركية النسب وقد امتد سلطانها على ايران الشرقية والشمالية وبلغت من السطوة ما لم تبلغه دولة قبلها في ايران في العصور الاسلامية · وكان الأدب الفارسي قد ازدهر فاجتمع حول السلطان محمود بن سبكتكين كثير من شعراء الفارسية · والى محمود أهدى الفردوسي الطوسي كتاب — الشاهنامة — المنظومة التي تضمنت أساطير الفرس وتاريخهم منذ العصور الخرافية الى الفتح الاسلامي · وكتبت بالفارسية كتب قليلة : كتب اليميني

الشاعر تاريخ السلطان محمود ، وكتب البيروني كتاب التفهيم في التنجيم بالفارسية والعربية وترجم نصر الله بن عبد الحميد كتاب كليلة ودمنة الى الفارسية .

وحينما امتد سلطان السلاجقة على إيران في القرن الخامس والسادس ، وكانوا تركاً بداة ، كان الأدب الفارسي استحكم ونضج . وقد عدّ عوفي مؤلف لباب الألباب في تاريخ شعراء الفرس أكثر من مائة شاعر عاشوا في ظلال هذه الدولة .

***

نشأ الأدب الفارسي الحديث في أواخر القرن الثالث الهجري ونما وترعرع على مر الزمان ، ونبغ الشعراء والكتاب باللغة الفارسية . فكيف كانت مكانة العربية في العلم والأدب بعد أن نشأ لإيران لغة علمية أدبية :

تختلف أحوال اللغتين في الشعر ، وفي النثر ، وفي كتابة التأليف . أعني في البيان الذي يغلب فيه العاطفة والخيال ، والبيان في الحقائق التي لا شية فيها من العاطفة والتخيل ، وما هو وسط بين هذا وذاك .

فأما الشعر فقد أولع به الفرس منذ نشأت لغتهم ، وكثر الشعراء على مر العصور ، ونبغ عظماء الشعراء فيستطيع مؤرخ الأدب أن يعد منذ القرن الرابع الهجري من أئمة الشعر الفارسي من لا يجد نظيرهم كثرة ومكانة من شعراء العربية في ايران ولقي هؤلاء الشعراء من الملوك تأييداً وتشجيعاً فالتفوا حولهم ونظموا لهم القصائد والقصص المطولة .

ولكن الشعر العربي لم يضمحل بظهور الشعر الفارسي بل بقي مزدهراً شائعاً في أرجاء إيران . عد الثعالبي في الجزأين الثالث والرابع من كتاب اليتيمة مائة وواحداً وخمسين شاعراً نظموا بالعربية في عصره . وهؤلاء أكثر من كل من ذكرهم محمد عوفي في لباب الألباب من شعراء الفارسية منذ نشأ الشعر الفارسي الى حين تأليف الكتاب .

وقد ألف في أوائل القرن السابع الهجري وعدد صاحب دمية القصر ثلاثمائة

شاعر بالعربية وسنين بعدُ أثر الشعر العربي في هذا الشعر الفارسي الذي زاحمه منذ القرن الرابع كما قدمت .

ويدل على أن إيران بقيت إلى غارات التتر على الأقل ، موطناً رحيباً للشعر العربي أن ثلاثة من كبار شعراء العرب عاشوا فيها ووجدوا مجالاً ومستقراً . وحسبنا أن ينشأ في إيران في القرن الخامس الشاعر القرشي الأموي ، الذي أشاد بمجد العرب وأخلاقهم وأدبهم ، ومثل في شعره طموحهم وإباءهم ، وصور مواطنهم وعاداتهم وبيئاتهم وهو أبو المظفر الأبيوردي المتوفى سنة ٥٠٧ هـ فقد نشأ في أبيورد من خراسان ونبغ في الشعر هناك وتردد من بعد بين العراق وإيران ومدح خلفاء العباسيين وأمراء العرب من بني صدقة أمراء الحلة وغيرهم ومدح ملوك الدول الأعجمية كذلك . وما يخرج شاعراً كالأبيوردي إلا موطن للأدب العربي خصيب ، وجناب للغة العرب رحيب .

والشاعر الثاني القاضي ناصح الدين الأرجاني ينتسب الى أرجان في إقليم فارس وهو الصقع الجنوبي الغربي من إيران وهو شاعر أنصاري يعدّ من كبار شعراء العربية ولد سنة ٤٦٠ وتوفي سنة ٥٤٤

وأدل من هذين على تمكن الأدب العربي في ايران حتى القرن السادس الهجري أن أبا اسحاق الغزي الكلبي هاجر من بلاد العرب الى إيران فأمضى النصف الثاني من عمره فيها ومات بها ومدح كثيراً من ملوكها ورؤسائها . ولد الغزي سنة ٤٤١ وتوفي سنة ٥٢٤ .

***

والنثر يخالف الشعر وقد بقي السبق فيه للعربية الى غارات التتر سواء في هذه الرسائل الديوانية والرسائل الخاصة المعروفة بالأخوانيات . وقد حاكى الفرس كتاب العرب ولم يدركوا شأوهم .

ولسنا في حاجة الى بيان مكانة الكتابة العربية في دولة بني بويه ، وحسبنا ان نذكر من وزراء هذه الدولة أبا الفضل بن العميد والصاحب بن عباد .

ولم تكن العربية دون الفارسية فيما وراء النهر في دولة السامانيين . ونجد نتفاً من الأخبار تدل على أن كبار كتاب الدولة كانوا يكتبون بالعربية : مثلاً الاسكافي كاتب نوح بن منصور الساماني كتب حينما هزمت الجيوش السامانية ماكان بن كالي : «وأما ماكان فقد صار كاسمه والسلام» .

وأحمد بن الحسن الميمندي ، وزير السلطان محمود الغزنوي ولابنه مسعود عشرين سنة ، وكان يكتب بالعربية في هذه البقعة النائية . ومن توقيعاته المأثورة ما كتبه لجماعة طلبوا أن يحط الخراج عنهم : «الخراج خراج ، دواؤه أداؤه» .

ومن الدلائل على أن العربية كانت ذات المكانة الأولى في دواوين هذه الأصقاع وان كانت لغة العامة اعجمية أن أحد وزراء الغزنويين اتخذ الفارسية لغة الدواوين ، ولو ان العربية كانت غريبة في تلك الأقطار لوجد هذا قبولاً ، واستمرت الدواوين بالفارسية لغة البلاد ؛ ولكن الوزير احمد بن حسن الميمندي ردّ الدواوين الى العربية . ومن الممتع في هذا ان نقرأ ما كتبه في هذا الصدد العتبي الذي كتب تاريخ محمود بالعربية مسجوعاً كله . قال في كتابه :

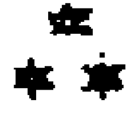
« وكان الوزير ابو العباس قليل البضاعة في الصناعة لم يعتن بها في سالف الأيام ، ولم يرض بنانه بخدمة الأقلام ، فانتقلت المخاطبات مدة أيامه من العربية الى الفارسية . حتى كسدت سوق البيان ، وبارت بضاعة الاجادة والاحسان . واستويت درجات العجزة والكفاة ، والتقى الفاضل والمفضول على خطي الموازاة .

ولما سعدت الوزارة بالشيخ الجليل ... جزم على أوشحه ديوانه أن يتنكبوا ويتحاشوا الفارسية الا عن ضرورة من جهل من يكتب اليه وعجزه عن فهم ما يتعرب به عليه » .

فهذه حال العربية في أفغانستان في القرن الخامس الهجري .

وأما الرسائل الاخوانية فلم تبلغ الفارسية فيها هذه القرون مبلغ العربية ولم تنشئ الفارسية كاتباً كبديع الزمان والخوارزمي وابن العميد وأبيه والصاحب ورشيد الدين الوطواط .

وكان البديع والخوارزمي يكتبان بالعربية الى أمراء البلاد وأعيانها شرقاً وغرباً كأنهم في بلاد العرب ولولا معرفة المكتوب اليهم العربية وتقبلهم هذه الرسائل بقبول حسن ما كتب كتابها بالعربية ·



ومما يبين ما بين اللغتين من صلات في تلك العصور الترجمة من العربية الى الفارسية ، والانشاء باللغتين ·

ولم تقتصر الترجمة على الكتب التي ألفت بالعربية قبل أن تكون الفارسية لغة كتابة كالطبري وكليلة ودمنة بل ترجمت كتب وضعت بالعربية بعد ان صارت الفارسية لغة تأليف كتاريخ بخارى للنرشخي · كتب لنوح بن نصر الساماني سنة ٣٣٢ وترجم الى الفارسية ٥٢٢ · وكتاب اليميني الذي ألفه العتبي للسلطان محمود بالعربية ترجم من بعد الى الفارسية ·

وكتب كثير من الأدباء باللغتين شعراً ونثراً وسمي كل منهم ذا اللسانين (دوزبان) وعطاء بن يعقوب له ديوانان عربي وأعجمي · وللبستي والباخرزي شعر فارسي ولابن سينا والشيخ سعدي الشيرازي بل بديع الزمان الهمذاني نظم بالفارسية قليلاً ·

ويقول صاحب المعجم في معايير أشعار العجم وقد ألفه في أوائل القرن السابع ان شعراء زمانه يعرفون اللغتين والحق ان معظم شعراء الفرس كانوا يعرفون العربية على اختلاف حظهم منها · وكثير منهم أنشأ بها كثيراً أو قليلاً ·

على أن أمر العربية كان يضعف على مر الزمان شيئاً فشيئاً فمؤلف كتاب راحة الصدور في تاريخ السلاجقة يروي شعراً عربياً ويقول ان قليلاً في زماننا من يفهم مثل هذا الشعر ·

ويقول عوفي في أوائل القرن السابع ان كل مستعرب يعرف الفارسية وليس كل فارسي يعرف العربية وقد ألف كتابه في العروض بالعربية فنقم عليه أدباء زمنه فكتب ما يتعلق بأشعار العجم بالفارسية ·

وأما اللغة العلمية لغة التأليف فقد كانت العربية مسيطرة عليها الى غارات التتار ثم شاركت فيها بعد التتار ، وما زال التأليف بها يقل على مر الزمان ولكنه لم ينقطع حتى عصرنا هذا .

وقد قال أبو الريحان البيروني ان الكتاب إذا ألف بالفارسية ذهب بهاؤه ، وقال ان لغته الخوارزمية وان الفارسية والعربية سواء لديه ليست احداهما لغته ولكنه يرى الفارسية لا تصلح للتأليف .

قال : « والى لسان العرب نقلت العلوم من أقطار العالم فازدانت وحلت في الأفئدة ، وسرت محاسن اللغة فيها في الشرايين والأوردة .

وقال : والهجو بالعربية أحب الي من المدح بالفارسية وسيعرف مصداق قولي من تأمل كتاب علم قد نقل الى الفارسي كيف ذهب رونقه ، وكسف باله ، واسود وجهه ، وزال الانتفاع به إذ لا تصلح هذه اللغة الا للأخبار الكسروية والأسمار الليلية » .

وقال أبو هلال العسكري في القرن الرابع :

ولا نعرف اليوم علماً جاهلياً ولا اسلامياً الا وأهله عربيون ومتعربون يكتبون باللفظ العربي والخط العربي .

وإذا نظرنا الى جماعة من كبار المؤلفين كابن سينا ، وابي الريحان البيروني ، والغزالي ، والرازي ، والزوزني والبيضاوي ونصر الدين الطوسي وهم من مؤلفي القرون الرابع ، والخامس ، والسادس ، والسابع وجدنا لغة التأليف عندهم العربية لم يكتبوا بالفارسية إلا كتباً صغيرة لا تقاس بما كتبوا بالعربية .

فابن سينا وتأليفه بالعربية لا يحتاج الى بيان ، كتب بالفارسية دانش نامه علائي لعلاء الدولة كاكوية أمير أصفهان .

والبيروني كتب بالعربية كتبه الخالدة وكتب بالفارسية كتيباً في التنجيم وكتبه بالعربية أيضاً .

والغزالي لا يعرف له بالفارسية إلا كيمياء السعادة وقد كتبها بالفارسية

لإفهام العامة كما يقول . وكتاب آخر يسمى نصيحة الملوك كتب بالفارسية كذلك .

والرازي له ثلاثة وثلاثون كتاباً منها واحد بالفارسية .

والبيضاوي له كتاب بالفارسية صغير اسمه نظام التواريخ ، وسائر مؤلفاته بالعربية .

والطوسي ، وهو من علماء القرن السابع وقد صحب هولاكو ، له زهاء خمسين كتاباً قليل منها فارسي .

وقد استمرت العربية لغة للتأليف في إيران بعد غارات التتار على تقلب الغير بها وتحيف الزمان إياها . ولم يخل عصر من التأليف بها الى عصرنا هذا . وحسبنا أمثال صدر الدين الشيرازي والسيد الشريف الجرجاني وسعد الدين التفتازاني .

أثر العربية في الفارسية

وهذه اللغة الفارسية التي نشأت وترعرعت في رعاية العربية وكفالتها هي اللغة الفهلوية التي كانت لسان الدولة ولغة العلم أيام الساسانيين ولكن كتبت بالخط العربي واشتملت على ألفاظ عربية كثيرة . وقد أمدت العربية الفارسية غير ضنينة . والألفاظ العربية في الفارسية تختلف كثرة وقلة باختلاف الموضوع ، فهي في الشعر أقل منها في النثر ، وهي في النثر الأدبي أقل منها في لغة التأليف ، ويجد قارئ النثر الفارسي أحياناً ألفاظاً عربية متوالية ليست للفارسية فيها إلا التراكيب والصلات . وقد استمر هذا الى يومنا ولا تزال العربية في هذا العصر تمد الفارسية بألفاظ جديدة الى الألفاظ التي أمدتها بها في العصور الخالية .

وكذلك استعمل شعراء الفرس الأوزان العربية والقوافي ، ولكن تصرفوا بها بعض التصرف فزادوا في البحور وفي التفعيلات ، والزحافات والعلل ، وافتنوا في نظام التقفية .

وبقيت الأوزان العربية في معظم أشعارهم وبقيت اصطلاحات العروض والقافية كلها . ومن العجيب أن شعراء الفرس هجروا الأوزان الشائعة في الشعر العربي . وأكثروا من أوزان لم يكثر النظم فيها شعراء العرب . هجروا أوزان الدائرة

الأولى كلها فلم ينظموا في الطويل والمديد والبسيط إلا محاولة بعضهم أن يستكمل الأوزان العربية ، ويبين عن قدرته على استيعابها .

وعمدوا الى أبحر الدائرة الرابعة التي فيها المقتضب والمجتث والمضارع ، الأبحر التي يندر فيها النظم العربي فأكثروا النظم فيها وتفننوا . وشاركوا العرب في الأبحر الأخرى .

وفي هذا برهان على اختلاف مزاج الأمتين ، وتباين أذواقهما في توالي الحركات والسكنات في الأوزان . وعلم البلاغة العربي يسيطر على الفارسية بقواعده وألفاظه . وكتاب حدائق السحر لرشيد الدين الوطواط لا يختلف عن الكتب العربية إلا بأمثلة فارسية معها أمثلة عربية .

وأخذ الأدب الفارسي موضوعات الأدب العربي كذلك فهو يستمد من الاسلام وتاريخه ومن تاريخ العرب ، ويزيد موضوعات مستمدة من تاريخ الفرس .

ويمتاز من الأدب العربي امتيازاً واضحاً في موضوعين :

الأول : الشعر الصوفي : فقد ذهب فيه شعراء الفرس مذاهب عجيبة ، وأبانوا عن دقائق النفس الانسانية ، ونظموا المنظومات المطولة كحديقة الحدائق لمجد الدين سنائي ومنطق الطير لفريد الدين العطار ، والمثنوي لجلال الدين الرومي ، ومنظومات أخرى يضيق بها العد .

وما أحسب أدباً يجاري الأدب الفارسي في هذا الصدد .

والموضوع الثاني القصص : فقد افتن فيه شعراء الفرس بين قصص حماسي مستمد من أساطير الفرس وتاريخهم كالشاهنامة ، وقصص غرامي كقصة ليلى والمجنون ، وخسرو وشيرين ، ويوسف وزليخا ، وهم في هذا لا يملون الإطالة وقل أن تنقص القصة عن خمسة آلاف بيت وكثيراً ما تجاوز عشرة الآلاف . وقد نظم القصة الواحدة شعراء عدة في عصور مختلفة .

عبد الوهاب عزام

الغزالي وزعماء الفلاسفة

- ٣ -

٥ — دراسة بعض المسائل

نبحث الآن في المسائل الثلاث التي أشرنا اليها في المقال السابق

١ — مسألة المعرفة

مسألة المعرفة هي الأساس الذي يرجع اليه الخلاف بين الغزالي والفلاسفة . فقد كان الفلاسفة يقولون ان المعرفة لا تتم بطريق التجربة ، بل تتم باشراق الصور من العقل الفعال على العقل الانساني . فالعقل يكون في أول امره عقلاً بالقوة ، ثم يصير عقلا بالفعل ، وذلك بما يصل اليه من الصور التي تؤديها اليه الحواس الظاهرة والباطنة . ولكن هذا الانتقال من القوة الى الفعل لا يتم الا بتأثير العقل الفعال . وتتمايز العقول الانسانية بعضها من بعض بمقدار استعدادها للاتصال بالعقل الفعال الذي تتلقى عنه المعرفة . وفي ضوء هذا العقل يستطيع عقلنا ان يدرك الصور الكلية ، وبه يصير الاحساس معرفة .

فأنت ترى ان الفلاسفة قد بنوا المعرفة على العقل . لأن العقل هو الذي يجرد الصور الحسية من اللواحق المشخصة ، وينتزع من الصور المتخيلة صوراً كلية . ولكن الصور المنتزعة من الاحساس والخيال لا تصبح صوراً عقلية الا بتأثير العقل الفعال او كما يقول ابن سينا بنور يفيض عليها من واهب الصور . نعم ان طريقة اكتساب المعرفة عند ابن سينا ترجع الى النظر والقياس اولاً ، ثم الى الحدس ثانياً . ولكن هذا الحدس الذي يتكلم عنه ، انما هو حدس عقلي شبيه بالحدس الذي اشار اليه ديكارت وغيره من الفلاسفة العقليين . ومعيار صحة المعاني عنده هو وضوحها بذاتها وخلوها من التناقض .

اما مذهب الغزالي في المعرفة فيختلف عن مذهب الفلاسفة في مبادئه وغاياته لانه قد بنى المعرفة على التجربة والكشف الباطني · ولليقين عنده ثلاث مراتب : اولها ايمان العامة المستند الى الخبر · فهم يصدقون ما يخبرهم به اهل الثقة ، كأن يقال لهم ان فلاناً في الدار ، وثانيها معرفة العلماء التي يصلون اليها بالاستنباط ، فهم قد سمعوه يتكلم فاستنبطوا انه في الدار · غير انه يوجد فوق ذلك مرتبة ثالثة هي يقين العارفين الذين يشهدون الحق دون حجاب · وهم قد دخلوا الدار ورأوا الرجل بأعينهم · والعلوم انما تثبت في القلب بطريق الاستدلال والتعلم ، أو بطريق الوحي والالهام · والغزالي يفضل العلم الذي يحصل في القلب عن طريق الالهام على العلم الذي يحصل فيه عن طريق التعلم · ومن أجمل ما في كتاب الأحياء من التشبيهات تشبيه القلب بحوض محفور في الأرض · فاما ان يساق اليه الماء من فوقه بأنهار تنفتح فيه ، واما أن يحفر أسفل الحوض ويرفع منه التراب الى ان يقرب من مستقر الماء الصافي فيتفجر الماء من أسفل الحوض - قال الغزالي :

« والقلب مثل الحوض ، والعلم مثل الماء · وتكون الحواس الخمس مثل الأنهار · وقد يمكن ان تساق العلوم الى القلب بواسطة انهار الحواس والاعتبار والمشاهدات حتى يمتلئ علماً ، ويمكن ان تسد هذه الأنهار بالخلوة والعزلة وغض البصر ، ويعمد الى عمق القلب بتطهيره ، ورفع طبقات الحجب عنه حتى تنفجر ينابيع العلم من داخله · فان قلت فكيف يتفجر العلم من ذات القلب وهو خال عنه فاعلم ان هذا من عجائب اسرار القلب ، ولا يسمح بذكره في علم المعاملة بل القدر الذي يمكن ذكره ان حقائق الأشياء مسطورة في اللوح المحفوظ ، بل في قلوب الملائكة المقربين · فكما ان المهندس يصور أبنية الدار في بياض ثم يخرجها الى الوجود على وفق تلك النسخة فكذلك فاطر السموات والأرض كتب نسخة العالم من أوله الى آخره في اللوح المحفوظ ، ثم اخرجه الى الوجود على وفق تلك النسخة · والعالم الذي خرج الى الوجود بصورته تتأدى منه صورة اخرى الى الحس والخيال ·

فان من ينظر الى السماء والأرض ثم يغض بصره، يرى صورة السماء والأرض في خياله حتى كأنه ينظر اليها . ولو انعدمت السماء والأرض وبقي هو نفسه لوجد صورة السماء والأرض في نفسه كأنه يشاهدهما وينظر اليهما، ثم يتأدى من خياله أثر الى القلب . . . والحاصل في القلب موافق للعالم الحاصل في الخيال والحاصل في الخيال موافق للعالم الموجود في نفسه خارجاً من خيال الانسان وقلبه، والعالم الموجود موافق للنسخة الموجودة في اللوح المحفوظ . فكأن للعالم أربع درجات في الوجود : وجود في اللوح المحفوظ، وهو سابق على وجوده الجسماني، ويتبعه وجوده الحقيقي، ويتبع وجوده الحقيقي وجوده الخيالي، اعني وجود صورته في الخيال، ويتبع وجوده الخيالي وجوده العقلي اعني وجود صورته في القلب[1] » .

وهذا القول يدل على ان المعرفة تحصل في النفس بطريقين مختلفين الأول هو طريق الحواس والاعتبار والمشاهدة . وهو طريق التجربة الخارجية او طريق المعرفة غير المباشرة . والثاني هو طريق القلب وتطهيره ورفع الحجب عنه . وهو طريق التجربة الداخلية المباشرة . وكلا الطريقين يؤدي الى نفس النتائج، لأن صورة العالم الخارجي محفوظة في النفس . فاما ان تتوجه النفس الى العالم الخارجي فتتأدى اليها المعرفة عن طريق الحواس، واما ان تتوجه الى ذاتها وتدرك صورة العالم المحفوظة في داخلها، فتتفجر منها المعرفة . والمعرفة التي تتفجر من داخل القلب اصفى وأدوم، لا بل هي كما يقول الغزالي اكثر وأغزر . وهذا الرأي شبيه كما ترى برأي (ليبنيز) الذي قال : « يظهر لنا لأول وهلة ان جميع تصوراتنا تأتي من العالم الخارجي بواسطة الحواس، وترتسم في صفحات النفس الفارغة . ولكننا اذا تعمقنا في التأمل ادركنا ان كل شيء، حتى الادراكات والانفعالات انما يأتينا من داخلنا بعفوية تامة وما نظنه خارجياً او آتياً عن طريق الحواس ان هو الا تبدل في احوالنا الداخلية[2] » .

(١) الغزالي، احياء علوم الدين الجزء الثالث، ص ١٧ – ١٨، المطبعة العثمانية المصرية، القاهرة ١٩٣٣.
(٢) كتاب الالهيات « Théodicée » – ٢٩٦ .

ولكن هذه الادراكات والانفعالات الداخلية هي كما يقول (ليبنيز) صور ومعارف مطابقة للحقائق الخارجية . وهي لا تنشأ عن تأثير متبادل بين العقل والطبيعة ، بل تنشأ عن توافق قديم بينهما . ومعنى ذلك ان تتابع الادراكات في الجوهر العاقل مطابق لتتابع حوادث الكون وجريانها . فهناك اذن عالمان عالم العقل وعالم الطبيعة . وكل منهما مطابق للآخر في تتابع صوره وجريان حوادثه .

وهذا شبيه بقول الغزالي ان صور العالم الحقيقي مطابقة للصور المرسومة في اللوح المحفوظ وموافقة للصور الحاصلة في القلب والخيال وسواء أتوجهت النفس الى العالم الحقيقي أم غضت البصر عنه وتوجهت الى داخلها ، فان المعرفة التي تحصل لها واحدة .

وحقيقة القول ان القلب في نظر الغزالي مستعد لأن تتجلى فيه حقائق العلوم مباشرة وذلك بالتعرض للنفحات الالهية . قال الغزالي : « ان العلوم ليست ضرورية وانما تحصل في القلب في بعض الأحوال ، فتارة تهجم على القلب كأنه القي فيه من حيث لا يدري ، وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم فالذي يحصل بطريق الاكتساب وحيلة الدليل يسمى الهاماً ، والذي يحصل بالاستدلال يسمى اعتباراً واستبصاراً »[1] .

يتضح من هذا القول ان الغزالي يسمي الطريق الأول الذي تحصل به على المعرفة طريق الاعتبار والاستبصار ، ويسمي الطريق الثاني بطريق الالهام . وفوق طريق الالهام درجة من المعرفة يعرف معها المدرك كيف حصل له ذلك الالهام ومن أين حصل وتسمى هذه المعرفة وحياً . وهي مما يختص به الأنبياء ، اما الالهام فيختص به الأولياء . والعلم المكتسب الحاصل بطريق الاعتبار والاستبصار والاستدلال انما يختص به العلماء .

ويرى الغزالي ان الفلاسفة اقتصروا في أصل المعرفة على طريق الاستدلال والتعلم وأهملوا العلم الحاصل في النفس عن طريق الوحي والالهام . انهم يفنون

(١) الاحياء ٣ ، ص ١٦

انفسهم في تجريد المعاني الكلية من الكيفيات الجزئية ، مع ان المعاني الكلية المجردة أقل من أن تستنفد كل ما نشعر به في نفوسنا . واحباب الله يبلغون من الرياضة درجة يتلقون بها علماً لدنياً لا يطلع عليه العلماء الا بالاستنباط العقلي ، ولا يرتقي الى ذلك المقام الرفيع الا قليل من الناس .

ما هي قيمة هذه المعرفة التي تحصل لنا بأحد هذين الطريقين وما هي حدودها ؟

لقد ذكر لنا الغزالي في كتاب المنقذ من الضلال صفة المعرفة التي يريد الحصول عليها ، فقال ان مطلوبه هو العلم بحقائق الأمور ، لذلك ظهر له « ان العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه امكان الغلط والوهم ، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك ، بل الأمان من الخطأ ينبغي ان يكون مقارناً لليقين مقارنة لو تحدى باظهار بطلانه مثلاً من يقلب الحجر ذهباً والعصا ثعباناً لم يورث ذلك شكاً وانكاراً »(١)

وفي سبيل الحصول على هذه المعرفة اليقينية شك الغزالي في العلم الموروث ، ثم شك في الحسيات ، ثم شك في الأوليات العقلية ، ولم تعد نفسه الى الصحة والاعتدال الا بنور قذفه الله في الصدر . وهذا النور كما يقول هو مفتاح اكثر العلوم . وهذا يدل على ان الغزالي لم يكن ريبياً ، بل كان شكه شكاً فلسفياً ، وهو واسطة الوصول الى اليقين . فقد كانت الأوليات العقلية موثوقاً بها في الأصل ، ثم لما عادت النفس الى الصحة والاعتدال رجعت الأوليات موثوقاً بها أيضاً على أمن ويقين . ولولا النور الالهي الذي قذف في الصدر لم ينقذ الغزالي نفسه من غياهب الشك الذي غرق فيه . ولكن هذا الجود الالهي لم يكن الا مفتاحاً لليقين ، ولولا استعداد العقل لقبوله لما بدد نوره ظلمات الشك . فالعقل قادر اذن على الوصول الى الحقيقة ، واذا وقع في الشك استطاع ان ينقذ نفسه منه بالتعرض للالطاف الالهية . على ان الحقائق التي يتوصل اليها العقل بنفسه

(١) المنقذ من الضلال . طبعة دمشق (مكتب النشر العربي)، الطبعة الثانية ٦٩

لا تشمل كل شيء ، وهي تختلف بحسب الطريق الذي نسلكه في الوصول الى المعرفة . فاذا كان الطريق الذي سلكناه هو طريق الاستدلال كانت معرفتنا مقصورة على امور التجربة وما يتصل بها ، واذا كان طريق معرفتنا هو الوحي والالهام امكننا الوصول الى معرفة الأمور الالهية . وهذا النوع الأخير من المعرفة هو التعليم الذي جاءنا به الأنبياء . فقد علمونا أشياء كثيرة منها ماهو داخل في نطاق الاستدلال العقلي ، ومنها ماهو خارج عن نطاقه . ولولاهم لما أدركنا حقيقة الأمور الالهية .

فالغزالي قد حدد اذن نطاق الاستدلال العقلي المجرد عن الوحي ، وجعله قاصراً على ادراك أمور التجربة . وجعل الأمور الالهية خارجة عن نطاقه . وهو في ذلك قريب من ابن خلدون .

أما الفلاسفة فقد آمنوا بسلطان العقل ، وجعلوه قادراً على حل جميع المشكلات . وعدم وصول التعليم اليهم عن طريق الأنبياء لايمنعهم من الوصول الى الحقائق الأبدية . أما الغزالي فيرى ان محاولة معرفة الأمور الالهية بطريق العقل المجرد عن الوحي والالهام فضول وطمع في غير مطمع ، لأن هذه الأمور كما صرح غير مرة ، ليست مما تتسع له القوى البشرية . ولا تنال بنظر العقل ، بل تنال بطريقة أخرى للاطلاع ، هي طريقة الكشف الباطني والشعور الوجداني ، وقد اقتبس الغزالي هذا النوع من المعرفة الوجدانية من الطريقة الصوفية فجعل الكشف الباطني اساس اليقين الديني ومفتاح العلوم .

ولا يشترط في الحق عنده ان يكون واضحاً بنفسه مؤيداً بالبرهان العقلي فحسب ، بل يجب ايضاً ان يكون موافقاً للكتاب والسنة . وهكذا تنقسم المعرفة عند الغزالي الى قسمين : معرفة حسية ومعرفة دينية . فالعقل والتجربة هما اساس المعرفة الحسية ، اما المعرفة الدينية فترتكز على الكشف الباطني . وهذا يوضح لنا السبب في حملة الغزالي على الفلاسفة ، واظهاره تناقض مذهبهم في ايضاح

الأمور الالهية ، واستنباطهم اياها على طريقة العلماء . فهم لم يكتفوا بالخبر كما نقله اليهم الأنبياء ، ولا ارتقوا في المعارف اللدنية الى المشاهدة والمكاشفة ، ولكنهم ارادوا ان يزنوا حقيقة الإله والنفس بميزان العقل ، وان يستنبطوا بهذا الميزان احكاماً لا يمكن الوصول اليها الا عن طريق الوحي والالهام . فوقعوا فيما وقعوا فيه من التوهم والضلال .

٢ — مسألة العالم : الزمان والمكان

والمسألة الثانية التي نريد ذكرها على سبيل المثال هي مسألة العالم والزمان والمكان . وهي مسألة كلية تشتمل على عدة مسائل ، كقولنا هل العالم ازلي أم حادث ، وهل هو أبدي ام فان . واذا كان ازلياً هل يحتاج الى صانع ، وما البرهان على احتياجه الى صانع واحد . لماذا يستحيل على العقل ان يتصور إلهين قديمين .

فالفلاسفة يقولون : إن العالم كرة متناهية في الامتداد ، ولكنهم يقولون في الوقت نفسه إنها قديمة لا نهاية لها في الزمان ، وإنها بالرغم من قدمها محتاجة الى صانع . ولا مجال الآن لتفصيل القول في هذا كله ، وانما نريد ان نبين ان الغزالي لم يبطل أدلة الفلاسفة على قدم العالم وأزليته ، الا ليحدد لنا نطاق الاستدلال العقلي المجرد عن الوحي ، ويبين عجزه عن ادراك مسائل ما بعد الطبيعة . فهو قد اورد أدلة الفلاسفة على قدم العالم ثم بين تناقضها ، وأورد بالاضافة الى ذلك ادلة مختلفة على حدوث العالم ، وجعل مسألة عدم تناهي الزمان ، مماثلة لمسألة عدم تناهي المكان . فاذا كنا لا نستطيع ان نتصور للزمان مبدأ أو نهاية ، فكذلك لا نقدر ان نتصور للمكان حدوداً ، ولو قيل ان المكان يتعلق بالحس الظاهر ، وان الزمان يتعلق بالحس الباطن لما تغير من المسألة شيء ، لأننا مع هذا لا نخرج من المحسوس . فالبعد المكاني تابع للجسم والبعد الزماني تابع للحركة . وكما اننا نستطيع ان نقيم الدليل على تناهي أقطار الجسم ، فكذلك يمكننا لن نبرهن على تناهي الحركة من طرفيها . وهذا كله يدل على ان الزمان والمكان انما هما عبارة

عن علاقات بين تصوراتنا ، فهما اذن نسبيان . وهذا يقرب رأي الغزالي من رأي (كانت) الذي يقول ان الزمان والمكان هما صورتان سابقتان للتجربة نستعين بهما على ادراك العالم الخارجي . والفرق بين (الغزالي) و (كانت) في ذلك هو ان الغزالي يقول ان الزمان والمكان هما علاقات بين التصورات ، تخلق بخلقها أو بالأحرى يخلقها الله بين الصور الذهنية في عقولنا ، اما (كانت) فيقول ان مقولتي الزمان والمكان هما صورتان من خلق العقل يستخرجهما من داخله وينشرهما ليرتب فيهما ظواهر الطبيعة ويؤلف منها سلاسل منظمة . ولكن (كانت) لم لم يوضح لنا كيف تولدت هذه المقولات من العقل ، فهل هي مثل مخلدة ، ام هي اشراق إلهي . انك لاتجد لهذه المسألة في فلسفة (كانت) جواباً شافياً أما الغزالي فقد تجنب الشبهة بارجاع الزمان والمكان الى تصورات ذهنية خلقها الله في عقولنا .

وفي تقرير الغزالي لحجة الفلاسفة ، في قدم العالم ، وابطالها دليل آخر على مشابهته (لكانت) . اننا اذا قلنا مع الغزالي ان العالم حادث ورد علينا اعتراض الفلاسفة وهو قولهم يستحيل صدور حادث من قديم . لأن الشيء لا يمكن ان ينتج الا مثله . واذا قلنا مع الفلاسفة إن العالم قديم ورد علينا اعتراض الغزالي ، وهو قوله ان في العالم حوادث ، ولها أسباب ، ولا يمكن ان تستند الحوادث الى الحوادث الى غير نهاية ، ولو كان ذلك ممكناً لاستغنينا عن الاعتراف بالصانع واذا كانت الحوادث لها طرف ينتهي اليه تسلسلها ، فيكون ذلك الطرف هو القديم ، فلا بد اذن على أصل الفلاسفة انفسهم من تجويز صدور حادث من قديم . وهناك أدلة أخرى لكل من هذين الرأيين المتضادين تتفرع بعضها من بعض ، فتتشبك وتتعقد وتزيد الأمر اشتباهاً . وهي كلها تدل على عجز العقل عن ادراك هذه المسائل ، لأنها من طور فوق طوره . وتذكرنا بمتناقضات العقل المحض التي جاء بها كانت لاثبات عجز العقل عن ادراك كنه مسائل ما بعد الطبيعة . فمن متناقضات العقل المحض قضية تناهي العالم في الزمان والمكان ونقيضها . فالأدلة التي جاء بها كانت للبرهان على هذه القضية ونقيضها لا تختلف كثيراً عن الأدلة

التي جاء بها الغزالي، على لسان الفلاسفة، لاثبات قضيتهم من جهة، ولاظهار تناقضها من جهة أخرى. ومن تعمق في درس تهافت الغزالي وتهافت ابن رشد استطاع أن يجد فيها بذوراً لمتناقضات (كانت) الاخرى كمتناقضة تركيب الجوهر من أجزاء بسيطة وعدم تركيبه، ومتناقضة السببية والحرية. ومتناقضة وجود الموجود الواجب وعدم وجوده، حتى ان الغزالي نفسه يقول عند الكلام عن أبدية العالم، ان العالم يجوز أن يبقى، وان يفنى، ولا ترجيح عنده لأحد هذين النقيضين على الآخر إلا بالرجوع الى الشرع لا الى العقل.

٣ — مسألة السببية

والمسألة الأخيرة التي نريد ذكرها على سبيل المثال هي مسألة السببية. فقد كان الفلاسفة يفرقون بين فعل الله وفعل العقول المريدة وفعل النفس والطبيعة والاتفاق. ولكن الغزالي يرى انه لا يوجد الا فعل واحد وهو فعل الموجود المريد. وهو ينكر فعل الطبيعة انكاراً تاماً. لأننا لا نستطيع ان نرد هذا الفعل الى مجرد علاقة زمانية بين شيئين. ولا شك اننا نجد مثيلاً لهذه الآراء عند المتكلمين السابقين. ولكن جرأة الغزالي على انكار الضرورة العقلية لقانون السببية، قد فاقت كل ما ألفناه حتى الآن، من الاقدام على التهديم. ومن السهل علينا ان نلخص رأي الغزالي في مسألة السببية بايراد العبارة الآتية؛ قال الغزالي

« ان الاقتران بين ما يعتقد في العادة سبباً وما يعتقد مسبباً ليس ضرورياً عندنا. بل كل شيئين ليس هذا ذاك ولا ذاك هذا، ولا اثبات احدهما متضمن لاثبات الآخر ولا نفيه متضمن لنفي الآخر. فليس من ضرورة وجود احدهما وجودُ الآخر، ولا من ضرورة عدم احدهما عدمُ الآخر، مثل الريّ والشرب، والشبع والأكل، والشفاء وشرب الدواء وهلم جرا، الى كل المشاهدات من المقترنات في الطب والنجوم والصناعات والحرف، وان اقترانها لما سبق من تقدير الله سبحانه لخلقها على التساوق، لا لكونها ضرورية في نفسها ». وقال ايضاً:

« وليس لهم دليل إلا مشاهدة حصول الاحتراق عند ملاقاة النار ، والمشاهدة تدل على الحصول عنده ، ولا تدل على الحصول به وأنه لا علة سواه » . فنحن نرى ظاهرة معينة تعقبُ ظاهرة أخرى معينة ، فنسمي الأولى معلولاً والثانية علة . اما كيف تحدث العلة معلولها فهذا سر لا يطلعنا عليه الحس ، ولا ندركه بالعقل . ومجرد اعتيادنا مشاهدة التعاقب بين ظاهرتين لا يسمح لنا بأن نقول إن الظاهرة الأولى علة الظاهرة الثانية . فالغزالي ينكر اذن الضرورة العقلية في مبدأ السببية ، ويعلن بجرأة اننا لا نعرف فعل الأشياء الطبيعية بعضها في بعض وليس في الفلاسفة القدماء والمحدثين من يشبهه في جرأته هذه الا (داود هيوم) الذي انكر أيضاً ارتباط العلة بالمعلول ارتباطاً ضرورياً . فقال ان كل ما يراه الانسان بحواسه هو ظاهرتان متعاقبتان . وليس هذا التتابع دليلاً على السببية ، ولا يمكن ان يُعلم منه ان الحادثة الأولى علة الحادثة الثانية . والعادة وحدها كما يقول (هيوم) هي التي أوحت الى الانسان بهذه النتيجة ، اذ توهم انه ما دامت هاتان الحادثتان قد ارتبطتا في الماضي ، فلا بد ان ترتبطا لذلك في التجارب المقبلة ، واذن ففكرة السببية ذاتية محضة ، وهي خدعة من الخيال ليس لها وجود الا في العقل الذي يدركها . واذا قال قائل إن رفع الأسباب مبطل للعلم ، وإن ذلك يؤدي الى قلب الكتاب حيواناً والعصا ثعباناً قال الغزالي ان الله تعالى خلق لنا علماً بأنه لم يفعل هذه الممكنات ، وهو لم يقل ان هذه الأمور واجبة ، بل هي ممكنة يجوز ان تقع ويجوز ان لا تقع . واستمرار العادة بها مرة بعد أخرى يُرسخ في أذهاننا جريانها وفق العادة الماضية . وفي هذا القول ايضاح كاف للأسباب التي حملت الغزالي على انكار السببية . فهو قد أنكر السببية ليترك باب المعجزات مفتوحاً . فعلق الأسباب والأفعال كلها بارادة الله . فالشمس عنده ليست علة الضوء ، والدواء ليس علة الشفاء ، والنار ليست علة الاحتراق ، بل الفاعل الحقيقي هو الله . فالله قد خلق هذه الظواهر ، بعضها بعد بعض على

التساوق ، لا لكونها ضرورية في نفسها ، ولكن لغاية نجهل حكمتها . وفعل الله لا ينقطع ، بل هو يتجدد في كل وقت ، فيربط اذا شاء ظاهرة بظاهرة ، وحركة بحركة ويقطع اذا شاء هذا الارتباط . وهذا قريب من رأي (ديكارت) الذي قال ان الله يخلق العالم في كل آن . ومن رأي (مالبرانش) الذي زعم ان الله هو المنفذ المباشر لكل فعل من افعال الانسان ، لا بل هو العلة الحقيقية في ارتباط الظواهر بعضها ببعض . وبديهي ان السبب في تعليق الأسباب والمسببات بارادة الله ، انما يرجع الى العقيدة الدينية . ولولا حرص الغزالي على اعطاء الله جميع الصفات التي تعلمها من الشرع لما انكر الضرورة العقلية في قانون السببية . فهو قد أرجع هذا القانون الى الاعتياد تخلصاً من انكار المعجزات ، وجعل الطبيعة مسخرة لله تعالى ، لا تعمل بنفسها ، بل شي مستعملة من جهة ناظرها . فالله تعالى وحده هو السبب الحقيقي لكل شيء ، والسببية الحقيقية ترجع الى علاقة ارادية بينه وبين العالم . اما ارتباط الأسباب والمسببات الطبيعية بعضها ببعض ، فلا قيمة له بنفسه ، ولا معنى له الا اذا ارتكز على ارادة الله .

٦ — النقد

هذه أمثلة سريعة تبين لنا موقف الغزالي من فلسفة زمانه . فقد كان الفلاسفة يعتقدون ان العقل قادر على الاحاطة بكل شيء ، فبين لهم الغزالي ان نطاق العقل مقصور على ادراك أمور التجربة . وكانوا يعتقدون ان العالم قديم فألزمهم الغزالي بأن العالم حادث ، وكانوا يقولون بارتباط الأسباب والمسببات ارتباطاً ضرورياً فأثبت لهم الغزالي ان السبب الحقيقي هو الله ، وان الله هو المريد بارادة قديمة وانه لا فاعل سواه . وما ذهب الغزالي الى ذلك كله الا ليحافظ على العقائد ويذب عن حياض الدين . فهاجم الفلاسفة مهاجمة عنيفة ، واهتدى في أثناء ذلك الى آراء جديدة لا نجدها الا عند (ديكارت) و (مالبرانش) و (كانت) و (هيوم) من فلاسفة العصور الحديثة . ففلسفة الغزالي هي بهذا المعنى فلسفة دينية

أو فلسفة مثالية شخصية اما فلسفة المشائين فهي فلسفة عقلية . والغزالي قريب من ابن خلدون في قوة الابتكار ، وهو أكثر فلاسفة العرب تحرراً من سيطرة أرسطو ، ولكنه لم يتحرر من سيطرة أرسطو الا ليستسلم لدواعي القلب ، ويلجأ الى أحضان الدين . وقد كان لرده على الفلاسفة أثر عميق في مصير الفلسفة في الشرق . فلم يقم أحد من تلاميذ ابن سينا للرد عليه فتداعى بناء الفلسفة المشائية وتفرقت عناصرها وتلقفها رجال الدين وصبغوها بألوان العقائد ، أما في الأندلس فلم يكن حظ الغزالي في أول أمره أحسن من حظ الفلاسفة ، فأعرض الناس عن كتبه ، واحرقوها كما أحرقوا كتب الفلسفة . قال ابن طملوس :

« ولما امتدت الأيام وصلت الى هذه الجزيرة كتب ابي حامد الغزالي ، فقرعت اسماع الناس بأشياء لم يألفوها ولا عرفوها ، وكلام خرج به عن معتادهم من مسائل الصوفية وغيرهم من سائر الطوائف الذين لم يعتد أهل الأندلس مناظرتهم ولا محاورتهم ، فبعدت عن قبوله أذهانهم ، ونفرت عنه نفوسهم ، وقالوا ان كان في الدنيا كفر وزندقة ، فهذا الذي في كتب الغزالي هو الكفر والزندقة ، وأجمعوا على ذلك واجتمعوا للأمير إذ ذاك ، وحملوه على أن يأمر بحرق هذه الكتب المنسوبة الى الضلال ، بزعمهم ، وعزموا عليه في ذلك حتى أجابهم الى ما سألوه منه ، فأحرقت كتب الغزالي وهم لا يعرفون ما فيها ، وخاطب الأمير اذ ذاك جميع أهل مملكته يأمرهم بحرقها ، ويعلمهم أنه هو الذي أدى اليه نظر العلماء ، وقرئت مخاطبته على المنابر ، وشنع الأمر بذلك تشنيعاً عظيماً . وامتحن من كان عنده منها كتاب ، وخاف كل انسان على نفسه أن يرمى بأنه قرأ منها كتاباً أو اقتناه ، وكان في ذلك من الوعيد ما لا مزيد عليه ... ثم لم تكن تمتد الأيام الا قليلاً حتى جاء الله بالامام المهدي رضي الله عنه ، فبان به للناس ما كانوا قد تحيروا فيه ، وندب الناس الى قراءة كتب الغزالي رحمه الله ، وعرف من مذهبه انه يوافقه ، فأخذ الناس في قراءتها واعجبوا بها ، وبما رأوا

فيها من جودة النظام والترتيب الذي لم يروا مثله قط في تأليف ، ولم يبق في هذه الجهات من لم يغلب عليه حب كتب الغزالي الا من غلب عليه افراط الجمود ، من غلاة المقلدين ، فصارت قراءتها شرعاً وديناً بعد ان كانت كفراً وزندقة[1]» .
فالناس في الاندلس قد عاملوا الغزالي بما عامل به الفلاسفة في الشرق فكفروه في أول أمرهم كما كفر الفلاسفة ، وبدّعوه كما بدّعهم . ثم لما حمي كتبه أمير راجت بضاعتها وانتشرت . ولم يوفق ابن رشد رغم حملته على الغزالي في كتاب تهافت التهافت الى منع الفلسفة من الانقراض ، فقد اتهم الغزالي بانه انما كفر الفلاسفة ارضاء للعامة ، وسبقه ابن الطفيل الى ذلك فقال ان الغزالي يربط في موضع ويحل في آخر ، ويكفر بأشياء ثم ينتحلها . ومهما يكن من أمر فان العامة قد أحرقوا كتب ابن رشد كما أحرقوا كتب الغزالي ، واعراضهم عن كتب الغزالي في أول الأمر ثم استحسانهم اياها يدل على ما جرى اليه أمرهم ، في كل قديم وحديث . فهم ينكرون أولاً ما يألفونه ويستحسنونه آخراً . ولو لم يخب مصباح الحضارة العربية تحت تأثير العناصر الأجنبية التي سيطرت على الاسلام لأدّى تهالك الناس في استحسان آراء الغزالي الى ظهور مفكر جديد بعده ، لا يكتفي برد اعتراضاته على مذهب آرسطو كما فعل ابن رشد ، بل يرجع الى أصول مذهبه الصوفي ويفندها ، ويستبدل بها غيرها . إن قانون التضاد الذي اشرنا اليه سابقاً لا يعمل عمله في تطور الأفكار الا اذا كانت الأفكار حرة طليقة . فاذا انطلقت الأفكار في فضاء الحرية دعا بعضها بعضاً . ولكنها اذا حبست في طبقات من حجب التقليد والتعصب الأعمى نضب ماؤها وانطفأ نورها .

جميل صليبا

---

(١) ابن طملوس ، كتاب المدخل لصناعة المنطق ، مجريط ، ١٩١٦ ، ص ١١ ـ ١٣ .

آل بكتكين ـ مظفر الدين كوكبري

أو

امارة اربل في عهدهم

(٥٢٢ هـ — ٦٣٠ هـ)

— ٣ —

٤ — نوابه

لا تظهر ادارة زين الدين علي كوجك واضحة في اربل ، وانما تتعين بذكر نوابه ، وما قاموا به من أعمال ، فلا ريب أنهم تابعون لأمره ، منقادون لتوجيهه . وهو في الحقيقة المؤسس لهذه الامارة ، كانت اقطاعه ، فتمكن أخلافه فيهـا . ولا يمتّ بنسبٍ الى الدولة الزنكية ، وانما هو من مماليك آق سنقر والد مؤسسها ، وقد أرضت ادارته الدولة والأمة . وكان قد ولي اربل كثيرون ، فلم يعرف لهم اسم ، ولكنه ذاع صيته ، وانتشر خبره . فقام بما يمكن القيام به ، فعرفت اربل بعد ان كانت خاملة مهملة . فقضى آخر أيامه فيها . وكان فيها مرقده الأخير . وهؤلاء نوابه :

١ — سرفتكين الزيني نائب اربل :

كان زين الدين علي كوجك متصلاً بالموصل اتصالاً غير منفك ، فيعين نواباً عنه في اربل . وان المترجم أحدهم . كان أرمنياً فأسلم ، وربي تربية صالحة فأعتقه سيده ، وتقدم عنده ، واعتمد عليه في كثير من أموره ، واستنابه في اربل من تاريخ فتحها سنة ٥٢٣ هـ .

وللتربية الاسلامية أثرها فيه ، فكان من الأخيار ، وادارته قوية ، أرضت الأهلين كما كانت أعمال سيده كذلك . ومن أعماله المبرورة :

١ — بنى مساجد كثيرة في اربل وغيرها .

٢ — بنى مدرسة القلعة سنة ٥٣٣ .

٣ — بنى سور مدينة فيد التي في طريق مكة من جهة بغداد .

أثر آثاراً صالحة أمثال ما ذكر . وكل ما فعله من ماله . ولا شك انه تمشى ورغبة زين الدين وظهرت مكانة زين الدين بنائبه المذكور .

توفي في شهر رمضان سنة ٥٥٩ هـ(١) .

٢ — أبو منصور مجاهد الدين قايماز الزيني (نائب اربل) :

هو ابن عبد الله الملقب مجاهد الدين الخادم . كان عتيق زين الدين علي كوچك ، وأصله من سجستان ، أخذ صغيراً ، وكان أبيض اللون ، نسب الى زين الدين فقيل (الزيني) . وكانت مخائل النجابة لائحة عليه ، فقدمه معتقه وجعله أتابك أولاده ، وفوّض اليه أمور اربل نيابة عنه في ٥ رمضان سنة ٥٥٩ هـ — ١١٦٤ م أي صار نائب اربل اثر وفاة سرفتكين مباشرة وبعد وفاة زين الدين علي كوچك سنة ٥٦٣ هـ — ١١٦٨ م خلفه ابنه مظفر الدين كوكبري فكان نائبه .

ثم خلع مظفر الدين من الامارة ، وولي أخوه الأصغر زين الدين يوسف اينالتكين ، فكان نائبه ايضاً . ودام الى سنة ٥٧١ هـ . وفي هذا التاريخ انتقل الى الموصل ، وتولى أمورها في ذي الحجة سنة ٥٧١ هـ — ١١٧٦ م ، صار نائب الموصل في دولة الأتابكة ، فراسل الملوك وراسلوه ، وكان يبلغ منهم بكتبه ما لم يبلغ سواه . وكان منشيه (مجد الدين ابن الأثير) ، فوض اليه الأتابك سيف الدين غازي بن مودود (٥٦٥ هـ — ٥٧٦ هـ) الحكم في بلاده ، لما رآه من اخلاصه بحسن مقاصده ، واعتمد عليه في جميع أحواله .

ومن المهم ذكره هنا ان مجاهد الدين هذا كان يحمل اكثر أموال اربل أيام نيابته ، يقدمها الى الأتابك . وبهذا تقرب الى أتابكة الموصل ، وجلب النفرة

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٣٤١ .

والنقمة عليه من الاربليين . ومن جهة أخرى انه أثر اثاراً جميلة في الموصل ، ولم يكن لاربل نصيب منها .

وفي أيام الأتابك عز الدين مسعود (٥٧٦ هـ — ٥٨٩ هـ) قبض عليه في جمادى الأولى سنة ٥٧٩ هـ — ١١٨٣ م وبقي مقبوضاً عليه عشرة أشهر ، ثم أطلقه وأعاده الى ما كان عليه [1] . وتوفي في ربيع الأول سنة ٥٩٥ — ١١٩٩ م .

هذا . ولما كان انتقاله الى الموصل سنة ٥٧١ هـ فهذا بعد مبدأ تولي أبي المظفر زين الدين يوسف اينالتكين الأمور بنفسه ، وقيامه بأعباء الحكم مباشرة وقد علمنا أن نيابة مجاهد الدين قايماز بدأت من وفاة سرفتكين الزيني ، ودامت الى التاريخ المذكور وقد انتقل الى الموصل . وكان في أيام زين الدين علي كوجك قد ظهر بمظهر المخلص ، وبعد وفاته استبد بالحكم الا انه أخلص للأتابكة حتى صار نائب الموصل . وفي اربل حدثت بينه وبين زين الدين يوسف مشادة ، كما ان فعلته مع كوكبري غير مجهولة .

قال ابن الأثير في الكامل : « كان عاقلاً أديباً خيراً فاضلاً يعرف الفقه على مذهب أبي حنيفة ويحفظ من التاريخ والأشعار والحكايات شيئاً كثيراً . » اه [2]

وتفصيل حياته في أتابكة الموصل ، وفي الكامل ، وفي كتاب الروضتين وابن خلكان ومؤلفات عديدة .

٥ — امارة مظفر الدين كوكبري الاولى

هذه الامارة قصيرة الأجل ، قليلة المدة . وكان أبو منصور قايماز أرضى سيده زين الدين علي كوجك حتى نال نيابة اربل ، وجعله اتابك أولاده ، وبعد وفاته تمكن من نزع الامارة من ابنه كوكبري . قال ابن خلكان في وفياته : « لما توفي زين الدين علي كوجك ولي موضعه ولده مظفر الدين كوكبري ،

---

(١) الكامل لابن الأثير ج ١١ ص ٢٠٣ وهو الصواب بخلاف ما ذكر في ابن خلكان ج ١ ص ٦٠٩ . وهناك ترجمته . (٢) الكامل لابن الاثير ج ١٢ ص ٦٤ وهناك تفصيل حياته .

وعمره ١٤ سنة وكان اتابكه مجاهد الدين قايماز ، فأقام مدة ، ثم تعصب مجاهد الدين عليه ، وكتب محضراً انه ليس أهلاً لذلك ، وشاور الديوان العزيز في أمره واعتقله ، وأقام أخاه زين الدين أبا المظفر يوسف مكانه ، وكان أصغر منه ، ثم أخرج مظفر الدين من البلاد ، فتوجه الى بغداد ، فلم يحصل له بها مقصوده ، فانتقل الى الموصل ومالكها يومئذ سيف الدين غازي بن مودود ... ثم اتصل بخدمة السلطان صلاح الدين وحظي عنده الخ » اهـ[1] .

ومن هذا نعلم ان قايماز كان قد تحامل عليه بل تعصب وان ذهابه الى الموصل يوافق أيام سيف الدين غازي بن مودود (٥٦٥ هـ — ٥٧٦ هـ) أي انه من حين علم بالأتابك الجديد مال اليه مستنصراً به بعد ان لم ينل قبولاً من بغداد .

وقال ابن الأثير في كامله : « ولي — قايماز — اربل سنة ٥٥٩ هـ فلما مات زين الدين علي كوجك سنة ٥٦٣ هـ بقي هو الحاكم فيها ، ومعه من يختار من أولاد زين الدين ليس لواحد منهم معه حكم . » اهـ[2]

ومن هذا نعلم أن قايماز قد تحامل عليه ، وأهانه بالحبس ، وطرده ، فذهب الى بغداد فخاب مسعاه ، ولما سمع بأن سيف الدين غازي بن مودود قد صار أتابكاً مال اليه مستنصراً به بعد ان خذل من دار الخلافة وكان يظن ان الخليفة يتخذه وسيلة للتدخل في أمور اربل ، فلم يخيب سيف الدين أمله ...

٦ — حياة مظفر الدين كوكبري خارج اربل

ان طرد مظفر الدين من اربل بعد حبسه واهانته وتعصب مجاهد الدين قايماز عليه لم يفل من عزمه ، فيمضي الى دار الخلافة ، ثم الى الموصل الى الأتابك سيف الدين غازي . وكان قد ولي الموصل بعد الحادث الذي جرى عليه ، فاتخذه وسيلة للذهاب اليه . وهذا الأتابك لم يرده خائباً ، واقطعه حران . ودامت امارته عليها مدة . وهو تابع للأتابكة منقاد لأوامرهم .

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٦٣٠ طبعة بولاق . (٢) الكامل لابن الاثير ج ٢ ص ٦١ .

وفي سنة ٥٧١ صار مجاهد الدين قايماز نائب الموصل ، وولي أمر الاتابكة بالنيابة ، فكان ذلك داعية التذمر من ادارة الاتابكة لما كان بينه وبين مجاهد الدين من العداء والنفرة من معاملته .

ولم يتعرض المؤرخون لذكره الا قليلاً . وكان أهل الاقطاع لا يذكرون حتى يظهر ما يستوجب . كان يقوم بالخدمات المطلوبة بلا تردد . ومن أهم الحوادث ان الشادة بين الأتابكة وبين السلطان صلاح الدين قد بلغت منتهاها ، ففي شوال سنة ٥٧١ هـ — ١١٧٦ م جرى مصاف بينهما ، فانكسرت ميسرة السلطان صلاح الدين بمظفر الدين كوكبري ، وكان مظفر الدين في هذه المعركة في ميمنة الأتابك سيف الدين ، فانتصر من جهته . ولما رأى السلطان صلاح الدين تكون الخطر حمل بنفسه وجازف بقوته ، فانكسر سيف الدين ومن معه كسرة هائلة ، وتركوا أثقالهم ، وخيامهم وما نجحت المفاوضات قبل هذه المعركة في أمر الصلح لتمند سيف الدين وأمله في القضاء على صلاح الدين ، اذ انه في حالته لم يتحمل انتصارات السلطان صلاح الدين ، فخذل خذلاناً عظيماً وكانت هذه الواقعة قاصمة الظهر .

والى هذه الأيام كان مظفر الدين موالياً للأتابكة ، ومثله زين الدين يوسف أخوه . ولكنه بتولي مجاهد الدين قايماز الأمر في هذه السنة (نيابة الموصل) ، وتسلطه على دولة الأتابكة لم يبد شيئاً ، كتم غيظه ، ولم يجاهر بالخلاف عليه وبعد وفاة الملك الصالح بن نور الدين الشهيد في ١٣ رجب سنة ٥٧٧ حدث ماحدث بين الأتابكة وصلاح الدين وكان الأتابك عز الدين وصاحب أمره مجاهد الدين أيضاً ، فلم يعتد بأمراء الشام ، ونعته المؤرخون بأنه كان ضيق العطن ، فرحل الأتابك من حلب وكان قد أقام بها الى ١٦ شوال من هذه السنة ، حتى أتى الرقة ، ولقي الأتابك أخاه عماد الدين فاستقر بينهما مقايضة حلب بسنجار لاعتقاد الأتابك انه لا يمكنه حفظ الشام مع الموصل لحاجته الى ملازمة الشام لأجل السلطان صلاح الدين ، فتسلم عماد الدين حلب في ١٣ المحرم سنة ٥٧٨ هـ وأرسل عز الدين من تسلم سنجار .

وبلغ السلطان صلاح الدين أن رسل الموصل وصلوا الى الافرنج يحثونهم على قتال صلاح الدين ، فعلم أنهم نكثوا اليمين ، فقصد الأتابكة لجمع كلمة العساكر الاسلامية على العدو ، فأخذ في التأهب لذلك وقد زادت حوادث الأتابكة في أشغاله . . . ولما بلغ عماد الدين ذلك سير الى الموصل يشعر بالخبر ويستحث العساكر ، وسار السلطان صلاح الدين حتى نزل على حلب ، فكان الأتابكة شغله الشاغل ، لأنهم صدوه عن حرب الصليبيين وصاروا عليه مع الافرنج . وكان وصوله الى حلب في ١٨ جمادى الأولى سنة ٥٧٨ هـ فأقام ثلاثة أيام ثم رحل في ٢١ منه يطلب الغزاة .

وفي هذه الأثناء استقر الحال بينه وبين مظفر الدين كوكبري ، وكان آنئذ صاحب حران . استوحش من أتابكة الموصل ، وخاف من مجاهد الدين قايماز ، فالتجأ الى السلطان صلاح الدين ، وعبر الى قاطع الفرات ، وقوى عزم السلطان على قصد بلاد الأتابكة ، وسهل أمرها عنده ، ودخل الرها والرقة ونصيبين . . . فكان هذا التاريخ زمن اتصال مظفر الدين بالسلطان صلاح الدين وهو جمادى الأولى سنة ٥٧٨ هـ — ١١٨٢ م . وكان قد حثه على فتح الموصل الا انه لم يوفق ، ورجع عنها لأسباب اقتضتها الأوضاع الحربية ، لئلا يترك خلفه خالياً . . . وكفاه منهم ان أرعبهم ، وجعلهم في ريب من أمرهم ، وليس لهم قوة المهاجمة .

وفي سنة ٥٧٩ هـ توسط رسول الخليفة وآخرون معه في الصلح فذهبوا الى صلاح الدين ودخلوا دمشق في ١١ ذي القعدة سنة ٥٧٩ هـ — ١١٨٤ م فلم يتفق الأمر . فان صلاح الدين اشترط في الصلح ان يكون صاحبا اربل والجزيرة على خيرتها في الانتماء اليه أو الى الموصل وهذا دليل على النفرة من مجاهد الدين قايماز قبل هذا التاريخ . وكان صاحب اربل زين الدين يوسف أخو مظفر الدين كوكبري قد حدث بينه وبين مجاهد الدين ما حدث من وحشة بعينها كانت موجودة بين مظفر الدين وبينه ، ثم كان القبض على مجاهد الدين أيام الأتابك عز الدين وكان نائبه ، فأدى ذلك الى أن تخرج اربل وغيرها من يده لحرص الأمراء على مطالبهم الخاصة وذلك باقصاء مجاهد الدين وضياع امارات عديدة .

وفي ذي الحجة من هذه السنة ورد على صلاح الدين رسول اربل يحلف له ، فتوثقت الالفة وحصل الاتفاق ، فأمن بهذا غائلة صاحب الموصل ولم يكن الأمر مجهولاً في الموصل فقد شعروا به قبل ان يكون موضوع البحث . ففي ١٤ جمادى الآخرة سنة ٥٨٠ ه وصلت رسل زين الدين يوسف صاحب اربل مستصرخاً بالسلطان صلاح الدين يخبره ان عسكر الموصل وعسكر قزل بن يلدكز صاحب ديار العجم ومجاهد الدين قايماز قد نزلوا على اربل ، ونهبوا وأحرقوا في قراها فنصر عليهم وكسرهم . وكان أملهم أن يقصدوا عليه فخابوا . ومن هذا يعلم انهم وقفوا على جلية الأمر فلم تخف خافية عليهم ، فقاموا بما قاموا به .

ولما سمع صلاح الدين ذلك رحل من دمشق يطلب بلاد الموصل فتقدم الى العساكر فتبعته ، وسار حتى أتى حران والتقى مع مظفر الدين بالبيرة في ١٢ المحرم سنة ٥٨١ ه ، ووصل السلطان الى حران في ٢٢ صفر من السنة المذكورة وفي ٢٦ منه قبض على مظفر الدين بن زين الدين لشيء كان قد جرى منه ، وحديث كان قد بلغه عنه رسول فلم يقف عليه وانكره ، فأخذ منه قلعة حران والرها ، ثم أقام في الاعتقال تأديباً الى مستهل ربيع الأول ، ثم خلع عليه وطيب قلبه ، وأعاد اليه قلعة حران ودياره التي كانت بيده ، وأعاده الى قانونه في الاكرام والاحترام ، ولم يتخلف له سوى قلعة الرها ، ووعده بها . وهذه الحادثة اشارة الى ان السلطان داخله الشبهة في أنه فاوض الموصل على اربل أو فاوضته الموصل عليها .

ثم رحل صلاح الدين في ٣ ربيع الأول من السنة الى راس العين ، ووصل اليه رسول قليج ارسلان يخبره ان ملوك الشرق بأسرهم قد اتفقت كلمتهم على قصد السلطان ان لم يبعد عن الموصل وماردين ، وانهم على عزم ضرب المصاف معه ان اصر على ذلك . ولكنه بعد ان قام بأعمال عدة رحل نحو الموصل في ١١ منه حتى نزل موضعاً يعرف بالاسماعيليات قريب الموصل بحيث يصل من العسكر كل يوم نوبة جديدة تحاصر الموصل ... وفي هذه الأثناء في ربيع

الآخر سنة ٥٨١ توفي صاحب خلاط ، فطمع السلطان في خلاط وارتحل عن الموصل متوجهاً نحوها .

وبينما أمر الموصل وصاحب اربل ، فان صلاح الدين قد صالح المواصلة وكان سبب ذلك ان الأتابك عز الدين صاحب الموصل سير ابن شداد الى الخليفة يستنجده فلم تحصل منه زبدة . ثم بلغهم ان صلاح الدين قد مرض فاتخذوا ذلك فرصة ، فبعثوا بالرسل اليه . فتم ما بينهما وبينه في ذي الحجة سنة ٥٨١ هـ[1] .

كل هذه تعين توجه علاقات صاحب اربل نحو صلاح الدين . وهكذا حالة مظفر الدين ... ودام الصلح بين الأتابكة وصلاح الدين الى تاريخ وفاته بل ان المواصلة اشتركوا فعلاً في حروب الصليبيين في المصاف الأعظم في عكا ، وهكذا مظفر الدين بن زين الدين قد اشترك بجحفله ...[2] ومن اهم ما اشترك فيه مظفر الدين (وقعة حطين) وقد أبدى فيها بسالة تذكر . وقف هو وتقي الدين صاحب حماه وانكسر العسكر بأسره . ثم لما سمعوا بوقوفهما تراجعوا حتى كانت النصرة للمسلمين وفتح الله سبحانه عليهم[3] .

وكان في سنة ٥٨٣ هـ قد سار مظفر الدين كوكبري ففتح الناصرة وصفورية وقد وصفها العماد الاصفهاني ببلاغته المعروفة وأطنب في الثناء عليه لرجحه المعركة[4] .

وهكذا كانت له مواقف في سنة ٥٨٤ هـ ذكرها العماد[5] . كما ذكر من أبلى البلاء الحسن ، وخص من قام بمهمة .

نقود مضروبة :

وبينما أن نعين بعض النقود التي عثر عليها ، وكانت باسم الملك الناصر صلاح الدين يوسف ، واسم حسام الدين يولق بن أيل غازي من آل أرتق (٥٨٠ هـ - ٥٩٧ هـ) ضرب عليها اسم (كوكبري بن علي) . وهذه تدل على

(١) سيرة صلاح الدين : ابن شداد ص ٥٧ . (٢) ابن شداد ص ٩٣ .
(٣) ابن خلكان ج ١ ص ٦٢١ (٤) الفتح القسي في الفتح القدسي ص ٢٥ — ٢٦
(٥) الفتح القسي في الفتح القدسي ص ١٠٠

انهـا من ضرب امارته في حرّان وتلك الجهات بعد ان انفصل من الأتابكة أيام حسام الدين يولق من بني ارتق أي في سنة ٥٨٠ هـ أو بعدها حتى سنة ٥٨٦ هـ ، ولم يوجد فيها محل ضرب ولا تاريخه . ولا يصح ان يقال انها من ضرب اربل كما وهم الأستاذ (اسماعيل غالب) في كتابه (المسكوكات التركمانية) من قسم (المسكوكات الاسلامية) ، فلم تكن لهذا النقد علاقة باربل وانما ضرب أيام حكمه على حرّان والرها وفيه انه على وفاق مع الدولتين من آل ارتق وآل أيوب ... [1]

وهذا النقد من نحاس ، ولما كان خاليًا من التاريخ ومحل الضرب فانه ضرب في أيام مظفر الدين كوكبري من سنة ٥٨٦ — الى سنة ٦٣٠ هـ أي بين هذين التاريخين وليس هذا بصواب . في هذا التاريخ لم تكن علاقة لآل أرتق باربل ، وانما العلاقة بالسلطان صلاح الدين وحده ، وبأخلافه ...

ونوضح هذا النقد بايراد المكتوب فيه فقد جاء في صفحة منه تصوير حاكم لابس لامة الحرب في جانب منه ذكر حسام الدين يولق بن ايلغازي وفي الآخر كوكبري بن علي .

وفي الصفحة الأخرى في الوسط الملك الناصر صلاح الدنيا والدين يوسف بن أيوب (وفي الأطراف) محيي دولة أمير المؤمنين .

وفي هذا ما يغني عن الايضاح . ولعل التصوير لمظفر الدين نفسه ، وهو الذي نرجحه ... وان العلاقات بين كوكبري وبين آل أرتق لا تزال مجهولة لم يعينها المؤرخون ، لتعرف جهة الاتصال . وكل ما نعلمه من الاستدلال بالحالة المشهودة ان مظفر الدين كوكبري انفصل عن الموصل ، فولد اتفاقاً بينه وبين آل أرتق كما انه مال إلى صلاح الدين ، وأخلص له في التعاون لحرب الصليبيين ، فتمكنت الألفة ، فاشترك آل ارتق ، وآل أيوب ، في ضرب النقود وكان آل أرتق يقرنون أسماءهم بأسماء آل ايوب .

(١) المسكوكات التركمانية من قسم المسكوكات الاسلامية ص ١٦٠

ولما كان حسام الدين يولق ولي الأمر سنة ٥٨٠ هـ فلا شك ان ضرب النقود جرى في هذا التاريخ أو بعده. وهو محدد بسنة ٥٨٦ هـ لأن كوكبري انفصل من هناك في هذا التاريخ، فعلم ان النقد المضروب كان خلال المدة بين ٥٨٠و٥٨٦ هـ.

وفي سيرة صلاح الدين لابن شداد: «في أواخر ذلك اليوم ـ ٢٨ ربيع الاول سنة ٥٨٦ هـ — ١١٩٠ م ـ قدم ـ الى السلطان صلاح الدين ـ مظفر الدين بن زين الدين جريدة مسارعة للخدمة، ثم عاد الى عسكره في لامة الحرب، فعرضهم السلطان حتى وقف بهم على العدو، وكان ما تقدم عسكر الا يعرضهم ويسيرهم الى العدو، وينزل بهم في خيمته يمد لهم الطعام. وينعم عليهم بما يطيب به قلوبهم اذا كانوا أجانب ثم تضرب خيامهم حيث يأمر، وينزلون بها مكرمين»[1].

ثم جاء أخوه زين الدين يوسف، واستقبله السلطان، وبعد مدة قصيرة مرض فتوفي، فصار مظفر الدين كوكبري مكانه على امارة اربل، وتنازل عما كان بيده من اقطاع الى السلطان صلاح الدين فأنعم بها على الملك المظفر تقي الدين. فتكون مدة مظفر الدين خارج اربل قد دامت الى ٣ شوال سنة ٥٨٦ هـ.

ابو المظفر زين الدين يوسف بنالتكين

(أمارته على اربل) من سنة ٥٦٦ هـ الى سنة ٥٨٦ هـ

ولي زين الدين يوسف بنالتكين بعد اخيه كوكبري. ومدة امارته نحو ٢٠ سنة. ومن الغريب ان المؤرخين لم يذكروا أعماله فيها، كأنها لمحة بصر أو برق خاطف. ولا شك ان سني الوصاية كانت الى سنة ٥٧١ هـ. وهذه ليس له عمل فيها. فاستقل الا انه لم يذكر له حادث مهم خلال هذه المدة من سنة ٥٧١ هـ الى سنة ٥٨٦ هـ.

وبمراجعة حوادث المعاصرين واستنطاق جملة من المؤرخين كتب لنا العثور على بعض الحوادث الغامضة عن أيام امارة زين الدين يوسف فهل كان خامل الذكر

(١) سيرة صلاح الدين لابن شداد ص ١٠٣.

في حين انه استكبر عمل قايماز من جراء ارساله فضلة دخل اربل الى الاتابكة ، واستبداده في الامور ، فتمكن من اخراجه ، او انه قربه الاتابكة اليهم لما رأوا من اخلاصه لهم . وكان المأمول أن يكتب ابن الأثير ، ولكنه أغفل ذلك ، وذكر أعماله المهمة التي تستدعي مدحه واكتفى بها وكان المتوقع ان يكتب المؤرخون الآخرون ، ولم تصل الينا جميع الوثائق التاريخية للعماد الكاتب الاصبهاني ، ولا مخابرات مجد الدين ابن الأثير . فلا تزال الوثائق مطمورة أو ادركها الفناء .

ولم نتوصل الا الى :

١ — واقعة اربل . وهذه زادت في الشادة . أدرك زين الدين يوسف توتر الوضع . ولعل العلاقة ولدها قايماز نفسه . وتفصيل الخبر ان دولة الأتابكة في الموصل كانت تتطلب ما كان يقدمه قايماز أيام نيابته على اربل ، فرأى ذلك أمراً كبيراً وان عددناه السبب في ذهاب قايماز من اربل ، وذهابه الى الموصل ، فلا ينبغي أن تعاد التجربة ...

ولد ذهاب قايماز وتولية نيابة الموصل توتراً بين اربل والموصل ، فلم يشأ زين الدين يوسف ان يحمل الأموال لدولة الأتابكة فأدى ذلك الى النفرة بل يعتبر العامل الأكبر في انفصاله من الموصل ، وشموسه على دولة الأتابكة ، وميله الى صلاح الدين وقد ظهرت قوته ، وعظمت مكانته في كسره قوة الأتابكة الذين تولى أمرهم قايماز وهذه الواقعة قربت أكثر من صلاح الدين بل ان صلاح الدين في رغبة لمن يمد يد المعونة اليه .

كان ذلك في سنة ٥٨٠ هـ — ١١٨٤ م ، وصلت رسل صاحب اربل صلاح الدين في ١٤ جمادى الآخرة من هذه السنة فسار صلاح الدين يطلب بلاد الموصل انتقاماً من هذه الفعلة .

---

٢ — قيامه بمعاونة فعلية لصلاح الدين في حرب الصليبيين ، وظهرت له حوادث أخرى . فلم يهمل أمر المساعدة بالمال والنفوس . وكانت اربل بيد الأتابكة القوية

النتاكة في جروبها ، فخرمها الخرق ، والحرص الزائد دون العقل بل كان عملها طيشاً ، ولذا كانت اقطاعات أميرها زين الدين علي كوجك يقدر ما كان يقوم به من الأعمال ، وهذا ما كان صلاح الدين بترقبه لجلب أمير اربل زين الدين يوسف كما أنه للغرض نفسه قرب اليه مظفر الدين وكان قد نفر دولة الأتابكة في الموصل لأن مدبر أمرها مجاهد الدين قايماز وكان قد طرده من أمارته وامارة أبيه وجعله مشرداً يتطلب استعادة ملكه المنتزع منه .

٣ — وفاته . كانت في أيام جهاده في سبيل الله نصرة للاسلام في الحروب الصليبية . وكان ذلك في ٢٨ رمضان سنة ٥٨٦ هـ — ١١٩٠ م بالناصرة بالقرب من عكا ، ويقال ان المسيح (عليه السلام) ولد بها .

أما حياته في أيام الوصاية فانها لا تذكر ، وانما ذكرها المؤرخون لنائبه قايماز ، والأيام الأخرى في نفرته من قايماز ، وممن التزم جانبه من الأتابكة فأدى الى انفصاله عن دولة الأتابكة واتصاله بالسلطان صلاح الدين ، ثم وفاته في سبيل الله مجاهداً ...

نعته في الفتح القدسي بقوله : «كان جاراً للكتائب ، باراً بالأباعد والاقارب ... فمرضت الأيام بمرضه أياماً ، وتلهبت القلوب منا للتلهف عليه وقد أمست مراضاً ضراماً ، وعدته بطبيب السلطان فلم يأنس به ، ولم يسكن الى طبه ، لما كان يعلم من منافسة أخيه مظفر الدين في موضعه ، وانه ينتعش بصرعه ، فاكتفى بصاحب له يطبه ، يوافقه على ما يحبه ، وهو جاهل بمزاجه ، ذاهل عن علاجه ، فشب الحمام في حمى شبابه ناره ، وأذوى غصنه غداة قلنا ما أزهى أزهاره ، وما أنضر نضاره ... ولزمه أخوه مظفر الدين حتى فارقه ، وما ظهر عليه الغم حتى قيل انه سره موته ووافقه ، وقصدناه معزين على ظن انه جلس للعزاء ، فاذا هو في مثل يوم الهناء ، وهو في خيمة ضربها في مخيم أخيه ، واحتاط على جميع ما يحويه ، ووكل بالامراء أصحاب القلاع ليسلموها ، وخشي ان يعصوا فيها اذا رجعوا اليها ويحموها ، وخدم

بخمسين الف دينار حتى اخذ اربل وبلادها ، ونزل عن حران والرها وسميساط والبلاد التي معه وأعادها ، وزاده السلطان شهرزور ، وأحكم تسييره الأسباب والأمور ، فاستمهل الى حين وصول الملك المظفر تقي الدين لينزل في منزلته بجنده وصحبه الميامين، فوصل يوم الأحد ٣ شوال سنة ٥٨٦ هـ فخلى بعد العطل الأحوال ...» اهـ[1]

وجاء في سيرة صلاح الدين لابن شداد : «ثم كان وصول زين الدين صاحب اربل في العشر الأواخر من جمادى الأولى (سنة ٥٨٦ هـ — ١١٩٠ م) وهو زين الدين يوسف بن علي بن بكتكين ، قدم بعسكر حسن وتجمل جميل ، فاحترمه السلطان وأكرمه وأنزله في خيمته ، وأكرم ضيافته ، وأمر بضرب خيمته الى جانب خيمة أخيه مظفر الدين .» اهـ[2]

أما أخوه فقد جاء الى صلاح الدين بتجريدة في ٢٨ ربيع الأول سنة ٥٨٦هـ — ١١٩٠م.

وعن مرضه ووفاته قال : «وفي ذلك اليوم - ٩ ارمضان سنة ٥٨٦هـ - ١١٩٠م - مرض زين الدين يوسف بن زين الدين صاحب اربل مرضاً شديداً بحميين مختلفتي الأوقات واستأذن في الرواح فلم يؤذن له ، فاستأذن في الانتقال الى الناصرة فأذن له في ذلك اليوم ، وأقام بالناصرة أياماً عديدة يمرض نفسه ، فاشتد به المرض الى ليلة الثلاثاء ٢٨ رمضان وتوفي رحمه الله ، وعنده أخوه مظفر الدين يشاهده وحزن الناس عليه لمكان شبابه وغربته ، وأنعم السلطان على أخيه مظفر الدين ببلده ، واستنزله عن بلاده التي كانت في يده وهي حرّان والرها وما يتبعها من البلاد والأعمال ، وضم اليه بلد شهرزور أيضاً ، واستدعى الملك المظفر تقي الدين عمر ابن أخيه شاهنشاه ليكون نازلاً مكانه جابراً لخلل غيبته ، وأقام مظفر الدين في نظرة قدوم تقي الدين ، ولما كان ضحاء نهار ٣ شوال سنة ٥٨٦ قدم وعاد صحبة معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي وهو صاحب الجزيرة إذ ذاك ...» اهـ[3]

---

(١) الفتح القسي في الفتح القدسي ص ٢١٨ . (٢) سيرة صلاح الدين لابن شداد ص ١٠٦

(٣) سيرة صلاح الدين لابن شداد ص ١٢٩ وابن أبي عذية ج ٥ ص ٧٩ وابن خلكان في ترجمة للموفق . وهناك قصيدة مدحه بها ج ٣ ص ٣٤ .

مظفر الدين كوكبري

امارته الثانية (٥٨٦ هـ : ٦٣٠ هـ)

من أعظم (آل بكتكين)، وأكبر من اشتهر من رجالها. وجاء لقبه في النقود (ملك الأمراء) مظفر الدين أبو سعيد كوكبري. لم يسبقه أحد من أسرته في فضل، وان كانوا ذوي مكانة لا تنكر، ولا شاركه في ما قام به شارك في مكرمة وانعام وان كان لا يصح ان تهمل قدرتهم على الادارة وقوتهم في الحروب، بل قد تتضاءل عنه عظمة الملوك، لا في السفك والنهب، بل في اعمال البر والخير، وما يعلي شأن المملكة ويقوي ثقافتها وآدابها. .

ويعد بحق رجل التاريخ لا يزال ذكره منتشراً في الأوساط العلمية، وفي التاريخ السياسي والأدبي والديني: أرضى صنوف الجماعات، ووجه المملكة توجيهاً حقاً. لم يطوح بها في المآزق الحرجة، ولم يكن من الفاتحين السفاكين المغازفين، أو العتاة الجبارين. كان الفذ من نوعه بين أمراء الشرق، أحيا اربل حياة طيبة، وأنعشها وأعلى مدار كيانها بما لا مزيد عليه في امارة لم يكن لها من الشأن قبل هذه الأسرة ما تستحق ان تذكر به...

قام بادارة حقة، وبأعمال سياسية مقبولة معتدلة، ومكن من ثقافة لائقة وراعى الأمور الدينية، والأخلاق القويمة، فكان لتنظيمه أثره، ولادارة ماليته وجيشه المكانة الفعالة في الترتيب المرضي بين عوامل متنوعة، متنازعة الأهواء، فهو محاط بدولة الأتابكة، وبالخلافة، ودولة الأيوبيين، أوقف المجاورين عند حدودهم، وهم يتحفزون للوثوب، ويتأهبون للغنيمة، فتمكن بحكمته وحسن سياسته، أن يضرب بعضهم ببعض، يتفق مع هذه مرة، ومع تلك أخرى، ويداري الخلافة.

كان في أهبة من الطوارئ، لم يستطع أن يتحكم به أحد، ولم يفتر أو يطش، بل استخدم القوة ولم يطوح بها، وآماله مصروفة للتفاهم لا للحرب في حين ان قوته لا يستهان بها، فيهدد بها الدول الأخرى، ولا يركن إلى المشادة. تمكن من اعلاء شأن هذه الامارة، فأبقى لها حسن السمعة، ولم يكن كملوك مضوا غير

مأسوف عليهم . ذهبت أعمالهم هباء ، أو كانت محل الاعتبار والسخط ، وذكراها ذكرى الجبابرة السفاكين . كانت حياته بنشاط كبير ، ولم تكن خاملة مهملة .

تبتدئ حياته في اربل من تاريخ ذهابه من عند السلطان صلاح الدين بعد وفاة اخيه ، وتنازله عن بلاده ، وطلب العودة الى اربل والاكتفاء بها ، فذهب اليها في ٣ شوال سنة ٥٨٦ هـ .

ظهرت مواهبه ، وبدت أعماله المستقلة ، وظل على ولاء صلاح الدين الى ان توفي ، ثم والى الملك العادل بالوجه المذكور . وكانت العلاقة بالاتابكية قد قطعت من أيام اخيه زين الدين يوسف بنالتكين ومالت الى الدولة الايوبية وصلته بها كانت قبل أخيه .

النقود المضروبة في أيامه

وهذه وصل الينا أقدمها ، ولعلها أول ماضرب . وهو النقد المؤرخ في سنة ٥٨٧هـ ، فان مجيئه الى اربل كان في ٣ شوال سنة ٥٨٦ هـ — ١١٩٠ م ولا شك انه بعد وصوله اليها لم يستطع ان يقوم بالضرب في تلك السنة التي دخلها أي لم اشاهد له في هذه السنة نقداً مضروباً ، وانما شوهد هذا النقد وجاء فيه ذكر الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب مقروناً باسمه (كوكبري بن علي) .

ولا شك انه كان على ولاء هذا السلطان فذكر اسمه في صفحة ، والخليفة الناصر لدين الله امير المؤمنين ، وولي عهده عدة الدنيا والدين أبا نصر محمداً في الصفحة الأخرى . مضى كوكبري على ضرب النقود مصرحاً باسم الملوك من آل أيوب الى أيام الملك الأشرف ابي الفتح موسى بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر الأيوبي ، ففي سنة ٦٢٧ هـ من أيامه شعر باتفاق كان بينه وبين بدر الدين لؤلؤ للقضاء على امارة اربل ، فمال الى الخليفة المستنصر بالله ، ولكننا لم نقف على نقود له في هذه السنة ، ولا السنين التي بعدها .

كان الأمير كوكبري قد ذكر في نقوده السلطان صلاح الدين ، والملك العادل ، والملك الكامل الى تاريخ الانفصال من الأيوبيين .

يتبع : (بغداد) عباس العزاوي

كنز من كنوز الجاحظ

« أربع رسائل من رسائله عثر عليها حديثاً »

أصبحت بلاغة الجاحظ وعبقريته وتفوقه على غيره في ابتكار المعاني وموضوعات الكتابة على اختلاف انواعها — أمراً متعالماً مشهوراً ، كما أن الحديث عنها يكاد يصبح مملولاً مأجوماً . فلم تبق حاجة للقراء في هذا وانما الحاجة ماسة الى وصف آثاره ، وما اشتملت عليه من مواطن للحسن والابداع ، أو مواضع للمؤاخذة والانتقاد . وهناك أمر آخر له خطره في خدمة آثار الجاحظ : ذلك أن الأغلاط التي تقع فيها ليست كالأغلاط التي تقع في آثار غيره : لأن آثاره هو تقرأ مراراً . وجمله وتعابيره تعاد تكراراً : فاذا كان ثمَّ خطأ علقه الذهن وأشربته النفس . وخاصةً نفوس الناشئين والأحداث . فأصبح من الواجب تتبع ما يُنشر من كتابات الجاحظ جملة جملة . وتفليتها فقرة فقرة . والتنبيه الى ما عساه يكون وقع فيهـا من خطأ فيصحح . أو تحريف فيقوّم . ويشار الى الصواب فيها . أو ما يقرب من الصواب .

والمطوّلات من مصنفات الجاحظ إن كادت تعدُّ وتحصى ، فإن رسائله وهي القصار من آثاره لا تكاد تعدّ . أو ينفد لها مدّ . وترانا من وقت الى آخر نسمع أنه عُثر على جديد من أخباره . أو طريف من رسائله وآثاره . من ذلك أربع رسائل عثر عليها المستشرق العلامة (پاول كراوس) ضمن مجموعة من رسائله (أي رسائل الجاحظ) محفوظة في مكتبة (الداماد ابراهيم باشا) وقد صحح (كراوس) هذه الرسائل الأربع وعلق عليها وحقق ألفاظها جهد طاقته وطاقة رفيقه في العمل الأستاذ (محمد طه الحاجري) وبعد ان عارضاها بنسخ منها في مصادر أخرى طبعاها في مطبعة (لجنة التأليف والترجمة والنشر) في القاهرة سنة ١٩٤٣ م . وهذه عنواناتها :

(١) المعاد والمعاش

(٢) كتمان السر وحفظ اللسان

(٣) الجد والهزل

(٤) فصل ما بين العداوة والحسد

وقد كان الأستاذ (كراوس) أهدى الي وانا في القاهرة مجموعة هذه النسخ: فإذا هو يقول في مقدمته لها معترفاً ببقاء غوامض فيها: (وما يزال أملنا كبيراً في أن نجد من نقد الناقدين ماعسى أن يجلو هذه المواضع المغشاة فيها) فعلمت أن الناشر الفاضل على أكمل ما يكون من أخلاق العلماء. وأنه لا معنى لقبول هديته إلا العمل بأمنيته. فأساعده على رفع الغشاوة عن بعض ما في الفاظ هذه الرسائل من تحريف أو تصحيف.

(وما الكتب إلا كالضيوف لحقها بأن تتلقى بالقبول وأن تقرا)

وأزيد على ما قاله هذا الشاعر: إن من حقها ايضاً أن تخدم وتكرم. بتصحيح أغلاطها. وتقويم اعوجاجها. وإزالة الغموض إن وجد عنها. فتكون الفائدة منها أتم. والانتفاع بها أكمل.

الرسالة الأولى

وقد عثر الى اليوم من رسائل الجاحظ وقصار آثاره على عشرين رسالة طبع منها احدى[1] عشرة رسالة في مصر وثلاث رسائل في ليدن ثم ثلاث في مصر وهي التي نشرها (فنكل) سنة ١٣٤٤ هـ (١٩٢٥ م) وأخيراً ثلاث الرسائل التي ظفر بها الأستاذ (كراوس).

قلنا إن عنوان الرسالة الأولى منها (المعاد والمعاش: في الأدب وتدبير الناس ومعاملاتهم) وقد بعث الجاحظ بهذه الرسالة إلى (أبي الوليد محمد بن أحمد بن ابي دؤاد). ومن مواضع العجب أن مجموعة مكتبة (الداماد) التي وجدت فيها هذه الرسالة بالعنوان المذكور احتوت على الرسالة نفسها لكن بعنوان

(١) نشرها السيد الساسي سنة ١٣٢٤ هـ ثم أعاد طبعها مع زيادة ونقصان السيد السندوبي (١٣٥٢ هـ ١٩٣٣ م)

آخر ، ورواية أخرى ، اما العنوان الآخر فهو : (الأخلاق المحمودة والأخلاق المذمومة كتبها الى محمد بن عبد الملك) (وهو المعروف بابن الزيات وزير المعتصم) ولعل السبب في هذا الاختلاف ان النسخة الأصلية المروية عن الجاحظ قد أغفل فيها اسمها واسم المخاطب بها . فرجح أحد رواة الأدب أن المخاطب بهذه النسخة هو ابو الوليد محمد المذكور واختار لها اسم (المعاد والمعاش) أما الراوي الآخر فرجح ان يكون المخاطب بها (ابن الزيات) وسماها (الأخلاق المحمودة والأخلاق المذمومة) . واخذ الرواة من يومئذ يتداولون النسختين بالعنوانين المختلفين . وكان أحد أولئك الرواة يرويها بسند وتعابير وبعض ألفاظ غير ما يرويها به الآخر . وهذا ما جملهم يقولون إن للرسالتين روايتين .

والرجلان اللذان اختلف الرواة في نسبة الخطاب اليهما في الرسالة كانا من أشهر رجالات العلم والحكم في عصر الجاحظ : كان احدهما قاضياً ، والآخر وزيراً ، وكان للجاحظ اتصال بهما . ودالّة عليهما . يُعرف ذلك من التأمل في الأسلوب وطريقة الخطاب الذي كان يوجهه اليهما في رسائله . وتوجد طائفة من رسائل الجاحظ غير الأربع المذكورات قد وُجه الخطاب فيها الى هذين العظيمين أيضاً . و (أبو الوليد محمد) هذا ولاّه الخليفة المتوكل القضاء بعد وفاة أبيه القاضي احمد بن ابي دؤاد .

ومن يتصفح أقوال الجاحظ . ويتأمل أساليبه في هذه الرسائل . وهو يتكلم في الأدب والاخلاق . وما يحمد منها وما يذم . وما يجب ان يُتوخى في معاشرات الناس ومعاملاتهم . لحين المواصلة والمقاربة ، ولحين المجافاة والمباعدة — من تأمل ذلك في كلام الجاحظ خُيل اليه أنه انما يقرأ كتابات ابن المقفع في هذه الموضوعات لولا اسهاب واستطراد أحياناً في كلام الجاحظ . وهذا ما وقع لي بالفعل فإني ذهلت عن نفسي قليلاً وانا اقرأ أقوال الجاحظ في رسائله هذه حسبتني أعيد قراءة كلام مخبوء في نفسي . واذا المخبوء رسالة (الأدب[1] الكبير) لعبد الله

(١) ويسمى أيضاً الدرة اليتيمة طبعت في بيروت سنة ١٨٩٧ مع مقدمة وتعاليق للأمير شكيب أرسلان ثم طبعت في مصر مضبوطة بالشكل باسم الأدب الكبير بتحقيق أحمد زكي باشا .

ابن المقفع وقد كنتُ لخصت معظم ما فيها بخطي في زمن (الطلب) فرجعت إلى هذا الملخص وجعلت أقرؤ منه جملةً ، ومن رسالة الجاحظ جملة ، فاذا الكلامان متشابهان في كثير من الألفاظ والأساليب وطرق الإيراد . حتى كأن قلماً واحداً نطقهما . او معدناً واحداً من التبر لفظهما . ولا عجب فإن الأديبين يكادان يكونان نسخة واحدة مصححة من ثقافة زمنهما . وادب عصرهما . يشهد لذلك الجاحظ نفسه : فقد وصف في الرسالة الرابعة (العداوة والحسد) ما يلاقيه من عنت حساده له . واستهزائهم بما كان يكتبه ويؤلفه : فكان يعمد الى بعض مصنفاته وينسبها الي غيره من ابناء عصره . فيعجب إذ ذاك حساده بها . وينوهون بمحاسنها وبلاغة صاحبها على مسمع من (الجاحظ) مؤلفها ، وهم لا يشعرون . والى مَنْ كان الجاحظ ينسب مصنفاته المنفلة هذه ؟ قال انه كان ينسبها الى طائفة من فضلاء عصره وفي طليعتهم ابن المقفع .

اما السبب الذي حمل الجاحظ على مخاطبة القاضي ابي الوليد برسالة (المعاد والمعاش) فهو ما ذكره في فاتحتها . وملخصه انه كان يسمع بأبي الوليد ، وعظيم مواهبه ، وغُرّ مناقبه ، وتفوقه على أترابه ، فشوّقه هذا الى الاتصال به ، واختباره في شتى حالاته . فوجد لديه من الفضل والنبل والكرم أكثر مما بلغه . وقد وصله (ابو الوليد) بمودّته ، وخلطه بنفسه . فكافأه الجاحظ على نعمته عليه بتقديم هذا الكتاب اليه .

وقد قال — مخاطباً له — (فرأيت ان اجمع لك كتاباً من الأدب جامعاً لعلم كثير من المعاد والمعاش أصف لك فيه علل الأشياء وأخبرك بأسبابها الخ) .

ثم ان الجاحظ انتهز ذكر (العلل) و (الأسباب) التي توخاها في كتابه فقارن بينه وبين مصنفات غيره من العلماء . ففضل كتابه من حيث انه (اي الجاحظ) يبين علل الأشياء ويكشف عن اسبابها . بينا غيره من المصنفين لا يفعلون شيئاً من ذلك . وانما اقوالهم (روايات رَوَوْها عن اسلافهم ، ووراثات ورثوها عن

اكابرهم) ثم جعل الجاحظ صنيعهم هذا من قبيل فضيلة أداء الأمانة ! ! اما فضيلة الاستنباط والاستشهاد والتعليل فليسوا منها في شيء . قال : (ولن تجد وصايا أنبياء الله ابداً الا مبينة الأسباب . مكشوفة العلل . مضروبة معها الأمثال) هذا ما قاله الجاحظ وهو فيه يوافق من يلمز علماءنا الأقدمين (الذين كتبوا في التاريخ والأخبار والآداب) من جهة انهم إنما يتتبعون في مصنفاتهم جزئيات الحوادث، ورواياتها المختلفة ، ويوردونها من دون تمحيص ، ولا مقارنة، ولا استنتاج، ولا محاكمة ، كما يقول ابناء هذا العصر . فمؤرخونا واخباريونا عشاق رواية ولا قيمة (للدراية) في نفوسهم : فهم لا يُعملون عقولهم في تعليل الأشياء ، ولا في امكانية حدوثها . ولو رأى الجاحظ ما كان من ابن خلدون في (مقدمته) المشهورة لقرّت عينه واشتفت نفسه ، ولعده ابنه الوحيد الذي يسرُّ به ، ويغتبط بذكائه وادبه .

على ان الجاحظ مهما قرّظ نفسه . ونوّه بحسن مأتيه في مصنفاته . فإن فيها ما يؤاخذ عليه . وكم سمعناه يعيب كلام غيره ويصمه بالمراوغة والاحتيال (ونقول نحن اليوم اللفّ والدّوران) ثم لا نلبث ان نرى ذلك في كتاباته ، ونلمحه في الكثير من محاولاته ومناظراته . فهو كثيراً ما يهوّل على قرّائه . ويدعهم وقد وقد يُبهرج[1] بهم الطريق : بحيث يريهم التافه من الأمور خطيراً ، والخطير حقيراً ، ويذهب بهم في مذاهب الغلوّ والتلطف في القول كلّ مذهب . حتى ليخيل اليهم أن الجبل هباء . والأرض سماء . وحتى ليكاد يقنعهم بأن اللؤم من مكارم الأخلاق . والمشخلب من نفائس الأعلاق . وان السلحفاة قد تبذّ الجرد العتاق . في ميادين السباق . ولو شئتُ لاستخرجت من كلامه عدة شواهد[2] على ما ذكرت .

قلت آنفاً إنني سأعمل على تصحيح بعض الفاظ هذه الرسائل . أما تصحيح

(١) في الأساس : بُهرج بهم الطريق (بالبناء للمجهول) إذا أخذ بهم في غير المحجة وعدل بهم عن الجادة النافذة الى غيرها ؛ وأصل الكلمة هندية نقلت الى الفارسية ثم عربت

(٢) واذا تعجل القارئ نموذجات من هذه الشواهد فليراجعها في كتاب تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة صفحة (٧١ — ٧٢) .

ما وقع فيها من إبهام في البحث او غموض في الجمل والأساليب فإن هذا قد يتعسر ، ومعرفة وجه الصواب فيه قلما تتيسر ، ولذلك ستبقى صفحة او صفحات احياناً من رسائل الجاحظ مغلقة المعنى في وجه القراء ، إلى ان يتجأوا بالعثور على نسخ جديدة مصححة لهذه الرسائل .

وهذا الغموض في اساليب الجاحظ يكون ناشئاً في اغلب الأحيان من جهل النساخ فيمسخون ما خلق ، ويهدمون ما بنى . وقد يكون الغموض ناشئاً من جهل القارئ بأساليب الجاحظ وطريقته في تركيب الجمل ، وتأليف الفقر ، التي اعتادها هو (اي الجاحظ) وبعض فحول الكتاب في الصدر الأول : ففهم كلام الجاحظ إذن يحتاج الى إطالة النظر في بعض المواطن من مصنفاته ، وتصفح الوجوه التي تحتمله من المعاني ، ثم التثبت مما يريد من هذا اللفظ أو ذاك التعبير . والا فقد يقرأ القارئ صفحات من آثاره ويتخلل فصولها فصلاً فصلاً ، وابوابها باباً باباً ثم يخرج من دون ان يعلق بكفه منها اثر .

فالاستفادة من كتب الجاحظ متوقف على شيئين (اولا) تصحيحها وتحقيق الفاظها . (ثانياً) ألفة اساليبه ، والمران عليها . وتتوفر هذه الألفة في من تضلع من اللغة ، واتقن قواعدها .

ومن امثلة الألفاظ التي يستعملها الجاحظ ويكون لها من المعنى عنده غير ما اعتدنا أن نفهمه منها — ماجاء في ص ٨ من رسالة (المعاد والمعاش) وهو قوله : (واعلم ان الآداب انما هي آلات تصلح ان تستعمل في الدين وتستعمل في الدنيا الخ) فهو يريد بالآداب غير ما نفهمه اليوم منها : يعرف ذلك بالتأمل في بحثه وتتبعه الى منتهاه . فقد اراد بها المصالح البشرية ، والمعاملات الدنيوية : فهو يقول إنها من الدين ، وليس الدين بخارج عنها ولا منافياً لها : فالضرتان (اي الدنيا والآخرة) متكافلتان متضامنتان : لا تستقل إحداهما عن الأخرى ، واستشهد لذلك بما قاله (ابن عباس) في تفسير آية (ومن كان في هذه اعمى فهو في الآخرة

أعمى) • فقد قال ابن عباس (من كان ليس له من العقل ما يعرف به كيف دُبِرت أمور الدنيا • فكذلك هو إذا انتقل الى الدين : فانما ينتقل بذلك العقل • فيقصر جهله في الدنيا يكون جهله بالآخرة اكثر : لأن هذه (اي الدنيا) شاهدة وتلك غيب • فاذا جهل ما شاهد • فهو بما غاب عنه أجهل)[1]

ومن قوانين الحياة العامة التي نصح الجاحظ للبشر او خاطبه (القاضي ابي الوليد) ان يسيروا او يسير عليها — ما يصح ان نسميه قانون[2] (الرغبة والرهبة)

فقد قال الجاحظ ص ١٣ ما نصه (فإذ كان العباد لم يصلحوا لخالقهم ولم ينقادوا لأمره الا بما وصفتُ لك من « الرغبة والرهبة » فأعجز الناس رأياً • واخطأهم تدبيراً • واجهلهم بموارد الأمور ومصادرها • من أمل او ظن او رجا ان احداً من الخلق — فوقه او دونه — يصلح له ضميره او ينصح له بخلاف ما دبرهم الله عليه في ما بينه وبينهم • فالرغبةُ والرهبة اصلا كل تدبير • وعليهما مدار كل سياسة • فاجعلهما (يا ابا الوليد) مثالك الذي تحتذي عليه • وركنك الذي تستند اليه) اه

وقد نظم الشاعر هذا المعنى فقال :

(انما تنظر العيون من النـا س لمن ترتجيه او تخشاه)

ومن قوانين الحياة العامة او السياسة العامة التي اشار بها الجاحظ ما يصح ان نسميه ايضاً (قانون المكافأة) وخلاصته ان رئيساً من الرؤساء اذا اراد مكافأة عامل على عمله كان عليه ان يزن المكافأة ونوعها بأدقّ الموازين : فإنّ شخصاً لم ينصح لك • ولم يكن ذا حرمة بين الناس • ولا كفاية للمهمّ من الأعمال

(١) ولي في هذا المعنى كلمة جريئة كنت قلتها في صدد تحذيرنا معشر المسلمين من التفريط في توفير الأسباب الدنيوية الموصلة الى العزة والغلبة : قلت ان الدنيا مطية الآخرة فاذا أضعفنا المطية حتى أضعناها كنا للآخرة أكثر إضاعة • ثم علمت ذلك بما عال به ابن عباس غير ان قوله رضي الله عنه أشد صراحة وأكثر بياناً •

(٢) مضمون هذا القانون يشبه من بعض الوجوه ما قرره الوزير الايطالي (ميكيافيلي) في قوانينه السياسية التي دونها في كتابه (الأمير) وقد تجاهل فيها عاطفة الرحمة والرفق بالانسانية - والقول بأن هذا مطابق لـ سنن الله في سياسة عباده دعوى باطلة وافتراء على حكمة الخالق •

شخصاً مثل هذا إذا آثرته بمكافأة إيثار هوى (فإن الأثرة على الهوى توجب السخطة، وتوجب استصغار عظيم النعمة، ويحق بها الأفضال، وتفسد بها الطائفتان : من آثرته ومن آثرت عليه) ثم أوغل الجاحظ في تحليل هذا المعنى - وتصوير كيف ان من آثرته بالنعمة يسخط أيضاً . وفصّل أحوال المستحقين للمكافأة وغير المستحقين لها . حتى قال إن العقوبة احياناً تكون من المكافأة التي بها صلاح البشر .

(من لا يؤدبه الجميـل ففي عقوبته صلاحه)

ومن قوانين الحياة التي اشار بالتزامها قانونٌ جاء به الدين من قبل . وطالما شكا منه ومن الإخلال به رجال الاصلاح الديني : وهو (قانون التوكل) : فقد حدده الجاحظ ص ١٨ وكشف عن معناه بما يحمده عليه كلُّ من عرف مبلغ الضرر الذي لحق المسلمين من جرّاء التوكل الكاذب . قال الجاحظ احسن الله اليه (واحذر كلَّ الحذر ان يختدعك الشيطان عن الحزم فيمثل لك التواني في صورة التوكل . ويسلبك الحذر . ويورثك الهوينا بإحالتك على الأقدار : فان الله إنما أمر بالتوكل عند انقطاع الحيل ، والتسليم للقضاء بعد الإعذار [1] . بذلك انزل الله كتابه . وامضى سنته . فقال تعالى : خذوا حذركم . ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة . وقوله ﷺ : إعقلها وتوكل . وسئل ما الحزم؟ قال الحذر . فتحفَّظ من هذا الباب . وأحكم معرفته إن شاء الله تعالى) .

وما ذكرناه من كلام الجاحظ وطريقته في تمييز الأخلاق . ومقارنة صالحها بفاسدها كاف في الدلالة على منزعه في الرسالة الأولى (المعاد والمعاش) ولنقبل الآن على ما في هذه الرسالة نفسها من الأبحاث اللفظية . والفوائد اللغوية . ونرجئ ذلك الى العدد الآتي .

المغربي

---

(١) أي بعد أن يكون الانسان توسل بالأسباب جهد طاقته وعجز عن الوصول الى غرضه، وإذ ذاك يعذره الناس . ويقولون إنه قد أعذر .

فهارس المخطوطات

في العراق

في بلدان العراق المختلفة، خزائن عديدة للكتب، بعضها خاص تملكه طائفة من الباحثين والمغرمين بجمع الكتب، وبعضها عام ُعنيت الحكومة بفتحها لجمهور المطالعين. ولا يخلو بعض هذه الخزائن من مخطوطات قديمة نادرة الوجود، إلا ان عناية الباحثين في العراق ما زالت ضئيلة من حيث وضع «فهارس» مفصلة، تصف ما في هاتيك الخزائن من مكنونات ومخلّفات ثمينة. وهذا تقصير مرجعه في الغالب قلة مبالاة الناس بالفائدة المرجوّة من أمثال هذه الفهارس.

ولقد سبقنا المستشرقون من أبناء الغرب في هذا المضمار وقطعوا فيه أشواطاً بعيدة. فلم يدعوا مجموعةً خطية في خزانة من خزائنهم تقريباً، الا تولوا وصفها ودرسها. فالفهارس العديدة المنوّعة التي صنفوها، قد أغنت العلماء وفتحت لهم أبواباً للبحث والتنقيب كانت موصدة من قبل.

فكبريات دور الكتب الأوربية في لندن وأكسفورد وكمبردج وباريس وبرلين وليبسيك وفينّة وروما وليدن والاسكوريال وغيرها، حافلة بفهارس مخطوطاتها التي تعدّ من أنفس المراجع وأوثقها في الوقوف على دفائن المؤلفات الخطية التي تشتت شملها وتناثر في كثير من بقاع الأرض.

وإذا استقصينا ما ُنشر من «فهارس المخطوطات» في دور كتب العراق ألفينا عددها قليلاً، لا يعدو أصابع اليدين. وسنذكر في هذه الكلمة ما ُنشر منها بالطبع، وما لا يزال مخطوطاً لدى أصحابه.

والذين ُعنوا بتصنيف هذه الفهارس المطبوعة ثلاثة من أفاضل العلماء المؤلفين:

أولهم : السيد أدّي شير : المؤلف العراقي الشهير ، مطران الكلدان في سعرت سابقاً ، المتوفى سنة ١٩١٥ م . فقد وضع باللغة الفرنسية فهرسين ثمينين في هذا الباب :

الأول : فهرست المخطوطات السريانية المحفوظة في خزانة كتب دير السيدة حافظة الزروع ، بجانب القوش التي في شمالي الموصل . وقد نشره مؤلفه في المجلة الآسيوية الفرنسية بباريس (Journal Asiatique) سنة ١٩٠٦ ، ثم طبعه في السنة نفسها ، في رسالة لطيفة تقع في ٦٥ صفحة ، وصف فيها ١٠٣ مخطوطة[1] .

الثاني : فهرست المخطوطات السريانية والعربية ، المحفوظة في خزانة كتب دار البطريركية الكلدانية بالموصل . وقد طبعه مؤلفه في باريس سنة ١٩٠٧[2] ونسخه اليوم نادرة .

وثانيهم : الدكتور داود الجلبي الموصلي . فقد نشر كتاباً عظيم الشأن ، وسمه بـ « مخطوطات الموصل »[3] ، ذكر فيه الكتب العربية ، والمكتوبة بحروف عربية ، التي وقف عليها في مدارس الموصل الدينية وجوامعها ، ذلك الى مجاميع يملكها بعض الباحثين والسراة وغيرهم في مدينة الموصل .

وقد بلغت المخطوطات التي تطرّق المؤلف لذكرها أو وصفها ، قرابة أربعة آلاف مخطوطة ، مفرّقة بين نيف وخمسين خزانة ، نذكر منها ما اشتملت على خمسين مخطوطة أو أكثر من ذلك :

---

(١) Addai Scher (Mgr.) : Notice sur les Nanuscrits Syriaques conservés dans la Bibliothèque du Couvent des Chaldéens de Notre - Dame des Semances .

(٢) Catalogue des Mss . Syr . et Arabes de la Pibl . Patriarcat Chaldéen de Mossoul .

(٣) مخطوطات الموصل ، وفيه بحث عن مدارسها الدينية ومدارس ملحقاتها . (مطبعة الفرات ، بغداد ١٩٢٧ ؛ ٣٨٩ ص) .

عدد المخطوطات	الخزانة
٢٦٠	المدرسة الأحمدية
٦٨	〃 الاسلامية
٣٦٨	مدرسة جامع الباشا
١١٥	〃 〃 بكر افندي
٥٥	〃 〃 الخاتون
٦٨	〃 الجامع الكبير
١١٥	〃 الحاج حسين بك في جامع السلطان أويس
٣٠٦	〃 الحجيات
٣١٧	المدرسة الحسنية
١٣٥	مدرسة الخياط
٢٦١	〃 عبدالرحمن جلبي الصائغ
٥٧	المدرسة العبدالية
٥٠	〃 العثمانية في جامع الرابعية
٣٠٧	〃 المحمدية في جامع الزيواني
٢٩٥	مدرسة الملا زكر (الحاج زكريا)
٢٢١	〃 النبي شيث
٥٣	المدرسة النعمانية
٣٧٢	مدرسة يحيى باشا
٧٦	خزانة كتب المؤلف الدكتور داود الجلبي

وثالثهم: المستشرق الفرنسي الأب ڤوستي الدومنكي: فانه صنف ثلاثة فهارس مفيدة، وصف فيها مخطوطات ثلاث خزائن عراقية، وهي:

١ — فهرست المخطوطات السريانية المحفوظة في خزانة كتب دير السيدة[1]. وهو على غرار الفهرست الذي صنفه المطران أدّي شير لهذه الخزانة، وقد أشرنا اليه، بيد ان هذا أكمل وأتمّ - لأن ڤوستي وصف فيه ثلاثمائة وثلاثين مخطوطة وصفاً حسناً.

٢ — فهرست المخطوطات السريانية المحفوظة في خزانة كتب الابرشية الكلدانية في كركوك[2]. وقد نشره بالفرنسية في مجلة الشرق المسيحي (Orientalia

(١) Vosté (J.-M., O.P.): Catal. de la Bibl. Syro - Chaldéenne du Couvent de Notre - Dame des Semances près d'Alqos h. (Rome, 1929; 130 p.).

(٢) Catal. des Mss. Syro - Chaldéens conservés Dans la Bibl. de l'Archevèché Chaldéen de Kerkouk.

Periodica Christiana) الصادرة في رومية سنة ١٩٣٩ . وقد وصف المؤلف في هذا الفهرست ٤٩ مخطوطة .

٣ — فهرست المخطوطات السريانية المحفوظة في خزانة كتب الأسقفية الكلدانية في العقر[1] . وقد نشره بالفرنسية في المجلة المذكورة سنة ١٩٣٩ ، وفيه وصف ٦٧ مخطوطة .

هذا ما أتيح لنا الوقوف عليه من الفهارس «المطبوعة» التي تصف المخطوطات في العراق . ونضيف الى ما تقدم ذكره ، ثبتاً صغيراً صنعه الأستاذ كاظم الدجيلي لخزانة كتب الأمير (عم) في النجف ، ونشره في مجلة لغة العرب (٤ [بغداد ١٩١٤][2] ص ٤٠ — ٤٥) وقد وصف فيه ١٧ مخطوطة .

وللأستاذ الشيخ علي الخاقاني ، صاحب مجلة «البيان» التي تصدر في النجف ، وصفٌ حسن لأربع وعشرين مخطوطة ، منثورة في بعض خزائن كتب النجف ، نشره في جملة مقالات ظهرت في مجلة «الاعتدال» النجفية[3] . وقد استأهل هذه المقالات من كتابٍ نفيسٍ له يُعنى بتأليفه في وصف أهمّ ما تحويه خزائن كتب العراق من مخطوطات .

* * *

وهنالك غير ما ذكرنا ، فهارس لخزائن عراقية أخرى ، وقفنا على بعضها مخطوطة لدى أصحابها ، نذكرها فيما يأتي استتماماً للفائدة ورجاء ان يتحقق طبعها :

١ — فهرست مخطوطات المتحف العراقي : يشتمل على وصفٍ مفصل لجميع المخطوطات

(١) Catal. des Mss. Syro-Chald. conservés Dans la Bibl Episcopale de 'Aqra.

(٢) بدأت لغة العرب بسنتها الرابعة سنة ١٩١٤ فصدر منها جزآن وبعض الثالث ، ثم دهمتها الحرب الكبرى الأولى فاحتجبت ثم ظهرت سنتها الرابعة ثانية سنة ١٩٢٦ مبتدئة بالجزء الأول باغفال تسلسل الأجزاء المذكورة الصادرة قبل الحرب . فليتنبه الى ذلك .

(٣) الاعتدال (٥ [١٩٣٨ — ١٩٤١] ص ٥٧ ، ١١٣ ، ١٧٤ ، ٢٧٣ ، ٣٣٣ ، ٥٧٤ ؛ ٦ [١٩٤٦] ص ٧٥ ، ١٥٥ ، ٢٣٨) .

العربية والفارسية والتركية والسريانية والعبرية المحفوظة في خزانة كتب المتحف العراقي . عني بتأليفه بالعربية الدكتور مصطفى جواد وكوركيس عواد . ويتألف هذا الفهرست من ثلاثة اجزاء ، فيها وصف نحو من اربعمائة مخطوطة ، وستشرع مديرية الآثار القديمة العامة العراقية في طبعه عما قريب .

٢ — فهرست مخطوطات دير الكرمليين ببغداد : صنفه بالعربية العلامة الأب انستاس ماري الكرملي . وهو في ثلاثة مجلدات كبار ، تصف بايجاز نحواً من ١٥٠٠ مخطوطة . وكان مؤلفه قد نشر اقساماً منه في وصف المخطوطات النصرانية في هذه الخزانة ، في نيف وعشرين مقالة ظهرت كلها في « نشرة الأحد » المجلة الأسبوعية المعروفة التي كانت تصدر في بغداد [1] .

٣ — فهرست مخطوطات قلاية الموصل وكنائسها السريانية : للبطريرك اغناطيوس افرام الأول برصوم . وهو بالعربية .

٤ — فهرست مخطوطات دير مارمتّى وكنائس القرى التابعة له : للبطريرك أفرام برصوم . وهو بالعربية ايضاً .

وهذان الفهرسان الأخيران ، لم اقف عليهما ، وإنما رأيت مؤلفهما العلامة يشير اليهما في بعض تآليفه [2] .

٥ — فهرست خزانة الدار البطريركية الكلدانية بالموصل : وضعه بالفرنسية الخوري اسطيفان كجو ، على غرار الفهرست الذي صنفه المطران أدّي شير لهذه الخزانة . فان نفاد نسخ فهرست ادي شير منذ زمن بعيد ، وحصول زيادة على مخطوطات هذه الخزانة ، اوجبا وضع هذا الفهرست الجديد الذي ننتظر ان ينشر بالطبع يوماً ما .

٦ — فهرست مخطوطات خزانة عواد ببغداد ، ألفه بالعربيه صاحبا هذه الخزانة ،

(١) نشرة الأحد (المجلدات ٨ ، ٩ ، ١٠ الصادرة سنة ١٩٢٩ — ١٩٣١) .

(٢) اللؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم والآداب السريانية (حمص ١٩٤٣ ، ص ١٢ ، الرقم ٢٦ و ٢٥) .

كوركيس عوّاد واخوه ميخائيل عوّاد • وقد وصفا فيه المخطوطات العربية والفارسية والتركية والسريانية، وعددها جميعاً ٢٣٤ مخطوطة •

٧ — فهرست خزانة كتب آل باش اعيان العباسي بالبصرة : للأستاذ علي الخاقاني • وقد شرع بنشره في مجلة «الغري» النجفية، فظهرت منه جملة اقسام والأمل ان يتم نشره بكامله•

* * *

على ان هنالك فهارس او قوائم غير ما ذكرنا، لم نتمكن من حصرها هنا، إما لأننا لم نستطع الوقوف عليها، او لأنها موضوعة بوجه لا يصلح ان تنشر به•

ومهما يكن من أمر، ففي بلدان العراق كنوز خطية مجهولة لدى كثير من العلماء والباحثين، يحسن ان يذاع امرها ويعلن عنها للملأ، فتدرس دراسة وافية تليق بها •

ففي بغداد والنجف وكربلاء والبصرة والموصل وغيرها من المدن، مخطوطات لا تحصى، تنتظر من يعنى بأمرها ويخرجها من مكامنها، ويفتح للناس سبيل معرفتها والوصول اليها • وليس من وسيلة تيسر ذلك غير نشر فهارس محكمة لها•

(بغداد) كوركيس عواد

مجموعة أشعار

مصعبة المباني مغمضة المعاني

في خزانة كتب مسجد احمد باشا الجزار في مدينة عكا مجموعة خطية تحتوي على عدة رسائل صغيرة الحجم نسخها احمد بن سليمان المفتي الشافعي في ٢١ ربيع الأول من سنة ١١٨٨ الهجرية وفي أولها رسالة بدون اسم او عنوان جاء في مقدمتها :

بسم الله الرحمن الرحيم ٠

قال الفقير الى رحمة ربه الغني مسعود بن احمد الشافعي رحمه الله تعالى.

الحمد لله موسع العطاء مسبغ الغطاء مسبغ النعم والآلاء المحمود على السراء والضراء المشكور في الشدة والرخاء أحمده ولا محمود على الحقيقة سواه وأشكره شكر الذاكر الأواه وصلى الله على سيدنا محمد نبيه المرسل من خير العناصر اصطفاه ومن أكرم الآباء والأجداد اجتباه صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه خير آل وأشرف اصحاب واتقاه وعلى الخلفاء الراشدين الأئمة المجتهدين ومن استن بسننه وهداه ٠

وبعد فاني لما نظرت في علم العربية ووقفت على دقائقه وحقائقه وراجعت كتب العلماء وتصانيفهم وجدتها مشتملة على أبيات من الشعر مصعبة المباني مغمضة المعاني قد ألغز قائلوها اعرابها ودفن في غامض الصنعة صوابها وهي في الظاهر فاسدة قبيحة وفي الباطن جيدة صحيحة ٠

وقد كان العلماء المتقدمون كالأصمعي وغيره يتساءلون عنها ويتفاخرون بها أردت ان أجمع منها ما تيسر لأوضح مشكله وأبين مجمله مشيراً الى موضع

النكتة منه غير مشتغل بإيراد النظائر والأمثال فيفضي الى الضجر والملال فيكون ذلك داعياً للنظر فيه وأنساً لحافظيه ومتأمليه وأقدم على ذلك الكلام بإعراب حديثٍ عنه صلى الله عليه وسلم فتكثر فائدته وتعظم بركته وجعلته برسم الخزانة المولوية السلطانية الملكية الكاملية أدام الله ملك مالكها اذ كان الله سبحانه وتعالى قد خصه من العلم بأوفر نصيب وحاز قدحه منه بالسهم المصيب لا سيما علم العربية الذي هو مفتاح الفنون وسر العلوم والسبب الموصل الى علم البيان المطلع على دقائق معاني القرآن قد خصه الله بالفضل العميم والقلب الرحيم حتى شهدت له بذلك الضمائر والقلوب واستوجبت شكر نعمه في الحضرات والغيوب وأقرت بالتقصير عن ادراك مداه فاعترفت بانه لا يصلح لملك الدنيا مالك إلا إياه فأسبغ عليه نعمته وفضله كما بسط في العباد طوله وعدله وجعل بقاءه ما بقي الأبد وملك مملكته في النفس والولد .

القول على ما رُوي عنه صلى الله عليه وسلم انه قال :

« إنَّ مِنْ أَمَنِّ الناسِ عليَّ في صُحبتِهِ ومالِهِ أبو بكرٍ »

وبعد ان توسع في اعراب هذا الحديث الشريف المشرّف للصدّيق رضي الله عنه تناول الأبيات التالية ونقلها بنصها وشكلها .

لشاعر : إنَّ مَنْ يدخلِ الكنيسةَ يوماً فهوَ يلقى جآذراً وظباء

مما أنشد سيبويه :

كأنك من جِمالِ بني أقيشٍ يقعقعُ خلفَ رجليه بشنِّ

مما أنشد سيبويه :

وما الدهرُ إلاّ تارتانِ فمنهما أموت وأخرى ابتغي عيشةَ الرخا

مما أنشد علي الفارسي :

لا تيأسنْ وكنْ في الله معتَبِاً فبينما أنت ذا يأسٍ أتى الفرَجا

مما أنشد علي الفارسي :

سأتركُ مهرَتي رجـلٌ فقيرٌ وأركبُ في الحوادث مُهرَتانِ[1]

مما أنشد بعض العلماء :

دجاجتانِ وبطتانِ كما ركبَ المليكُ بغلَ تانِ[1]

مما أنشد علي الفارسي :

فرعونَ مالي وهامانٌ وقد زعموا اني بخلتُ بما يعطيه قاروناً

مما أنشد ابن السكيت :

قالَ زَيدٍ سمعتُ صاحبِ بكرٍ قائلٌ قدْ وقعتُ في اللأواءِ

لشاعر: لا يكونُ العَيرُ مُهراً لا يكونُ المهرُ مهرُ

مما انشد بعض الفقهاء :

سلْ حِبالي فقد سئمتُ الجفاءَ يا قتولي واحفظْ عليَّ الإخاءَ

مما انشد بعض العلماء :

هيهاتَ قدْ سفهتْ أميةُ رأيها واستجهلتْ سفهاؤُها حلماؤُها

حربٌ ترددَ بينهمْ قد كفرتْ آباؤُها أبناؤُها

مما انشد بعض العلماء :

كساني أبي عثمانَ ثوبانِ للوَغى وهل ينفعِ الثوبُ الرقيقُ لدى الحربِ

مما انشد بعض العلماء :

فلوْ وَلدتْ فقيرةَ جرْوِ كلبٍ لسُبَّ بذلكَ الجرْوِ الكلابا

لشاعر: أبا الكوزُ فاشربْ قهوةً بابليةً لها في عظامِ الشاربين دبيبُ

مما انشد بعض العلماء :

لقـد قال عبدَ اللهِ شرٌ مقالةٍ كفى بكَ يا عبدَ العزيزُ حبيبُها

لشاعر: ستعلمُ أنه يأتيك بكرٍ وأنْ أخوكَ فيه منَ الذنوبِ

(١) قال والثان التاجر

لبعض العلماء :

لقدْ قالَ عبدَ الله قولاً عرفتهُ أتاني أبي داوُدَ في مرتع خصبِ

لشاعر: أتانا عليٍّ في ديارِ محمدٍ وفارقنا عمرو ومرَّ بنا بكرِ

قال أتانا تثنية اتان مضاف الى عليّ وفار فعل ماضٍ وقنا فاعل وعمرو مضاف اليه ومرّ فعل ماض ايضاً وبنا فاعل وبكر مضاف اليه .

ما انشد ابن أسد :

رأيتُ عبدَ الله يضرب خالدٌ وأبا عميرةَ بالمدينة يضربُ

ما انشد ابن أسد :

وإنا رعاة للسيوف أكارماً سمتْ فرآها الأقربون على قربِ

لشاعر: أقولُ خالداً يا عمرو لما علتنا بالسيوفُ المرهفاتُ

قال علتْ نابي السيوفُ والنابُ هو الجمل المسن .

لشاعر: وأنتم معشرٍ لئام نلقى لديكم كلَّ أذى وبؤسِ

قال ان قوله معشر يعني اي معَ شرٍّ ولكنه خفف لاقامة الوزن وبؤس مخفوضة بالعطف على شر .

وجاء على اعراب اثني وعشرين بيتاً آخر من هذا النوع ومن جملتها هذا البيت :

قيلَ لي انظرْ إلى السهام تجدْها طائراتٍ كما يطيرُ الفراشا

وبعدُ : فاننا لم نطلع على ترجمة لمؤلف هذا الكتيب الصغير الذي يرجح انه لم يمثل بالطبع بعد وعلى كلّ حال فهو مما ألف برسم خزانة الملك الكامل ابن الملك العادل من بني أيوب وقد ولي الملك بمصر سنة ٦١٥ هـ وتوفي في شهر رجب من سنة ٦٣٥ هـ « ١٢٣٨ م » فيكون من مؤلفات القرن السابع الهجري والثالث عشر الميلادي .

عبد الله مخلص

مخطوطات ومطبوعات

ظهير الدين البيهقي : تاريخ حكماء الاسلام

عني بنشره وتحقيقه الأستاذ محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق

وهو من مطبوعات المجمع ، طبع بمطبعة الترقي بدمشق عام ١٩٤٦ ، عدد صفحاته (٢٠٦)

اسم هذا الكتاب بالتحقيق : (تتمة صوان الحكمة) ، كما جاء في ترجمة مؤلفه في معجم الأدباء . وانما سمي مؤخراً : (تاريخ حكماء الاسلام) لاقتصاره على ترجمة فلاسفة الاسلام من رجال القرن الثالث والرابع والخامس والسادس . وقد نسج مؤلفه فيه على منوال أبي سليمان المنطقي السجستاني في كتابه : (صوان الحكمة) ، الا ان كل من ذكره ابو سليمان لم يترجم له البيهقي لاعتقاده ان ابا سليمان قد أنصف في ذكره ، فجاء كتابه مقصوراً على ترجمة مائة واحد عشر حكيماً ومهندساً وطبيباً وفلكياً ومنجماً من ابناء الشرق القريب . فليس فيه اذن ذكر لفيلسوف من فلاسفة اليونان ، ولا ترجمة لحكيم من حكماء الأندلس .

وربما كان تاريخ الحكماء للقفطي أتم واكمل من كتاب ظهير الدين البيهقي ، الا ان البيهقي صنف كتابه قبل القفطي بمائة سنة . وترجم لحكماء لم يتعرض لهم غيره . فله في ذلك فضل التقدم ، وله ايضاً مزية خاصة لا يشاركه فيها كتاب آخر ، وهي اشتماله على تراجم بعض المعاصرين ممن عرفهم البيهقي واتصل بهم وعاشرهم كالفيلسوف حجة الحق عمر بن الخيام ، والامام محمد الشهرستاني ، والامام احمد بن حامد النيسابوري ، والامام محمد الحارثان السرخسي ، وغيرهم .

وأحسن ما في الكتاب ترجمة ابن سينا . فقد توسع فيها المؤلف خاصة ، واكثر من اخبار الشيخ الرئيس ، وذكر تلاميذه ومعاصريه وما جرى بينهم من المناظرات والمشاجرات كالفيلسوف ابي الفرج بن الطيب الجاثليق ، والحكيم ابي القاسم

الكرماني ، وابي الريحان البيروني وغيرهم . وهذه الأخبار تصور لنا عصر ابن سينا احسن تصوير ، وتبين لنا كيف كانت مدن الشرق تعج بالفلاسفة ، وكيف كان الملوك والأمراء يرتبطون الحكماء والأطباء ويشاركونهم في العلم .

أشار الأستاذ الرئيس محمد كردعلي الى ذلك كله في مقدمة الكتاب ، ثم قال : وقد عرفنا من كتاب المؤلف « ان التعصب كان بعيداً جداً عن الحكماء ، وعهدنا بأكثر المؤلفين في تلك القرون يترجمون لأهل الاسلام كما يترجمون لمن لم ينتحل ملته بدون غرض ولا هوى » وقال أيضاً ، : « وأتانا هذا الكتاب ببرهان آخر على ان المدنية الاسلامية وحدة لا تتجزأ ، وان كل قطر متمم للأقطار الأخرى ، فاذا كانت خراسان خصت برجال الحكمة ، فان الأقطار السائرة أخرجت رجالاً في فروع العلم غير قليلة » (ص : ٧ — ٨) . وقال أيضاً : « ترجم البيهقي من ترجم لهم بإيجاز . . . وانا لنجد من الأخبار في هذه التراجم المختصرة ما لا نجد من تراجمهم في بعض كتب السير المطولة . ومن أهم ما حرص على ذكره ما أثر لهم من حكم لطيفة اهتم بالتقاطها اكثر من اهتمامه بتدوين سني ولاداتهم ووفياتهم . وقد يفضل ترجمة الرجل ويكتفي بنقل ما عزي اليه من كلام جميل » .

فمن الحكم الدالة على فلسفة ذلك العصر ما نقله المؤلف من حكم القاضي الفيلسوف محمد الأفضل عبد الرزاق التركي (ص ١٣٠) . قال : « إذا أردت ان تعرف مثالاً لترتيب الوجود فانظر الى الخليفة بنصب السلطان ، والسلطان بنصب الوزير ، والوزير بنصب الأمير ، والأمير بنصب الوالي ، والوالي بنصب القاضي ، والقاضي بنصب المزكي والمعدول » . فهذا القول يشير الى ترتيب الوجود في نظر ابن سينا وغيره من فلاسفة الاسلام ، ويدل على تأثير الحياة السياسية والاجتماعية في النظريات الفلسفية . فكأن المبدأ الأول في نظرية الفيض هو الخليفة ، وكأن العقل الأول هو السلطان ، وكأن العقل الثاني هو الوزير . والكون أشبه شيء بدولة فصلت فيها القوة المدبرة عن القوة المحركة كما فصلت

القوة الروحية في المجتمع السياسي عن القوة التنفيذية ، والمبدأ الأول يخلق العقل الأول كما ينصب الخليفة السلطان ، والكواكب والافلاك كما تتحرك في السماء تسبيحًا لله تعالى كما يتحرك الأمراء والسلاطين في خدمة الخليفة المقيم في بغداد .

وقصارى القول ان كتاب البيهقي عظيم الفائدة لأنه صور لنا ناحية جميلة من نواحي التفكير الاسلامي وكشف لنا النقاب عن حياة بعض الحكماء الذين لم يترجم لهم القفطي ولا ذكرهم ابن ابي أصيبعة وابن خلكان .

وقد حقق الأستاذ الرئيس محمد كرد علي هذا الكتاب أحسن تحقيق ، وقدم له بمقدمة جامعة ، وشرح معانيه وعلق عليها ، وقارن بين ما أتانا به البيهقي وبين ما ذكره صاحب طبقات الأطباء وصاحب تاريخ الحكماء من الأخبار والسير . وختم الكتاب بفهارس في التراجم ، والأعلام ، والأمكنة ، والبقاع ، والشعوب ، والقبائل ، والمذاهب ، والكتب ، فجاء عمله هذا متممًا لكتب التراجم الأخرى ومعيدًا الينا كثيرًا من الحلقات المفقودة من تاريخ الفكر الاسلامي .

جميل صليبا

كريم عزقول : العقل في الاسلام

طبع بمطابع صادر في بيروت عام ١٩٤٦ ، عدد صفحاته ١٨٠ من القطع الوسط.

عنوان هذا الكتاب لا يدل بالضبط على موضوعه ، لأن عنوانه العقل في الاسلام ، وموضوعه البحث في قيمة العقل وحدوده عند الغزالي . ومن قرأ هذا العنوان الضخم ظنّ ان المؤلف سيتكلم في كتابه عن قيمة العقل عند مفكري الاسلام ، جميعًا من الفقهاء والمفسرين ، والمحدثين ، والمتكلمين ، والفلاسفة ، والعلماء ، والكتاب ، والمؤرخين ، والشعراء . ولكن ليس في الكتاب شيء من هذا . وما ذكره المؤلف عن طريق المعرفة في الاسلام قبل الغزالي لا يروي غلة ، ولا يشفي علة ، بل هو استعراض سريع لآراء الفلاسفة والمتكلمين والأثريين واهل التعليم والمتصوفين لا يزيد على عشرين صفحة .

أما ما بقي من الكتاب فهو مشتمل على قيمة العقل وحدوده عند الغزالي، اتانا المؤلف فيه بشيء عن حياة الغزالي ثم ذكر موقفه العام من المعرفة على الاطلاق وتكلم عن شكه في العلم وعن كيفية خروجه من الشك ورجوعه الى اليقين، ثم أشار الى رأيه في قيمة العقل ومبادئ المعرفة وميزان النظر وحدود العقل في الأدبيات والغيبيات وموقفه من علم الكلام والفلسفة وطريقة الصوفية . كل ذلك بعبارة واضحة وأسلوب حسن وتبويب جيد .

ولعل الصفة الأساسية البارزة في هذا الكتاب هي دفاعه عن ايمان الغزالي بالعقل ومبادئ المعرفة . فالغزالي في نظر المؤلف يعتقد أن مبادئ المعرفة ضرورية يقينية يقرها العقل من دون برهان لمجرد حضورها في الذهن وهي تفرض نفسها على العقل بنفسها وتستمد قيمتها من ذاتها لا من معونة خارجية .

نعم ان الغزالي يصرح بأن نفسه قد عادت الى الصحة والاعتدال بنور قذفه الله في الصدر، وان الخلق كلهم يتعلمون العلم من الرسل، وان الإمام الذي علمنا الموازين هو امام الائمة محمد بن عبد الله (القسطاس المستقيم ص ٣٢) مما يوهم ان هناك معونة خارجية . ولكن هذه الأقوال لاتكفي لحملنا على الاعتقاد ان محك المعرفة الأخير عند الغزالي هو عامل خارجي . اذ ان أثر المعلم مقصور على الارشاد الى مبادئ المعرفة والتنبيه اليها . وسواء أفطن العقل الى هذه المبادئ عن طريق التعليم أم اقتنع بها عن طريق النظر والتجربة والاختبار فانه لايعتقد صحتها الا لوضوحها بذاتها . فالتعليم لاينفي العقل، بل يقتضيه ويوجبه (ص ١٠٦) . والمحك الأخير لمبادئ المعرفة انما هو الوضوح والبداهة، اما المعونة الخارجية فلا تنفع الا على سبيل الدعم والتثبيت (١٠٠) . وما صب النور الإلهي على مبادئ العقل ليكسبها وضوحها ولكن ليزيل عنها مداخل السفسطة ويعيد النفس الى الصحة والاعتدال . ولولا مداخل الشك لما احتاج العقل الى هذا النور . فالغزالي في نظر المؤلف ليس اذن ريبياً، بل هو من انصار الاثبات العقلي، والعقل في نظره

آلة سليمة ضرورية لاقتناص المعرفة ، أساسه الضروريات وسبيله النظر وميزانه قواعد المنطق ومحكه الوضوح واليقين .

وهذا كله صحيح . اننا نعتقد مع المؤلف ان الغزالي يؤمن بصلاح النظر ومنفعته ، وصدق العقل في حكمه على أمور التجربة ولكننا نخالفه في زعمه ان العقل المجرد عن الشرع يصلح في نظر الغزالي للخوض في مسائل ما بعد الطبيعة . لقد قال ابن خلدون ان الميزان الذي يوزن به الذهب لا توزن به الجبال ، وقال الغزالي ان من وزن الذهب بميزان يمكنه أن يزن به الفضة وسائر الجواهر ، فهل يفهم من هذا القول ان الغزالي لم يحدد نطاق العقل ؟ ان الفضة وسائر الجواهر هي والذهب من جنس واحد ، فلا غرو اذا قال الغزالي انها توزن بنفس الميزان . اما مسألة الصفات الالهية وقدم العالم وبقاء النفس بعد الموت ، ومسائل الحشر والنشر فهي من الأمور التي لا يحكم العقل فيها الا بظن وتخمين من غير تحقيق ويقين (التهافت ص ٨) .

لقد أعدت قراءة التهافت والمنقذ من الضلال والقسطاس المستقيم ، وغيرها من كتب الغزالي فلم أجد فيها ما يسمح بالقول ان العقل قادر على ادراك مسائل ما بعد الطبيعة ، بل خلصت من ذلك الى نتيجة ذكرتها في غير هذا المكان وهي ان الغزالي يؤمن بأحكام العقل ويرى انها صادقة في أمور التجربة وما يتصل بها ، أما الأمور الالهية فهي من طور فوق طوره . وكتبه مملوءة من الأقاويل التي تدل على عجز العقل عن ادراك اسرار الحقائق الالهية . فقد قال :

« وبفساد ذلك يفسد هذا كله على من يأخذ هذه الأمور من نظر العقل . فجميع ما ذكروه من صفات الأول او نفوه لا حجة لهم عليه الا تخمينات وظنون تستنكف الفقهاء منها في الظنيات . ولا غرو لو حار العقل في الصفات الالهية ولا عجب . انما العجب من عجبهم بأنفسهم وبأدلتهم ومن اعتقادهم انهم عرفوا هذه الأمور معرفة يقينية مع ما بها من الخبط والخبال » . (تهافت ص ٥٣) .

وقال أيضاً :

« وهكذا يفعل الله بالزائغين عن سبيله، والناكبين عن طريق الهدى، المنكرين لقوله تعالى ما اشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق انفسهم ، الظانين بالله ظن السوء المعتقدين ان أمور الربوبية تستولي على كنهها القوى البشرية المغرورين بعقولهم زاعمين ان فيها مندوحة عن تقليد الرسل واتباعهم » (تهافت ص ٣٠) .

وقال أيضاً :

« فاستحالة هذا لا تعرف بضرورة ولا نظر . وقد وردت به الأنبياء والمؤيدون بالمعجزات . فيجب قبوله منهم . واما البحث عن كيفية صدور الفعل من الله بالارادة ففضول وطمع في غير مطمع » (تهافت ص ٣٢) .

وقال أيضاً :

« فلتقبل مبادئ هذه الأمور من الأنبياء وليصدقوا فيها فان العقل ليس يحيلها ، ولنترك البحث عن الكيفية والكمية والماهية فليس ذلك مما تتسع له القوى البشرية . ولذلك قال صاحب الشرع تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله » (تهافت ص ٣٣) .

وقال أيضاً :

« ففي الناس من يذهب الى ان حقائق الأمور الالهية لا تنال بنظر العقل ، بل ليس في قوة البشر الاطلاع عليها » (تهافت ص ٤٤) .

وقال أيضاً :

« وان هذا ان كان صحيحاً فلا يطلع عليه الا الأنبياء بالهام من الله أو وحي وقياس العقل ليس يدل عليه » (تهافت ص ٥٧) .

وقال أيضاً :

« وما ذكرتموه وان اعترف بامكانه ، فلا يعرف وجوده ولا يتحقق كونه وانما السبيل فيه ان يتعرف من الشرع لا من العقل » (تهافت ص ٦٢) .

وقال أيضاً :

« ومن الأشياء ما تعرف استحالته ومنها ما يعرف امكانه ، ومنها ما يقف العقل عنده فلا يقضي فيه باستحالة ولا امكان » (تهافت ٦٩) .

وقال أيضاً :

« وانما انكرنا عليهم من قبل دعواهم معرفة ذلك بمجرد العقل » (تهافت ٨٤)

فهذه الأقوال وغيرها تدل على ان العقل عاجز في نظر الغزالي عن الوصول الى حقائق ما بعد الطبيعة وانه لا يطلع عليها الا عن طريق الوحي ، وانه بعد الاطلاع عليها من الشرع يحكم النظر فيها لتفهمها . فهو اذن آلة صحيحة الا انه مقيد في مسائل ما بعد الطبيعة بقيود الوحي والالهام .

ونعتقد ان المؤلف اراد ان ينقذ الغزالي مما وصم به من احتقار العقل فبين لنا أولاً ان العقل عنده ميزان صادق ثم بين لنا ثانياً ان نطاق العقل عنده غير محدود فأصاب في الأولى واخطأ في الثانية .

وفي كتابه بعض الهنات اللغوية والنحوية كقوله في ترجمة « Tabula Rasa » (الطاولة المعراة) وصوابه الصفحة الصقيلة أو الصفحة البيضاء لأن (طاولة) لاوجود لها في لغة العرب . وقوله:فلن تنكر على الأقل أن معرفة الله وشكر نعمته مثلاً (امرين حسنين) بحكم العقل ، وصوابه (امران حسنان) . وقوله : ولكن هاتين الدعوتين (واهيتين)، وصوابه (واهيتان) الى غير ذلك من الهنات التي لا ينبغي لمثله الوقوع فيها .

ج . ص

ديوان ابن عنين

شرف الدين ابي المحاسن محمد بن نصر الأنصاري الدمشقي

عني بنشره وتحقيقه الأستاذ خليل مردم بك

هذا الديوان من مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ، وهو يقع مع مقدمته في ما يزيد على ثلاث مئة صفحة ، مطبوع طبعاً حسناً على ورق صقيل .

وابن عنين شاعر دمشق ، ووزير من وزرائها ، وسفير من سفرائها ، فهو بذلك من رجالات السياسة في عصره ، وحامل راية شعره . واذا شئت ان تعرف هذا الشاعر معرفة صحيحة ، فعليك بالمقدمة الممتعة التي وضعها الأستاذ المحقق الناشر . فانها تبرزه لك في صورة صادقة : تعرف بها محاسنه ومعايبه ، وعلمه وأدبه ، وسياسته واخلاقه ، ومنزلته بالشعر .

استمع له يقول فيه :

« قبل ان يولد ابن عنين بسنة واحدة ، مات شاعران انتهت اليهما الرياسة في الشعر ببلاد الشام . هما ابن القيسراني ، وابن منير الطرابلسي . ولم يقم بعدهما من هو في طبقتهما حتى نبغ ابن عنين ؛ فأشبه الأول ، بجزالته ومتانته ، وضارع الثاني بالهجاء ونهش الأعراض . وفاقهما بخفة الروح ، والدعابة والتهكم والسخرية .

حاكى في كثير من شعره جزالة المتقدمين ، ولكن الطابع الشخصي ، واللون المحلي ظاهران في شعره أشد ظهور ، وقل في الشعراء من تراءت على شعره صورة بيئته وزمانه كما تراءت على شعر ابن عنين ؛ فأكثر قصائده تنادي على نفسها ان قائلها شاعر دمشقي عاش في العصر الأيوبي ...

وشعره كثير الفنون ، متعدد النواحي ، جم الأغراض ، وعناصره منتزعة من مصادر شتى ، يتجارى فيه طبع الشاعر ، وفن الصانع ، وتتبين فيه مقدرة اللغوي ، وتهذيب العالم المثقف ؛ فهناك محسنات البيان والبديع ، وهناك استعمال مصطلحات العلوم من نحو وصرف ، ونقد وحديث ، ومنطق وطب ، وفلك وهندسة وحساب ...

اما لغته فجزلة منقحة اذا جد ، وحفظه للمفردات وحسن انتقائه لها عجيب ...

وهو على طول باعه في اللغة ، ومقدرته على حسن السبك ، ومتانة الرصف ، وحسن ذوقه في انتقاء الفصيح ، لا يتحرج في مواضيعه الهزلية من اللحن أو ما يشبهه ، واستعمال الألفاظ والتراكيب العامية الشائعة في دمشق لعصره ، مما له اصل فصيح أو لا ...

الى ان يقول :

وأجل ما في شعره واطرفه – في رأيي – الحنين الى دمشق ، والدعابة والتهكم والسخرية .

قلنا : اما ان يكون اطرف ما في شعر الرجل ، الدعابة والتهكم والسخرية ، فنعم . ولو قال الناشر : وارق ما في شعر ابن عنين وأشعره ، الحنين الى دمشق لقلنا له أيضاً : نعم . اما أجله ، فليس الحنين الى دمشق ، ولا هو الدعابة والتهكم والسخرية ، ولكنه الشعر الذي قاله في واقعة دمياط . والذي يقول فيه الناشر نفسه :

« ... على ان لابن عنين موقفاً من انبل المواقف الشعرية المحمودة في هذا الباب ، وذلك في واقعة دمياط التي انجلت عن كسر الصليبيين سنة (٦١٨) فاستجاشت الشعر في صدره وكان قد بلغ السبعين ... »

هذه القصيدة – في رأينا – هي عروس الديوان ، وآية الشاعر ، واجل ما قاله واجزله وافخره . وهذه بعض ابياتها :

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا ـ اذا جُهلت آياتنا ـ والقنا الأُدنا
غداة لقينا دون دمياط جحفلاً من الروم لا يُحصى يقيناً ولا ظنا
قد اتفقوا رأياً وعزماً وهمةً وديناً وان كانوا قد اختلفوا ألسنا

* * *

واطمعهم فينا غرور فارقلوا الينا سراعاً بالجياد وارقلنا
فما برحت سمر الرماح تنوشهم بأطرافها حتى استجاروا بنا منا
سقيناهم كأساً نفت عنهم الكرى وكيف ينام الليل من عدم الأمنا
لقد صبروا صبراً جميلاً ودافعوا طويلاً فما أجدى دفاع ولا اغنى
لقوا الموت من زرق الأسنة أحمراً فألقوا بأيديهم الينا فاحسنا
منحنا بقاياهم حياةً جديدةً فعاشوا بأعناق مقلدة منا
ولو ملكوا لم يأتلوا في دمائنا ولوغاً ولكنا ملكنا فاسجحنا

* * *

وقد عرفت اسيافنا رقابهم مواقعها فيها فان عاودوا عدنا

هذا الشعر العجيب المطرب ، السيل الممتع ، والفخر الصدق ، ليس من غاية وراءه في الاحسان والابداع .

أما ماعاناه الناشر في تصحيحه وتحقيقه ، من صعوبة في المعارضة والموازنة والمراجعة بين مختلف نسخ الديوان التي عثر عليها — وكلها ممسوخة مغلوطة — فشيء ليس يعرفه ، ويعرف قدره ومقداره ، إلا من تصفح الديوان ، ورأى هذه الروايات القلقة المضطربة التي أحالت الكلمات عن مواضعها وعن أصولها ، مما يستحيل ان يهتدي اليه إلا من أوتي من البصر بالأدب واللغة والشعر ، ما أوتيه الأستاذ الخليل .

وحبذا لو أن الأستاذ زاد في تفسير بعض الكلمات ، وفي شرح بعض المعاني ، وهو أمر كان يسيراً عليه في جانب الجهد الذي بذله في التنقيح والتصحيح . ولو انه فعل لكان جمع بين الحسنيين ، ووجب له علينا الشكر مرتين . بل مرات .

عارف النكدي

كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة

تأليف عبد الرحمن بن نصر الشيزري

يقع الكتاب في نحو من مئة وخمسين صفحة ، جيد الطبع والورق ، حسن الترتيب والتبويب . قام على نشره السيد الباز العريني : المدرس بمدرسة الخديوي اسماعيل الثانوية ، بإشراف الدكتور محمد مصطفى زياده : أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة فؤاد الأول . فجاء هذا الكتاب في احسن ما يكون من التحقيق والتدقيق ، كما انه جاء دليلاً ناطقاً على مآثر السلف وما كانوا عليه في حياتهم الاجتماعية من حضارة ونظام ، قد يكون اكثره مجهولاً عند اكثرنا . وفي اخراج هذا السفر ومدارسته ، احياء لعدد غير قليل من المفردات العربية ، والمصطلحات الفنية ، مما نحن في أشد الحاجة الى مثله .

وهذه جملة مما قاله الدكتور زيادة ، في تصدير الكتاب ، تظهر مزاياه ، وتفصل ما أجملناه . قال :

«وكتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة .. نبع من منابع التعريف بأحوال المجتمع الاسلامي عامة - والشرق الأدنى خاصة - في العصور الوسطى . وهو لذلك مورد من أقرب الموارد الصافية التي سيغترف منها المشتغلون بكتابة التاريخ الاسلامي حسب الأسس الجديدة ..

غير ان اهمية الكتاب لا تنحصر في مجرد اسبقيته وافضليته على سائر الكتب المشابهة ، كما انها لا تستند الى افاضة مؤلفه في بيان ما ينبغي للمحتسب ان يتحلى به من الصفات ، أو يقوم عليه من مراقبة السوقة والأسواق ؛ بل تظهر اهميته كذلك في ما جاء به من ذكر ما كان يقوم به اصحاب الحرف والصناعات من انواع الغش في مبيعاتهم ومعاملاتهم ، مما ينبئ ببعض احوال التجارة والتجار ، في عصر المؤلف على الأقل . يضاف الى ذلك ما بالكتاب من الحقائق الكاشفة عن كثير من مظاهر الحياة الاجتماعية في القرن الثاني عشر الميلادي ، كاستخدام النساء في تنظيف القطن والكتان على ابواب الحوانيت بالطريق العام ، وشغف نساء بغداد بالاخفاف التي تصر عند المشي لاجتذاب الأنظار . وفي الكتاب كذلك كثير من الألفاظ العربية الفصيحة والمولدة الصحيحة ، مثل الدّوارين ونصاب المبضع والملزم ونحوها ، مما يغوص اهل العربية في بطون المطولات والأمهات لالتقاطه ... والذين يقبسون الكتب بما فيها من تسلية ، يجدون .. كثيراً من الأخبار الطريفة ...» .

وهذا باب من الكتاب ، يعلن عن نفسه ، وينوه بهذا النظام ، وبهذه الحضارة ، اللذين كانا عليهما السلف ، في حياته الاجتماعية : والباب هو الباب السادس وعنوانه : الحسبة على الخبازين :

«... ينبغي ان تُرفع سقائف حوانيتهم ، وتفتح ابوابها ، ويجعل في سقوف الأفران منافس واسعة يخرج منها الدخان ، لئلا يتضرر بذلك الناس . واذا فرغ الخباز من احمائه ، مسح داخل التنور بخرقة نظيفة ، ثم شرع في الخبز .

ويكتب المحتسب في دفتره اسماء الخبازين ومواضع حوانيتهم ، فان الحاجة

تدعوه الى معرفتهم ، ويأمرهم بنظافة اوعية الماء وتغطيتها ، وغسل المواجن ، ونظافتها وما يغطي به الخبز ، وما يحمل عليه .

ولا يعجن العجان بقدميه ولا بركبتيه ولا بمرفقيه ، لأن في ذلك مهانة للطعام ، وربما قطر في العجين شيء من عرق ابطيه وبدنه ، فلا يعجن الا وعليه ملعبة [1] او بشت مقطوع الاكمام ، ويكون ملثماً أيضاً ، لأنه ربما عطس او تكلم فقطر شيء من بصاقه او مخاطه في العجين . ويحلق شعر ذراعيه لئلا يسقط منه شيء في العجين . واذا عجن في النهار فليكن عنده انسان في يده مذبة يطرد عنه الذباب . هذا كله بعد نخل الدقيق بالمناخل السفيقة مراراً .

وبعد هذا فصل في منع الخبازين من غش الخبز ، وان لا يخبز حتى يختمر ، فان الفطير ثقيل في الوزن والمعدة . .

ثم الباب السابع في الحسبة على الفرانين : يعرفهم المحتسب على الدروب والمال واطراف البعد . . ويأمرهم بإصلاح المداخن ، وتنظيف بلاط الفرن في كل ساعة ، من اللباب المحترق ، والشرر المتطاير ، والرماد المتناثر ، لئلا يلصق في اسفل الخبز منه شيء . . .

وينبغي ان يكون له مخبزان : احدهما للخبز والآخر للسمك ، ويجعل السمك بمعزل عن الخبز ، لئلا يسيل من دهنه على الخبز . ولا يأخذ من العجين زيادة عما جُعل له . . .

الى غير ذلك من الأبواب والفصول التي تتناول جميع اهل الحرف والمهن والصناعات المعروفة في عصرهم .

وأضاف الناشر الى الكتاب ثلاثة ملاحق ، اورد في الملحق الثالث من النصوص الفرنسية القديمة ما يدل على ان منصب الحسبة واعمالها ، انتقلت من الدولة الاسلامية الى المملكة الصليبية ببيت المقدس . وقد نشرت هذه النصوص في ذيل الكتاب ، وعقب عليها بترجمتها الحرفية الى العربية .

ع . ن .

---

(١) الملعبة الثوب من غير كم . والبشت رداء من صوف يلبسه الفلاحون والنساء والعجانون .

الجهاد السياسي

وضعه الطبيب عبد الرحمن الكيالي

يقع الكتاب في مئة صفحة او تزيد . اراد المؤلف من كتابه على ما قال في كلمة الاهداء : «بحث الجهود السياسية التي بذلها رجالات سورية المجاهدون لخلاص أمتهم ، وتحرير بلادهم ، ودفع الغاصب عن وطنهم ..»

وعرّف الأستاذ في مقدمة الكتاب : الجهاد السياسي ، وما يتطلبه ، والمقصود منه ، وكيف ينشأ ، وعلاقة السياسة بالوطنية ، وشروط الجهاد .

ثم نوه بجهود سورية في الماضي والحاضر في سبيل استقلالها ، وبما كان لأهلها العرب من حضارة وفتوحات في جاهليتهم وفي اسلامهم .

وفي جملة ما قاله المؤلف : انه بزوال حكم العرب عن الشام ، وغلبة غيرهم عليه ، ضعفت فيه الحضارة ، وضعف العلم ؛ وان استبداد الأعاجم وعنجهيتهم كان سبباً في يقظة العرب ، وفي ما كان منهم من هذا الجهاد السياسي الذي يصفه .

وتبسط المؤلف في ذكر العهد العثماني ثم عاد وأجمله بقوله : « حكم الرعية لمصلحة الراعي » وانه كان يقوم على « الاخضاع بالقوة ، واخذ المال بالقوة ، وتسيير الأمور بالقوة » ولم ينكر على بعض السلاطين العثمانيين ما كانوا عليه من عدل وصلاح ، حالت دونها بطانة السوء ، وقال : «ان الترك لم يستعدوا لقبول التجدد والتحول»

وأسهب في النهضة العربية ، وأشاد بعهد فيصل ، وبما كان فيه — على قصره — من جهاد سياسي . وان فيصلاً — رحمه الله — اذا لم يأت بالمعجزات ، فانه لم يقصر بالممكنات . وتعرض بالذكر للأسباب التي قضت بانهيار الحكم العربي في الشام ، فكان مما ذكره منها : ضعف الأخلاق ، وما نتج عنه من شراء فرنسة لضمائر بعض السوريين ، وافسادها الأمر على فيصل ، بالقلاقل والدسائس والفتن تهيجها ، وبالنعرات المذهبية والطائفية والجنسية تثيرها .

هذا وصف مجمل للكتاب ، وهو اذا لم يكن من الكتب التاريخية ، لأن صاحبه كتبه في معتقله ، حيث لم تكن تصل يده الى الكتب والوثائق يعتمد عليها ، ويستمد منها . ولأنه مكتوب بلغة الخطابة لا لغة التاريخ ؛ فالكتاب فائدته انه

ضم صفحات من صفحات الجهاد ، وصفحات من صفحات الاستعباد ، خليق بالعرب ان يراجعوها ، وبالناشئة ان يعرفوها . فيعرفوا اي بلاء يحيق بالأمة اذا حكمها اجنبي عنها .

ع . ن

محاضرات نقابة المحامين

في السنة القضائية بحلب ١٩٤٥ — ١٩٤٦

كتاب يقع في قرابة ٥٠٠ صفحة من القطع الكبير . جيد الورق والطبع ، والترتيب والتبويب . يضم ثماني عشرة محاضرة من امتع المحاضرات موضوعاً ، وأنصعها أسلوباً ، ألقاها ثمانية عشر فاضلاً : اربعة منهم من رجال القضاء ، واربعة عشر من رجال المحاماة ، ويطول بنا الكلام ان نحن رحنا نعددها محاضرةً محاضرة ، ونصف ما فيها من الفوائد . ونظلم القاريء ونسيء الى انفسنا ان نحن نوهنا ببعضها وأغفلنا البعض الآخر ، لذلك ندعو القراء ، ولا سيما القضاة والمحامين ، الى مطالعة هذا السفر الجليل ، والاغتراف من مباحثه القيمة

ويمتلئ قلب الانسان غبطة وسروراً ، وهو يرى ما بلغته المحاماة في البلاد السورية من علم صحيح ، وثقافة واسعة ، بعد ذلك الركود والجمود ، وبعد ان كنت لا تجد — قبل بضع سنين — الا في الندرى من يحسن ان يعالج موضوعاً من مثل هذه الموضوعات ، بشيء من العلم والفهم ، وبأسلوب عربي ، تفهم معه ، ما يراد منه .

ولا يسعنا الا ان نشكر للأستاذ الكيوراني : نقيب المحامين ولزملائه اعضاء النقابة الفاضلين ، هذا الجهد الموفق الذي كان سبباً في اخراج هذه المحاضرات . كما نشكر المحاضرين : قضاة ومحامين ، حسن تخير المحاضرات واجادتهم فيها : موضوعاً وبياناً .

ع . ن

عصر السريان الذهبي

للفيكنت فيليب دي طرازي

طبع بمطبعة جدعون في بيروت سنة ١٩٤٦ في ١١٩ صفحة

هذا كتاب وضعه صديقنا ورصيفنا المؤلف بعد ان بحث موضوعه في المظان

المعتبرة . والسريان الذين كتب هذا المختصر في نشأتهم وعلاقتهم بالأمم القديمة وما أقاموه من معالم الحضارة . تعاليم الدين وما ابدعوه في الفنون الجميلة وشادوه من اديار وخزائن كتب وألفوه من كتب وترجموا من علوم - قبل الاسلام وبعده - هذه الأمة حرية ان يكتب تاريخها وما تاريخها الا جزء من التاريخ العربي يصح ان يدعى بهذا الاسم منذ قام رجال العلم فيهم وخرجوا ابناءهم في العلوم وتوفروا على نقلها للسانهم من الألسن الأخرى ونقلوا الى العربية ما كان عندهم منها .

« فتحوا منذ المائة الرابعة للتاريخ المسيحي عصراً سعيداً ذهبياً بما انشأوه من المدارس الشهيرة والمعاهد الفخمة والمكتبات الزاهرة وبمن انجبوه من الأعلام . . . وظل يسطع نور عصرهم الذهبي حتى القرن السابع بل امتد الى القرن الثامن وتوسع بعضهم فقال الى القرن التاسع . ثم عادت فبزغت انوار ذلك العصر الذهبي الميمون في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد » .

« ولقد ذهب رهط من اهل البحث الى ان السريان هم الذين استنبطوا الكتابة لأن بلاد الفونيقيين الذين علموا الكتابة لليونان ليست الا بقعة صغيرة من بلاد السريان اشهر مدنها صور وصيدا وبيروت وجبيل . والفونيقيون كما هو ثابت كانوا أمة شامية اي سريانية . وكانت لغتهم اما سريانية محضة واما قريبة الى السريانية اكثر من سائر اللغات السامية » « انتشر السريان انتشاراً عجيباً لا في اقطار سوريا وما بين النهرين والعراق وبلاد فارس ومليبار بل في الأنحاء اللبنانية » و « أجمعوا على ان عدد السريان في القرنين العاشر والحادي عشر ناهز المليونين من النفوس اما عدد الملكيين في تلك الحقبة فلم يتجاوز النصف مليون . . والموارنة اربعين الفاً » و « عمت عقيدتهم بالطبيعة الواحدة شعوباً جمة غير شعبهم السرياني كالأقباط والأحباش والأرمن والعرب ونصارى مليبار وغيرهم » .

نشروا عقيدتهم « بين العرب جيرانهم بني غسان ونجران وتغلب ومعد وبني كلب وغيرهم ، وكان بطاركة السريان ينصبون اسقفاً او اكثر لكل قبيلة من تلك القبائل العربية -ودعي بعضهم بأساقفة « المضارب » فكانوا يرافقون القبائل العربية المتنقلة ويقيمون الرتب الدينية تحت الخيام » .

وكان لعلماء السريان حظوة وحرمة عند الخلفاء الراشدين والخلفاء الأمويين والعباسيين وكان منصور بن يوحنا السرياني وزيراً للمالية في عهد الخلفاء الراشدين « أما ابنه سرجون وحفيده يوحنا المشهور بالقديس يوحنا الدمشقي فقد توليا ديوان الأعمال والجبايات في عهد الخلفاء الأمويين » .

ولا عجب أن كانت علاقات علماء السريان مع خلفاء العباسيين مستحكمة لاستحكام كما « فقد تفجرت ينابيع المعارف على يدهم وسالت الصحف بأقلام مترجميهم ومصنفيهم واطبائهم في طول البلاد وعرضها وأغنوا العالم بنفائس الأسفار التي استخرجوها الى العربية عن اللغات السريانية واليونانية والفارسية والعبرية والهندية » « وكان أولئك العلماء والأطباء يلازمون الخلفاء في بلاطهم ويجلسون الى مائدة طعامهم ويسامرونهم ويعالجون مرضاهم ويرافقونهم احياناً في حروبهم واسفارهم . وكان الخلفاء يجلون أطباءهم ويرحبون بهم ويُسنون لهم أعطيات سخية ويعودونهم في منازلهم حين مرضهم ويراسلونهم ويتسمحون معهم في قضايا دينهم ويحضرون أحياناً الصلاة عليهم بالشمع والبخور في جنازاتهم .

وألمع المؤلف الى ذكر رجال العلم والدين من هذه الأمة القديمة وتوسع ما ساعده المقام في الاشارة الى ما أقاموا من بيع وديارات قال : « وعلى رغم ما تهدم من كنائس السريان بالزلازل والحروب ونوازل الدهر فقد بقيت لهم علم ١٢٣٦ عشرون الف كنيسة » ولما تكلم عن خزائن كتبها قال : « غير ان الرزايا الجسيمة التي حلت بديار الشرق في مختلف العصور اجهزت على كل ما فيها ومن فيها فلم تبق ولم تذر . وحسبنا ان نذكر أسماء الطغاة زنكي (؟) وهولاكو وجنكز خان وتيمورلنك وأشباههم ممن أعملوا السيف والنار في البلاد حتى جعلوها خراباً يباباً » .

وبعد فالمؤلف العالم يهنأ على توفيقه بابراز هذه التحفة خدمة للعلم والتاريخ ونرجو ان يوفق الى وضع أمثال هذا التأليف المفيد .

محمد كرد علي

آراء وأنباء

رد على تنبيه

نشرت في جزء مجمع العلمي العربي م ١٨ ص ٤١٩ كلمة بعنوان «أسماء منتخبة لمسميات حديثة» جاء فيها ان «الكِنف (بوزن حمل) صالح لأن يطلق على محفظة الطبيب (جزدانه) الذي يضع فيه مقصه ومشرطه وأدواته وما يحتاج اليه احتياجاً قريباً».

ورأيت اليوم في المجلة نفسها م ٣١ ص ٤٧٥ بحثاً وسمه صاحبه التحرير «بالتنبيه والتوجيه» جاء فيه ان الكنف انما هو من أدوات الراعي ومثله الصفن وانه في مثل هذه المصطلحات يجب ان يرجع الى التاريخ فيسأل أولو العلم به هل كان اطباء الزمن القديم يتخذون جزدانات وما اسم الواحد منها ؟ وعقب كلامه هذا بذكره شيئاً من رسالة لابن فضلان بعث بها الى الناصر لدين الله أو المستنصر بالله يشكو فيها دجالي ذلك العصر . ومحل الشاهد فيها قول ابن فضلان «وبين يديه المكدّة والملحدان ... ويتغفى آخر النهار ومكدّته مملوءة قراضة ...» وذكر أيضاً الحرمدان وقال ان معناها الشنطة العصرية واستشهد عليها بما جاء في النجوم الزاهرة وهو «وعندما يعزلونه من الوزارة يصبح يأخذ غلامه الحرمدان خلفه ويروح يقعد في ديوان الانشاء» وبأن الأمير طرنطاي امر جماعة من اصحاب منكوتمر وفيهم حامل حرمدانه فوجد في الحرمدان كتباً من الأمراء» .

والذي ظهر لي من هذا كله ان المنتقد الفاضل يعترض ما جئت به من هذا الاختيار ويفضل استعمال المكدّة والحرمدان على استعمال الكِنف للشنطة العصرية او جزدان الطبيب بحجة ان القدماء من الأطباء قد استعملوها . اي اطباء زمن طرنطاي ومنكوتمر اللذين كان لأمثالها زمام ذلك العصر الذي نفخوا فيه روح العجمة في لغتنا الشريفة وبدأ الانحطاط في اللغة يطغى على كثير من اقلام مؤلفيه . ذلك العصر الذي كانت سلاسة التعبير في اللغة تكدّر بمثل قولهم «يصبح يأخذ غلامه الحرمدان خلفه ويصبح يقعد» فهل مثل هؤلاء يوجب حضرة المنتقد

الفاضل ان نرجع اليهم في تقويم كلامنا والى كلماتهم يجب ان نسند اصطلاحاتنا وأوضاعنا الحديثة المعنى ؟ ؟

اني اخترت الكنف لأن الطبيب يضع فيه مقصه وشفرته وأدواته كما كان يفعل الراعي فيصح حينئذ استعماله في كليهما . على ان الكنف ليس خاصاً بالراعي في كتب اللغة فقد جاء في اللسان انه وعاء طويل يكون فيه متاع التجار واسقاطهم ومنه قول عمر في ابن مسعود الخ وانه وعاء يضع فيه الصائغ اداته . فكما صح عند الأئمة استعماله للتاجر والصائغ فليصح لنا استعماله للطبيب ما دام في كليهما حافظاً للشفرة والمقص ولا ريب ان اختيار السائغ المذب في لغة العرب الفصحى للمعاني الحديثة افضل من اختيار الكلمات المستهجنة ولاسيما اذا كانت دخيلة كالخرمدان . بل وافضل ايضاً من اختيار الكلمات البعيدة في اصل معناها عن المعنى المراد . وقد فسر الأئمة كما في القاموس المحيط المكلة بشبه كيس يوضع على فم الحمار وليس كل ما ما استعمل في العصر الذي عرفت فيه المكمة والخرمدان للمحفظة يجب علينا الأخذ به ويكون ضالتنا عن رجوعنا الى التاريخ وسؤال أولي العلم مادمنا لم نخرج في اختيارنا للمستعذب المستملح عن سنن الفصحى . وقد استعمل اهل ذلك العصر كلمات لم تعذب في أذواق هذا العصر ولم تعها اسماعهم فهجروها . والا فما بالنا لا نحتفظ بالدقدان لما ينصب عليه القدر وبالكردناك او الكردناج للمصلي من الشواء وبالشامرك او الشامرغ للفتي من الدجاج وامثال ذلك مما شاع في ذلك العصر واستعمله بعض مؤلفيه فقال اهل اللغة في الأول المنّة وقلنا المنصب والمنقل وقلنا في الثاني المصليّ في الفصيح والشاورمة في العامي وهي أخف من الكردناك وقلنا في الثالث الفرّوج .

السوائل والموائع

يقول المنتقد الفاضل ان الصواب ان يقال في السوائل الملتهبة : المائعات او الموائع لأن السيلان ليس بشرط أصلي في التسمية . واقول انني لما قلت السوائل الملتهبة راعيت الاسم المشهور عند اهل هذا العصر لهذا الذي يقذف أيام الحرب ولو قلت الموائع الملتهبة لم يتبادر المعنى المراد لكثير منهم .

على ان اطلاق السائل على المائع او العكس لا يعد غلطاً مبيناً كما جزم به الكاتب الفاضل لأن الميع والسيلان يتعاقبان على المعنى الواحد قال في اللسان: «ماع الماء والدم والشراب ونحوه يميع ميعاً جرى على وجه الأرض جرياً منبسطاً في هيئته ومنه سميت الميعة لأنها سائلة .. وفي حديث جرير ماؤنا يميع وجنابنا مريع .. والميعة سيلان الشيء المصبوب» ويقول في مادة س ي ل «سال الماء والشيء سيلاً وسيلاناً جرى وأساله غيره» وقال الراغب الاصفهاني في مفرداته «سال الشيء يسيل وأسلته انا قال وأسلنا له عين القطر اي اذبنا له والاسالة حالة في القطر تحصل بعد الاذابة» وقال ابن الأثير في النهاية «ماع الشيء يميع وانماع اذا ذاب وسال» .

فكيف يكون بعد هذه النصوص استعمال السوائل في موضع المائعات او الموائع غلطاً مبيناً؟ وفقنا الله للصواب .

احمد رضا

التنبيه والتوجيه

— ٤ —

٥٠ — وجاء في ص ٣٥٣ «ثم علام يستندان في ...» قلت: الصواب «إلام» فانه يقال استند اليه لا عليه، وذلك لأن الاستناد يكون من الجوانب لا من الأعالي، وعلى العكس الاعتماد، يقال «اعتمد عليه»

٥١ — وورد في ص ٣٨١ ما نصه «ولكنّ كتّابنا كثيراً ما يتأثرون بالأسلوب الأعجمي في استعمال اسم الموصول [1] (كذا) فيقول بعضهم مثلاً: سيف الدولة الذي حكم في حلب، والتدقيق في هذه العبارة يوهم أن هنالك اكثر من سيف دولة حكم في حلب» قلت: دققنا النظر فيها فلم نفهم ما فهم الكاتب الفاضل، وإنْ جاز أن يفهم منه وجود سيوف دولة — وهو بعيد — فليس يدلّ على أنهم كلهم حكموا في حلب، لأن الوصف بالذي وصلتها يجعل الصفة — أي حكم

(١) هنا خطأ صوابه [الاسم الموصول] لأنه موصوف وصفة لا مضاف ومضاف اليه

حلب — مقصورة على هذا السيف وحده ، ولذلك يصح أن يقال « سيف الدولة الذي حكم في حلب وسيف الدولة الذي حكم في الحلة على نهر الفرات وهو سيف الدولة صدقة بن دبيس الأسدي المزيدي مؤسس مدينة الحلة واليه نسبت فقيل لها « الحلة السيفية »

٥٢ — وجاء في ص ٣٨٠ أيضاً قول هذا الفاضل « وبما أنّ الكلام في اغلاط العوام خليق بنا ان نوسع » ، وفي هذا التعبير أوهام وصوابه « ولما أنّ الكلام في أغلاط العوام كنا خليقين أن نوسع » وذلك باحلال « لما » بكسر اللام بتخفيف الميم محل « بما » وهذا من أسلوب الجاحظ وبحذف « الباء » لعدم وجود الشرط الذي يستوجبها ، وبادخال فعل في الجملة ليتعلق به « لما أنّ » وبجعلنا خليقين جديرين قمينين لا جعل التوسيع خليقاً بنا ولا اختيار له ولا إرادة ولا ذات .

٥٣ — وجاء في ص ٤٩١ « إنه ليس في حاجة الى غيرها » وهو مخالف لأسلوب القرآن الكريم وأساليب الفصحاء ، وذلك أنّ القرآن الكريم والعرب يستعملان الحاجة استعمالين اذا كانت مع الحرف الجار ، أحدهما استعمالها في الجملة الاسمية وإذ ذاك يجب جعل الحاجة في المحتاج فيقال « لي وبي وفي نفسي وفي صدري حاجة ، وليس بفلان حاجة » والاستعمال الآخر في الجملة الفعلية او مع شبه الفعل نحو « جاء اليهم في حاجة » وذهب في حاجة وأرسله في حاجة ، وقول الشاعر :

إذا كنت في حاجة مرسلاً فأرسل حكيماً ولا توصه

أي اذا كنت مرسلاً أحداً في حاجة فأرسل حكيماً ... وفي هذا الاستعمال وحده تجر الحاجة بحرف الجر ، ومن الأول قوله تعالى « إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها . ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم »

٥٤ — وورد في ص ٤٩٥ « من الأشجار التي تنبتها الطبيعة » قلت : إن العرب قالت « الأشجار البرية » وهي ضد المزروعة فلا حاجة بهم إلى نسبة إنباتها الى الطبيعة ، قال المبرد في وصف الضال « والضال : السدر البريّ وما كان من السدر على الأنهار فليس بضال [1] » فالذي على الانهار مغروس .

(١) كامل المبرد ج ١ ص [٦٩] من طبعة الدلجموني الأزهري .

٥٥ — وورد في ص ٥٠٦ « بحمده وآله آمين » والصواب بمحمد وآله آمين » والنقد واضح .

٥٦ — وجاء في ص ٥٠٦ وما بعدها ترجمة الأمير فخر الدين يوسف بن أبي الحسن محمد الحموئي الجويني ، منقولة من عدة مراجع وقد رأينا مرجعاً جديداً لترجمة هذا الكبير ، قال ابن الفوطي : « فخر الدين ابو المظفر يوسف بن شيخ الشيوخ أبي الحسن محمد بن أبي الفتح عمر بن علي بن محمد بن حمويه بن محمد بن محمد بن نصر بن الأمير حمويه بن علي الجويني المصري الأمير ، من البيت العريق في المشيخة والتصوف والامارة وأصله[1] من بحراباذ من رستاق جوين من اعمال نيسابور ، انتقل الى مصر وسكنها وصار شيخ الشيوخ بها وأعقب أولاداً نجباء ، وكان فخر الدين في خدمة الكامل بن العادل وانفذه رسولاً الى بغداد في ايام الناصر وكان يلبس العمامة فلما رأوا شهامته خلع عليه القباء والقلنسوة من دار الخلافة وأعطي الكوسات والأعلام وقيل [له] : ما تصلح أن تكون الا أميراً[2] . واستمر حاله في اللباس مدة ايام الكامل وله غزوات في الفرنج واستشهد بالمنصورة في ذي القعدة سنة سبع وأربعين وستمائة[3] » .

٥٧ — وجاء في ص ٥٢٤ « ثم وقع الجبل[4] بيد احد امراء الأطراف وهو احمد بن مروان أبو نصر الكردي صاحب ديار بكر وميافارقين ... » ذكر ذلك الكاتب الفاضل بعد نقله خبر اهداء السلطان طغرلبك الجبل الياقوت المذكور الى الخليفة القائم بأمر الله ، وسياقة التاريخ توجب تأخير خبر الاهداء عن خبر الامتلاك ، ألا تراه — أعني كاتب المقالة — نقل بعد ذلك قوله « وأنفذ[5] للسلطان طغرلبك هدايا عظيمة ومنها الجبل الياقوت الذي كان لبني بويه وابتاعه

(١) لعل الاصل [وأبوه أصله] (٢) قلت : هذه من غرائب الحكايات وتؤيد ما قيل في سيرة أمير المؤمنين الناصر لدين الله من أنه كان آية في اختيار الرجال ومعرفة أهل الفضل وذوي الكمال (٣) كتاب « تلخيص مجمع الآداب المرتب على معجم الأسماء في معجم الألقاب» ص ٢٨٣ من نسختنا الخطية المنسوخة على نسخة ظطرافية في المكتبة العامة ببغداد وهذه الظطرافية مصورة على نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق . (٤) هو ضرب ياقوت عظيم كتبت المقالة النفيسة فيه . (٥) الضمير يعود الى الأمير أحمد بن مروان المذكور

من ورثة الملك أبي منصور بن أبي طاهر ...» وقال سبط ابن الجوزي في ترجمة الأمير الكردي المذكور «وكان عنده الجبل الياقوت الأحمر الذي كان لبني بويه اشتراه من ورثة الملك ابي منصور بن ابي طاهر وأنفذه الى طغرلبك مع هدايا كثيرة تساوي ثلاثمائة الف دينار ومعها مائة الف دينار عيناً . وهذا الجبل الياقوت هو الذي قدمه السلطان للخليفة لما نزل من الخديثة واجتمع به في النهروان [١]» .

فالصواب إذن أن يقال «وكان الجبل الياقوت قد وقع بيد أحد الأمراء ...» ليطّرد التاريخ ، وقد فات الكاتب الفاضل شيء من أولية «الجبل الياقوت» قال ابراهيم بن محمد البيهقي «قال الكسائي : دخلتُ على الرشيد ذات يوم وهو في ايوانه وبين يديه مال كثير قد شق عنه البدر شقاً وأمر بتفريقه في خدم الخاصة وبيده درهم تلوح كتابته وهو يتأمله وكان كثيراً ما يحدثني فقال : هل علمت من أول من سنّ هذه الكتابة في الذهب والفضة ؟ قلت : يا سيدي هذا عبد الملك بن مروان . قال : فما كان السبب في ذلك ؟ قلت : لا علم لي غير انه أول من أحدث هذه الكتابة . فقال : سأخبرك ... ثم رمى بالدرهم الى بعض الخدم وقال : عليّ بالخازن . فأقبل الخازن ، فقال : ائتني بالجبل . فأتاه بحقّ فيه خاتم ياقوت يتقد كأنه مصباح ، فقال للخادم : ضع لنا هذا على هذا الدرهم الذي معك وليكن على مقدار اصبعي . ثم قال : أتعرف هذا الخاتم ؟ فقلت : لا ياسيدي . قال : إنّ ملك الترك كان غزا في زمن أبي مسلم سمرقند وعليها عامل له يقال له صبيح بن اسماعيل ومع ملك الترك قائد لملك الصين كان جليلاً عنده عظيم القدر بمنزلة ولي العهد أمدّه به لصهر كان بينهما في سبعين الف رجل وان صبيح بن اسماعيل ظفر بعسكر التركي وهزمه وغنم عامة ما فيه وأسر كافة رجاله وأسر القائد الصيني فيمن أسر فكان هذا الخاتم في اصبعه [٢] فأخذه منه وبعث به الى ابي مسلم فبعث به ابو مسلم

(١) أصول التاريخ والأدب [مج ٣٠ ب ص ١٩٦] نقلا عن مرآة الزمان. (٢) وهذا الخبر يخالف ما نقله الكاتب الفاضل من مروج المسعودي من كون الجبل من جواهر الأكاسرة وكون الرشيد اشتراه بأربعين الف دينار وليت شعري ماالذي ذكر المسعودي في أخبار الزمان من تاريخ ذلك الحجر الياقوت الذي أدخله في تاريخ «خواتم ملوك الفرس» من كتابه ذلك ؟

الى أبي العباس فأعجب به اعجاباً شديداً ، ودعا له من يبصره من الجوهريين والمقوّمين وسألهم عن قيمته فلم يُحسنوا ان يقوّموه ، فلم يزل مرفوعاً في خزانته الى أن مات فلما أخرج ما كان في خزانته من الجواهر والذخائر لتباع أخرج هذا الخاتم فنودي عليه وطلبه المنصور وعيسى بن موسى وتزايدا عليه فبلغ به المنصور اربعين الف دينار وحرص على شرائه واشتدت عليه مزايدة عيسى اياه فيه ، فلما رأى عيسى ان ذلك قد غاظه أمسك عن مزايدته فاشتراه المنصور بأربعين الف دينار فما ظنك بشيء يشتريه المنصور بهذه الجملة في ذلك الزمان وكان الدرهم أعز من الدينار في زماننا ، فلم يزل الخاتم في خزانته الى أن ولي المهدي فأخرجه ووهبه لي من دون أخي الهادي وذلك أنه جعل ولاية العهد له فأرضاني عن ولاية العهد بهذا الخاتم وبأشياء أخر فلما ولي الهادي طلب مني الخاتم فمنعته ولجّ فيه لجاجاً شديداً وبعث الي سعيد بن سلم الباهلي يدعوني فعلمت ثم يدعوني فأخذت هذا الخاتم وأخرجته من اصبعي فلما توسطت الجسر قلت لسعيد : انظر الى هذا الخاتم . ثم رميت به في دجلة . ومضى سعيد الى الدار فأخبر الهادي بما كان مني فبعث بالغواصين الى الموضع الذي ألقيت فيه الخاتم فطلبوه أشد طلب فلم يقدروا عليه فلما صار الأمر الينا بعثنا الغواصين فأخرجوه فها هو ذا عندي . ثم قال : ياعلي أتعبناك بذكر هذه الأموال وقد عوضناك لاصغائك الينا بخمسين الف درهم . فحملت بين يدي .

قال ابراهيم البيهقي : وحكي بعد ذلك أنّ هذا الخاتم صار الى المأمون فوهبه لبوران ابنة الحسن بن سهل ذي الرياستين ثم صار الى المعتصم ثم الى المعتز والمستعين فنقشه المستعين ثم صار كل خليفة ينقش عليه اسمه حتى نقصت من قيمته وهو الآن عند الخليفة المقتدر بالله [1] » .

قلت : وقد صار الجبل الياقوت المذكور الى علي بن بويه الديلمي على ما جاء في أخبار ابن مكتوم الشيرازي فانّ يوسف بن وجيه احد ارباب الدولة والسلطان في ذلك الزمان سأل ابن مكتوم المذكور عما ادّخره علي بن بويه المقدم ذكره

(١) ابراهيم البيهقي في المحاسن والمساوئ [ج ٢ ص ١٢٦ — ١٣٠] .

من الذخائر والجواهر فقال ابن مكتوم « لا أعلم الا ما سمعت أنّ الجبل الذي كان ثمّ مقتدر قد وصل اليه ، فقال: وما الجبل؟ قال: فصٌّ ياقوت أحمر فيه خمسة مثاقيل[1] .

ولا يعلمُ بعد ذلك ما صار اليه ذلك الجبل الياقوت أما تكرار اسم « الجبل » في التواريخ فلا يعني أنه ذلك الجبل بعينه لأنّ الجبل كان خاصاً ثم صار عاماً لكل جوهر كبير من الياقوت وغيره من الحجارة الكريمة ، وإلا فكيف يصير الجبل من خزائن دار الخلافة العباسية الى دار الخلافة الفاطمية بالقاهرة ولم تجر عليها حادثة كحادثة أرسلان البساسيري . قال سبط ابن الجوزي في ترجمة ابي محمد عبد الله بن يوسف العاضد بالله الفاطمي « وكان في القصر من الجواهر النفيسة ما لم يكن عند خليفة ولا ملك مما قد جمع على طول السنين فمنه القضيب الزمرد وطوله قبضة ونصف والجبل الياقوت الأحمر والدرّة اليتيمة مثل بيض الحمام والياقوتة الحمراء وتسمى الحافر وزنتها أربعة عشر مثقالاً[2] » ولو كان لذلك الجبل اتصال « بجبل بني العباس لنبّه عليه سبط ابن الجوزي كما نبه قبل ذلك . وكذلك سكت عن الاشارة من تأخر زمنه عن ابن الأثير وسبط ابن الجوزي كأبي شامة فانه قال « وحصل صلاح الدين على اليتيمات وقطع البلخش والياقوت وقضيب الزمرد » ثم نقل بعض كلام ابن الأثير عن الدين[3] وذكر المؤلف المذكور أنّ صلاح الدين بعث فيما بعث به من النفائس الغريبة الى نور الدين محمود بن زنكي حجر ياقوت وزنه سبعة مثاقيل[4] .

هذه تعليقاتي على ما قرأته من المجلد الثامن عشر من هذه المجلة الزاهرة ، وقد اقتصرت فيها على ما لم أجد بُدّاً من التعليق عليه في أثناء قراءتي اياه ، وسأبدأ التعليق على المجلد التاسع عشر مستعيناً الله تعالى مستهدياً له — عز وجل — الى السبيل السوي .

(بغداد) **الدكتور مصطفى جواد**

---

(١) أبو علي التنوخي في [نشوار المحاضرة ج٨ص١٥١] . (٢) مختصر المجلد الثامن من مرآة الزمان [ص١٨١] . (٣) كتاب الروضتين [ج١ص٢٠٠] (٤) المرجع المذكور ص[٢٢٩]

الفهرس العام لمواد المجلد الحادي والعشرين

منسوقاً على حروف الهجاء

فهرس الأعلام

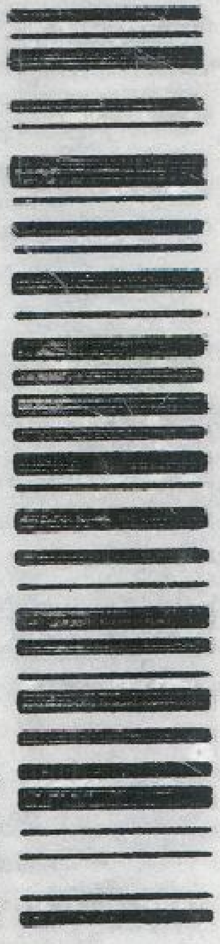
لكتاب مقالات المجلد الحادي والعشرين

منسوقاً على حروف الهجاء

فهرس الجزء الحادي عشر والثاني عشر من المجلد الحادي والعشرين

مخطوطات ومطبوعات

آراء وأنباء


Bibliotheca Alexandrina
0652759
